مارلين ستون

يوم كان الرب أنثى

«نظرة اليهودية والمسيحية إلى المرأة»

ترجمة: حنا عبود

الأهالي

يوم كان الرب أنثى

* يوم كان الرب أنثى «نظرة اليهودية والمسيحية إلى المرأة»
* تأليف: مارلين ستون
* ترجمة: حنا عبود
* الطبعة الأولى ١٩٩٨

* **الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع**
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٩٥٠٣ ـ هاتف: ٣٣٢٠٢٩٩
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦
* التوزيع في جميع أنحاء العالم:
* **الأهالي للتوزيع**
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٩٢٢٣ ـ هاتف: ٢٢١٣٩٦٢
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦

١ ـ ٢٩١,٢ س ت و ي ٢ ـ العنوان ٣ ـ العنوان الموازي
٤ ـ ستون ٥ ـ عبود مكتبة الأسد

مارلين ستون

يوم كان الرب أنثى

«نظرة اليهودية والمسيحية إلى المرأة»

ترجمة: حنا عبود

الأهالي

العنوان الأصلي للكتاب:

WHEN GOD WAS A WOMAN
MARLIN STONE
A HARVEST BOOK - 1978

يعقوب والجسر وأحلام العذارى

هذا كتاب جديد، لا لأن المؤلفة تأتي بجديد من عندها، بل لأن الوقائع التي تقدمها هي آخر المكتشفات الجديدة التي أحدثت ثورة في التفكير الحديث إلى درجة أنها تغير القناعات الموروثة تغييراً كاملاً أو شبه كامل. فهو ليس كتاباً سجالياً لأن الوقائع العنيدة التي قدمتها المؤلفة لاتقبل سجالاً ونقاشاً. ومع أنها قدمت مقطتفات من الكتابات والخطابات لأبرز عضوات الحركة النسوية منذ القرن الثامن عشر وحتى اليوم، فإن الوقائع تظل صاحبة السيادة تبسط حضورها في معظم الفصول، فالقضية النسوية اليوم لاينقصها إلا هذه الوقائع التي قدمتها المؤلفة لوقف السجالات الإنشائية التي بلغت أحياناً حد المهاترات.

وبما أن الوقائع هي اللغة الغالبة والقاهرة التي تحمينا من تسلل الثقافة الدعائية اللاوية، فإني سوف أروي هذه الواقعة التي تدل على مدى تغلغل الأفكار المغلوطة التي تنقصها الوقائع في ثقافتنا المعاصرة. فمنذ أكثر من ربع قرن ترجمت المجلد الرابع من المؤلفات الفلسفية لجورجي بليخانوف. ومرت معي كلمة Philistinism فترجمتها النزعة الفلسطينية. ولكني أردت أن أوضح للقارىء المقصود بهذه النزعة مثلما أوضحه لنفسي أيضاً حيث لم تمر معي هذه الكلمة من قبل. استعنت بمعجم المورد فوجدت تحت مادة Philistine مايلي: الفلسطيني القديم اللامثقف أو اللامبالي بالثقافة. المادي. عدو التقدم أو الفكرات التقدمية. ذو علاقة بقدماء الفلسطينيين. غير مثقف، غير مستنير. (يبدو أننا لسنا في حاجة إلى تطبيع فنحن مطبعون مسبقاً).

في كل المعجمات التي أملكها والتي تبلغ مايقارب الخمسين معجماً، من معجم الجيب وحتى معجم وبستر الكامل لم أجد شيئاً غير ماوجدته في معجم المورد. إذن انتهى الأمر ولا مجال للبحث فمن مفكر كبير من أمثال بليخانوف وحتى معجم وبستر (الموثوق) ثمة إجماع على تفسير النزعة الفلسطينية بأنها العداء للثقافة. فوضعت تفسير هذه النزعة بين هلالين (خدمة للقارىء؟) من دون أن أدرك وقتها أني أسمح لثقافة شائهة مغلوطة دعائية منحازة أن تتسلل إلى قناعة القارىء.

وقتها اقتنعت على مضض أن الفلسطينيين القدامى كانوا نجسين قذرين عديمي الثقافة، وأنى لي أن أعصى بليخانوف وكل هذه المعجمات الصغيرة والضخمة، إلى أن قرأت هذا الكتاب منذ عشر سنوات فندمت أيّ ندم على مافعلت. وإذا قيض أن يعاد طبع الكتاب فإني سأصحح قبل اي شيء الخطأ أو الخطيئة المتاخمة للجريمة التي غشني بها بليخانوف ودفعتني المعجمات إلى اقترافها. فالشعب الفلسطيني، كما تثبت الكاتبة، من أعظم شعوب العالم وأقدمها وهو الذي أشاع حضارة المحبة والسلام والتسامح والتضحية في أصقاع واسعة فكان له أثره في كريت وصقلية واليونان وحتى في مصر الأقرب إلى دينها من أي دين آخر، ناهيك عن الحضارة الإنسانية الراقية والمهذبة والمثقفة والهادئة التي أشاعها في أرض كنعان، وعلى الأخص في جنوبها... ولكن لو كنا نعرف الخطيئة لما اقترفناها.

كيف؟ كيف فاتني عندما ترجمت بليخانوف أن أرجع إلى التوراة وأقرأ مافعله أنصار يهوه بهذا الشعب العظيم، في أرض كنعان، حتى أعرف مافعلوه به من تشويه سمعة؟ كيف فاتني أن أقرأ مافعله العبريون غبّ دخولهم مباشرة بالفلسطينيين ولم انتبه إلى حيلة مليكهم ياهو الذي زعم أنه صار من أنصار الدين الفلسطيني فدعا جميع كهنة هذا الدين الإنساني العظيم إلى المعبد خادعاً كاذباً منافقاً. وفي المعبد قضى على الجميع من دون أي استثناء؟ كيف فاتني أن أعود إلى مافعله موسى وهارون وهوشع وإليشع وإيليا وغيرهم وغيرهم...؟

إن الوقائع العنيدة التي تبسطها المؤلفة تبين أن مانعتبره الآن مظاهر رقي وجداني في مثيولوجيا اليونان وكريت (أيام مينوس) وصقلية وجنوب ايطاليا وبعض أصقاع الأناضول، بل حتى في إسبانيا وصولاً إلى الجزر البريطانية... حتى آخر جزيرة في الشمال إنما تطورت من النظرة الفلسطينية الإنسانية، بذرة المحبة والثقافةالسلمية والنظرة الإنسانية.

الآن صرنا نعرف لماذا ورثنا هذا المفهوم عن النزعة الفلسطينية. إن أصحاب يهوه وأفراخ الأفاعي التي أنسلوها وعمّت أصقاعاً كثيرة في العالم هم الذين أسسوا هذا المفهوم. فالفلسطيني قذر لأنه لايصلي كالعبري وغير مثقف لأنه لايؤمن بيهوه المجرم السفاك، ومادي لأنه لايتسلح بسلطة الغائب لقهر الإنسان كما فعل ويفعل الإسرائيلي، وهو معاد للثقافة فعلاً، لأنها ثقافة الغزاة والغزوات والمغتصبين والاغتصابات التي غيرت القناعات بالسيف وليس بالحقيقة والوقائع. يبدو أن الفلسطيني منذ آلاف السنين يحمل صليب آلامه ليدفع ثمن محبته وتهذيبه وإنسانيته.

لولا الأركيولوجيا الحديثة لكنا أسرى الثقافة الإعلامية العبرية الدعائية التي ظهرت قديماً بعد التدمير الشامل الذي قام به العبريون لكل الثقافة القديمة في هذه المنطقة. إن التدمير الدموي المريع للثقافات القديمة أتاح الفرصة للثقافة الدعائية التي تعتمد على أحكام القيمة لا يكون لها مرجعية مادية تغدو مادة دعائية لأغراض سياسية فتتسلل من دون عائق ثم تستخدم كأنها مسلمات حقيقية. إن الأركيولوجيا ليست علم آثار وحسب بل إنها علم تصحيح أحكام القيمة التي شوهت ثقافتنا وغيرت قناعاتنا من دون أي مستند واقعي.

ولا أريد من القارىء أن يذهب إلى الظن أن الكتاب ينتصر للفلسطينيين من العبريين المشوهين لكل الثقافات الإنسانية انتصاراً عاطفياً، فهذه نتيجة يستخلصها بنفسه، لأن الحقيقة أن الكتاب اعتمد الاكتشافات الأركيولوجية وجعلها تنطق بنفسها. ليس هذا فقط وإنما بسطها بسطاً علمياً جافاً. بل أيضاً جعل من التوراة شاهداً على صدق حفريات المنطقة. فهناك إصحاحات ومقاطع وآيات ماكنا لندرك النواة الاستهدافية التي فيها لولا الجهود الأركيولوجية الحديثة التي أنقذتنا من وهم أحكام القيمة ومن التوراة التي استخدمتها استخداماً دعائياً. إنها أضخم كتاب دعائي عرفه العالم، بل أكبر كتاب من حيث التأثير وتسريب الأحكام مثل أفاعي الليل، فحتى زعيمنا بليخانوف، وهو ماهو، لم تكن لديه الحصانة ولا الحصافة ولا الحذر ليقف أمام الأحكام القيمية التوراتية موقف المتسائل. أليس غريباً أن الذين قضوا على الحضارة (الحضارات كلها قديمة) في هذه المنطقة هم الذين تسللوا إلى عقولنا؟ ألا يشبه هذا فلماً أمريكياً نزداد تصفيقاً لبطله كلما ازداد عدد الطلقات التي يصرع بها الآخرين؟

يقال الاعتراف بداية التكفير. وها إني اعترف بمدى تأثير الإعلاميا الخبيثة المتسللة، فلا أريد للقارىء أن يذهب به الظن أن الكتاب مقتصر على الفلسطينيين وإنصافهم وإبراز الصيغة الإنسانية التي وضعوها للحياة والنظرة الراقية التي رأوا بها الكون والوجود. إن الكتاب يتحدث عن مناطق كثيرة جداً: سومر وأكاد وبابل وأوغاريت وكريت وقبرص واليونان ومصر... ولكن حتى لو لم يتكلم إلا عن الفلسطينيين لكان ذلك كافياً، إذ أن تلك الثقافات كلها لاقت المصير ذاته الذي فرضه الكهنة اللاويون ـ أحفاد الهندوأوروبيين ـ على الثقافة الفلسطينية، بل على الفلسطينيين. وسوف يلمس القارىء من هذا الكتاب أن اللاويين هم ذاتهم الذين أطاحوا بتلك الثقافات، لافرق بين فصيل وفصيل، سواء في مصر أو كنعان أو العربية أو إيران أو مابين النهرين أو

الهند أو كيليكيا أو الأناضول (راجع الفصل الخامس: واحد من عرقهم). إنهم كلهم هند وأوروبيون أو قل إنهم كلهم لاويون: وحدهم أنصار يهوه، وحدهم الذين تجلى لهم يهوه بكل كيانه فعاينوه ورأوه وكلموه وجعلهم أوصياء على وصاياه... وحدهم... وحدهم... أول من استخدم سلطة الغائب للقمع والملاحقة والتدمير والغزو الدموي... أول من صنع الوهم واستخدمه سلاحاً فتاكاً. ولأول مرة في تاريخ البشرية لم تعد التهمة توجه من الواقع المرئي والملموس بحيث يكون دليلها منها وفيها ترافقها حيثيات عينية، بل صارت التهمة تهبط من السماء بلسان يهوه وتنفذ على يد اللاويين كهنته المخلصين. فحتى يتم الإجهاز على أي كائن ليس من الضروري تقديم أدلة على أنه ألحق الضرر المادي أو أساء الجوار أو احتل العقار أو ضرب أو شتم أو خان الذمم... لا أبداً. يكفي أن يكون من الأمم حتى يباد ومدن قومه بكاملها: أبنيةً وسكاناً وهياكلَ.

والمسألة ليست مسألة إبادة مدن بكل مافيها، فقد يفعل زلزال واحد كل ذلك. المسألة أبعد من ذلك بكثير. إنها مسألة سياسية لتغيير الصيغة القائمة بصيغة يهوه القادمة، أي صيغة اللاويين التي وضعت لتخدم العبريين. هذه هي المسألة الخطيرة كما تبيّنها المؤلفة، وهي التي غيّرت صيغة الحياة التي وضعها الفلسطينيون أو قل إنها استُبدلت بصيغة يهوه. الصيغة الفلسيطينية تقوم على اقتصاد أدبي راقٍ، فقد كانت لديهم مئات الأعياد والاحتفالات ولم يعرفوا طيلة آلاف السنين أي نوع من أنواع الحروب الدينية على الاطلاق. أما صيغة العبريين أو قل صيغة اللاويين (لأن كثيراً من العبريين انضموا إلى الفلسطينيين في عباداتهم وأعيادهم واحتفالاتهم) فتقوم على اقتصاد سياسي، أي على امتلاك العالم مادياً، لذلك كانت الأوامر تأتي من عند خبير كبير في الاقتصاد السياسي لاحتلال أرض الغير وتدمير كيان الآخرين وتسخير كل شيء للحيازة المادية. ولذلك، لأول مرة في التاريخ ظهرت الحروب الدينية باستخدام سلطة الغائب. وهذا وحده يفسر لنا المجازر التي ارتكبت ضد الفلسطينيين في أريحا وحاصور وجازر وحبرون وصيدا... وبقية المدن التي ترصد المؤلفة مذابحها والغدر بها.

بهذه المجازر والحروب تم القضاء على الصيغة الفلسطينية الراقية التي كانت فيها المرأة تتمتع بأعظم مكانة تصل إلى حد القدسية. ولأول مرة في التاريخ تحتل المرأة مرتبة ثانوية، بل تصل إلى أدنى مراتب الكائنات الحية. وغزاة الشمال (راجع الفصل الرابع) هم أول من غيّر الصيغة الأدبية في التاريخ، وجعلوها صيغة

اقتصادية، وهو التغيير الذي جعل وضع المرأة يتدهور إلى درجة لاتكاد تصدق بالمقارنة مع وضعها السابق فقد مُنعت عموماً من المشاركة في الحياة العامة .حرّم عليها سلك الكهنوت الذي كان شبه خاص بها، بل مُنعت من التعليم وغير ، لك مما سيطلّع عليه القارىء.

من هذه النقطة تنطلق مارلين ستون مؤلفة هذا الكتاب. وهي نقطة هامة وخطيرة في آن معاً غيّرت مفاهيمنا السابقة عن النزوحات الكبرى في المنطقة. فهذه النزوحات لم تتجه من الجنوب إلى الشمال، كما كنا نعتقد أو نتوهم، وإنما مصدرها الشمال ومركزها الأكبر كان قرب بحر قزوين. وبمتابعة مجاري الأنهار ومساقطها يبرز أمامنا مخطط الإندياح الشمالي المخيف الذي غيّر العالم... وغيّر الظروف التي كانت فيها المرأة مقدسة فانقلبت المفاهيم فما كان مقدساً صار مدنساً وما كان سامياً صار منحطّاً ومنبوذاً. وحتى اليوم مايزال قسم كبير جداً من البشرية يتبع الخط الذي رسمه اللاويون أخلاف الهندوأوروبيين، أو كما تؤكد المؤلفة بأنهم فصيل منهم.

وقد أفاد الباحث المصري لويس عوض من هذه المكتشفات وأعاد النظر في لغات منطقة الشرقين الأدنى والأوسط وأسس لقيام علم لغوي جديد في كتابه «مقدمة في فقه اللغة العربية».

إن المؤلفة مارلين ستون لاتنظر إلى المرأة كجنس مستقل، ولا تكتب مأساتها وكأنها موضوع قائم بذاته. إنها تتقصى الصيغة التي كانت سائدة والتي كانت المرأة تمثل فيها مكانة مرموقة، ثم تتابع الغزاة الشماليين في تحركاتهم وتحطيمهم لعناصر الصيغة وتقف وقفة طويلة في فلسطين لتبين أن من دفع ضريبة هذه المأساة كانت الحياة نفسها وقد تغيرت صيغتها، فلم تكن النساء وحدهن صرعى غزاة الشمال وفي مقدمتهم اللاويون والعبريون، بل شعوب بكاملها، لكن الثقافة الإعلامية المتسللة استطاعت تغيير القناعات حتى هذه الأيام، وهنا دفعت المرأة الضريبة الكبرى. وندفع معها هذه الضريبة نتيجة الاجتياحات الحربية والفكرية التي قام بها غزاة الشمال، فالجنوب ـ كما هو اليوم تماماً ـ ضحية ولم تظهر منه أي هجرة قبل غزاة الشمال، على النقيض مما كان في أذهاننا أو في أوهامنا إن أردت الدقة. إن مأساة العالم جاءت من الشمال... وما تزال.

لو أن مارلين ستون نحّت جانباً الوقائع والمكتشفات، ولغة الأرقام واكتفت باتخاذها أساساً ونقطة انطلاق في كتابة قصة غزاة الشمال شعراً أو بلغة أدبية خيالية

لكنا أمام أعظم ملحمة عرفها العالم، بل لو أنها اكتفت بسرد قصة ليليت السومرية وكيف استخدمها اللاويون ذلك الاستخدام الديني اليهوي الإعلامي وحوّلوها من انثى مقدسة إلى شيطانة ليلية لكنا أمام ملحمة إنسانية رائعة قل نظيرها.

كل ما يمكن أن نقوله إن هدف المؤلفة لم يكن أدبياً خيالياً بل كان كشفاً للجذور العميقة ليهوه رمز غزاة الشمال، الذي، أو الذين، ضُربت الصيغة الإنسانية للحياة على يديه أو على يديهم.

لقد تمكنت ثقافة يهوه أن تفرض نفسها في كثير من ميادين الحياة والمجتمع، بل إن بعض الأبحاث «العلمية جداً» في العصر الحديث ماتزال تعكس أصداء يهوه بصدد المرأة فتقر أو تستنتج أن تقصير المرأة في بعض المجالات لايعود إلى الثقافة الذكورية التي أهملتها وهمّشتها وأقنعتها بضعفها وجعلتها مصدر الشرور كلها بلا استثناء، حتى إن خلفاء يهوه رأوا أن النجاسة ناشئة من لعنة يهوه، وإنما يرجع إلى طبيعتها الفيزيولوجية التي لايمكن التدخل فيها، فكأنها هكذا خلقت وكأنها هكذا سوف تبقى وإن ظهرت آلاف الأنواع من علوم الاستنساخ. آلاف السنوات من القمع والتهميش لم تفعل شيئاً ولن تفعل شيئاً مادامت البيولوجيا ثابتة؟؟؟.

والحقيقة أنها لم تبق ثابتة بل تخلّفت كثيراً عما كانت عليه في صيغة الحياة التي سبقت ظهور غزاة الشمال من اللاويين أنصار يهوه، فانتزعوا منها جميع الوظائف تقريباً عدا الولادة والإرضاع والاهتمام بالمطبخ، المتعة الثانية للذكر إلى جانب السرير. إنها حقاً مخلوق تعيس ومتخلف لا لأنها هكذا هي بل لأن إرادة يهوه فرضت عليها ذلك.

بيد أننا نستطيع القول إن ميداناً واحداً من الحياة لم تستطع ثقافة يهوه من فرض نفسها فيه (لأنها أصلاً ضده) وهو ميدان الأدب والفن، ميدان الاقتصاد الأدبي، إذ ماتزال المرأة فيه مشرقة رائعة تنضح بالمحبة والتضحية وتلهم البشر ابداعاتهم وتبث فيهم العطف والمحبة. وعندما أراد ديلاكروا رسم الحرية اختار لها امرأة. وأنا أعتقد أن تحريم يهوه للفن والرسم والنحت مرجعه إلى نظرته العدائية إلى المرأة وتحويلها إلى أداة إنتاج ككل شيء في اقتصاده السياسي، لأن كل التماثيل والرسومات كانت للمرأة ومن وحيها، فلا يعقل أن يسمح بالفن والمرأة مقدسة فيه. لكن المرأة ظلت في الفن والأدب كما كانت من قبل. إنه الميدان الوحيد الذي لا وجود فيه لليهوه إلا ماندر.

ولا أقول هذا وحسب، بل أذهب أكثر من ذلك فأرى أن التقاليد الأدبية المتبعة هي الوحيدة التي تعكس الصيغة القبيهوية، الصيغة الفلسطينية أو قل صيغة الاقتصاد الأدبي. ولهذا فإن موقف المؤلفة مارلين ستون من المرأة لم يضف شيئاً إلى موقف التقاليد الأدبية. وسوف اكتفي بالإشارة إلى أحدث أثر أدبي يعكس هذا الموقف وهو رواية. «جسر بنات يعقوب» للكاتب الفلسطيني حسن حميد. فقد رافقتُ ولادة هذا الأثر منذ أن كان فكرة، وشاهدت الكاتب يمزق المسودات الأولى والثانية... إلى أن مكنته أدواته الفنية من رسم الهيكل العام. والنتيجة التي يخلص إليها هي ذاتها التي انتهت إليها مارلين ستون، مع أني متأكد كل التأكيد أن هذا الكاتب لم يطلع على الكتاب، ولم أتداول معه أي موضوع من موضوعاته. كيف وأنا لم أكن قد قرأته. وذهلت عندما قرأت الرواية كاملة، وكنت عندئذ قد قرأت كتاب مارلين ستون. إن الموقف هو ذاته بينه وبينها. إن بنات يعقوب رضين بالإذلال، رضين بأن يكن أدوات، رضين بأن يتصرف بهنّ أبوهن كيفما يشاء لا لأنهن يردن ذلك من تلقاء أنفسهن، فهنّ بشر وتراودهن أحلام بشرية، وهنّ إناث وتراودهنّ أحلام الإناث. ولكنهنّ فعلن مافعلن انصياعاً لنصائح أو قل أوامر أبيهن تحت ذريعة أن يهوه والأجداد يريدون ذلك. وبالتدريج استطاع أبوهن الذكر أن ينتزع منهن أحلامهن البشرية والأنثوية وأن يستبدلها بأحلام مشروعة هو مشروع الامتلاك المادي للعالم، فعشن في الواقع وهنّ مغتربات عنه، وأوهمن أنفسهم بأن أحلام يعقوب الذكر هي أحلامهن، واعتقدن أنهن يحقّقن ذاتهن باعتباره أحلام الذكر فازددن اغتراباً، وازددْن اضطراباً. وكلما ازددنَ اغتراباً ازددن اقتراباً من أبيهنّ الذكر باعتباره الأذكى والأعقل والأقوى عسى يهديهنّ إلى ماينشدن. ولكن عبثاً فما دام مشروع يعقوب مشروعاً مادياً لا أدبياً فإن المرأة سوف تتحول إلى أداة بكل معنى الكلمة. وهذه هي النتيجة ذاتها التي انتهت إليها مارلين ستون: تحويل المرأة من كائن بشري إلى أداة إنتاج...

لو لم أكن مطلعاً على مجريات العمل الفني لقلت إن الكاتب الفلسطيني سطا على كتاب مارلين ستون، أو أنه استفاد منه، أو استغل النتيجة التي انتهت إليها. ولكنه الأدب الذي لايستطيع إلا أن يكون هكذا. وكل كاتب يجب أن يكون عمره خمسة آلاف عام على الأقل. وهذا هو عمر حسن حميد الذي يتابع تقاليد الفلسطينيين القدامى، فأثبت فعلاً أنه عديم الثقافة وغير مستنير بمنظور يهوه ومشروع يعقوب، لابمنظور بليخانوف الذي خدعني فاستدرجني فأخجلني. وهو مثل قُداماه مايزال يحمل صليب آلامه بسبب اللاويين على رجاء القيامة. بل أكثر من ذلك فمازال

الشمال شمالاً والجنوب جنوباً... والبقية يعرفها القارىء.

إن المرأة القديمة المقدسة ماتزال تعيش في اقتصادنا الأدبي وليس في الاقتصاد السياسي الذي ابتكره اللاويون منذ آلاف السنين. والصراع الأساسي اليوم هو بين هذين الاقتصادين: إما الصيغة الأدبية الفلسطينية للحياة وإما الصيغة اللاوية، صيغة الاقتصاد السياسي وتحويل المرأة إلى أداة...

أما الميادين الأخرى غير الأدبية فقد أفلحت المؤلفة مارلين ستون في إبرازها بهدوء وثقة وإيمان معتمدة على أحدث ماكشفت عنه الأركيولوجيا من وقائع، أقصد من جرائم اللاويين الهندوأوروبيين.

إن الكتاب رافد جديد للاقتصاد الأدبي فوجدت ترجمته واجباً، ومن هذا الباب أطمع أن تكون قراءته واجباً أيضاً. فالعالم ينتحر في ظل ثقافة يهوه الذكورية، والمعركة لا مهرب منها.

حنا عبود

القلاطية. غرة حزيران ١٩٩٧

يتمتع الرجل بامتياز كبير وهو أنه يملك رباً يصدق على القانون الذي يكتبه، وبما أن الرجل يمارس سلطة حاكمة على النساء فمن صالحه أن تكون هذه السلطة موهوبة له من الكائن الأعلى. فالرجل عند اليهود والمحمديين والمسيحيين، إلى جانب آخرين، هو سيد بموجب حقّ إلهي، لذلك فإن الخوف من الله يقمع أي نزوة تمرد لدى الأنثى المسحوقة.

سيمون دي بوفوار ـ الجنس الآخر ـ ١٩٤٧

قال رئيس الأساقفة ك. ل. مايرز إن الكهنوت الأسقفي هو «مفهوم مذكر»

«الكاهن هو رمز الله شاء أم أبى. فالله في تصور العهدين القديم والجديد مشخص في تصورّ مذكر». قال ذلك في تقرير ألقاه بين ٧٦٠ مندوباً في كاتدرائية النعمة.

وجاء في التقرير «المسيح هو مصدر الكهنوت. فجنس المسيح ليس مصادفة، وذكوريته ليست عارضة».

سان فرنسيسكو كرونيكل ـ ٢٥ اوكتوبر ١٩٧١

في البدء كانت إيزيس: أقدم القدماء، كانت ربة نشأ منها كل شيء. كانت السيدة الكبرى، سيدة قطري مصر، سيدة الحماية، سيدة السماء، سيدة بيت الحياة، سيدة كلمة الله. كانت منفردة. كانت في كل أعمالها العظيمة والمدهشة ساحرة حكيمة، وأعظم من جميع الآلهة.

طيبة ـ مصر ـ القرن الرابع عشر قبل المسيح

أنت ياربة شمس أرينا إلاهة مكرمة. اسمك يعلو الأسماء كلها. وقداستُك تعلو كل المقدسات، وحدك المكرمة ياربة الشمس، وحدك أنت العظيمة ياربة شمس ارينا، فلا يدانيك أي إله آخر شرفاً وعظمةً....

بوغازسكوي ـ تركيا ـ القرن الرابع عشر قبل المسيح

إلى تلك التي بيدها الحسم، ربة كل الأشياء، إلى سيدة السماء والأرض التي تتلقى الضراعة، التي تستمع إلى الشكوى، والتي تبتهج للصلاة، إلى الإلاهة الشفوقة التي تحب الحق عشتار الملكة التي تزيل كل اضطراب. إلى ملكة السماء، ملكة الكون، الملكة التي سارت في العماء المخيف فخلقت الحياة بقانون المحبة، ومن العماء خلقت الانسجام ومن العماء أمسكت بيدنا وأرشدتنا.

بابل ـ من القرن الثامن عشر إلى السابع عشر قبل الميلاد

اسمعي أيتها الأقاليم مديح الربة نانا، مجّدي الخالقة، وسبّحي المقدسة، وسبّحي الممجّدة، وتقرّبي من السيدة الجبّارة.

سومر ـ القرن التاسع عشر قبل الميلاد

مقدمة

كيف حصل هذا؟ كيف اكتسب الرجال السيطرة التي تسمح لهم الآن بتنظيم العالم على ضخامة تنوّعه وتقرير أي الحروب التي يجب أن يشنوا عندما يحين وقت وجبة الغداء؟

هذا الكتاب هو نتيجة إجاباتي عن ذينك السؤالين والأسئلة المشابهة التي يطرحها كثير منا عن وضع النساء في مجتمعنا فنسأل وتسأل واحدتنا الأخرى. وحتى لو أجبنا عن هذه الأسئلة يبرز سؤال آخر. ماذا نتوقع من مجتمع يعلّم أولاداً، ذكوراً وإناثاً، لعدة قرون، أن الاله الذكر خلق الكون و كل مافيه، وجعل الرجل على صورته المقدسة ـ ومن ثم، وكتفكير تالٍ خلق المرأة لتساعد الرجل مناصفة له في كل مساعيه؟ صورة حواء التي خلقت من أجل زوجها، ومن زوجها، إنها المرأة التي أنتجت لسقوط البشرية، صارت بطرق كثيرة صورة لكل النساء. كيف ظهرت هذه الفكرة إلى الوجود؟

قليل من النساء الذين يعيشون في مجتمعات تتبع اليهودية والمسيحية والإسلام، لاينتبهون لقصة حواء التي انساقت وراء كلمة الحية في جنّة عدن، فأكلت الثمرة المحرمة ثم أغوت آدم فأكلها. ولكن عموماً أثناء السنوات الانطباعية للطفولة نتعلّم أن هذا العلم وهو أكل التفاحة الطيبة من شجرة معرفة الخير والشر هو الذي سبب خسارة الفردوس، وطرد آدم وحواء بالتالي كل الجنس البشري، من هذا المنزل الأول للبركة والرضى. ويجعلوننا نفهم أنه نتيجة هذا العمل قرر الله أن تخضع المرأة لسيادة الرجل ـ الذي كان في ذلك الوقت قد حصل على حق إلهي بالسيطرة عليها ـ من تلك اللحظة حتى الآن.

إلا أن طرد آدم وحواء من جنة عدن ليس آخر الأخبار وإنما هنا أحداث معاصرة أثرت في نساء اليوم بصورة أكثر مباشرة. وفي النضال من أجل تحقيق وضع متساو للنساء في مجتمع ماتزال تسوده قيم وأخلاقيات ـ العقائد اليهودية ـ المسيحية (التي نفذت بعمق إلى كل أركان حضارتنا المعاصرة) سرعان ما نتأكد أن اختباراً عميقاً لأسطورة الخلق هذه، إلى جانب أصولها التاريخية سوف يمدّنا بالمعلومات الأساسية.

إنه يجعلنا نفهم الدور الذي لعبته الأديان المعاصرة في القمع الأولي والمستمر وفي إخضاع النساء ـ وأسباب هذا.

في مراحل ماقبل التاريخ وفي المراحل التاريخية المبكرة من التطور البشري وجدت أديان قدّس فيها الناس خالقهم، باعتباره أنثى. فالربة العظمى ـ الجدة المقدسة ـ عُبدت منذ بدايات العصر النيوليني ٧٠٠٠ سنة قبل المسيح حتى إغلاق آخر معبد للربة عام ٥٠٠ بعد المسيح. بعض الباحثين الموثوقين يمدون عبادة الربة بعيداً في الماضي حتى العصر الباليوليثي الأعلى الذي يمتد إلى ٢٥٠٠٠ سنة قبل المسيح. ومع ذلك فإن أحداث التوراة التي يعلمونها لنا على أنها وقعت في بداية الزمن، إنما حصلت في الحقيقة ضمن المراحل التاريخية. ويعتقد معظم دارسي الكتاب المقدس أن إبراهيم، أول نبي للاله العبري/ المسيحي يهوه والمعروف أكثر باسم جيهوفا عاش ليس قبل ١٨٠٠ قبل المسيح والأرجح أنه تأخر حتى عام ١٥٥٠ قبل المسيح.

والأهم هو التحقق من أن كلا الدينين وجدا في آن واحد لآلاف السنين ـ بين شعوب متجاورة جداً. وكل الأدلة الأركيولوجية والميثولوجية والتاريخية تكشف أن الدين الأنثوي، الذي لم يزل زوالاً طبيعياً كان ضحيته قرون من الاضطهاد والقمع المستمرين على يد محامي الأديان الجديدة التي جعلت الآلهة الذكور هي الأعلى. ومن تلك الأديان الجديدة انحدرت أسطورة خلق آدم وحواء وقصة الفردوس المفقود. كيف كانت حياة النساء اللواتي عشن في مجتمع قدّس خالقه أنثى حكيمة وباسلة؟ لماذا حارب أعضاء الأديان الذكورية المتأخرة بمثل هذه العدوانية لقمع العبادة السابقة ـ بل الإجهاز حتى على ذكراها؟ما هي الدلالة الحقيقة لأسطورة آدم وحواء، ولماذا ومتى كُتبت؟ إن الإجابات التي اكتشفتها تشكل مضامين هذا الكتاب. لقد كتبت في «يوم كان الرب أنثى» قصة قمع الطقوس النسائية لشرح الأحداث التاريخية والأوضاع السياسية التي أدت إلى كتابة الأسطورة اليهودية/ المسيحية عن السقوط والفردوس المفقود والأهم من ذلك إلقاء اللوم في تلك الحضارة على المرأة وحواء، وعلى النساء منذ ذلك الوقت.

تمهيد

مع أن الدين يبدو لكثير منا اليوم آثاراً أرشيفية من الماضي (وعلى الأخص العهد القديم الذي ظهر قبل المسيح بقرون كثيرة) فإن هذه الكتابات ماتزال تعتبر لدى كثير من آبائنا وأجدادنا أو أجدادنا الأقدم إنجيلاً مقدساً وكلمة مقدسة. وبالتالي فإن معتقداتهم الدينية وبالتالي النماذج السلوكية والاجتماعية تركت انطباعها فينا بطرائق شتى. وبالفعل فإن الماضي القديم لم ينحَّ بعيداً كما نتخيل أو نؤمن.

والواقع لو أننا فهمنا تماماً كيف ولماذا حاز الرجل صورة الفرد الذي ينجز أعظم المآثر وأهمها بينما كانت المرأة متدنية إلى دور المساعد الصبور، وبالتالي جرى التأكيد أن هذا إنما هو حالة طبيعية للعلاقات بين الذكر والأنثى، فلابد أن نرتحل إلى تلك الفترات القصيةفي التاريخ البشري. فعلينا اكتشاف الأصول القديمة للحضارات البشرية والتطور الأولي للأنماط الدينية. وهذه مهمة غير سهلة، كما سوف ترى.

إنها لصدمة أن نتحقق كيف كتب القليل عن الآلهات المؤنثة اللواتي عبدن في معظم الفترات القديمة للوجود البشري، وإثارة لسخطنا عندما نواجه حقيقة أنه حتى المادة الموجودة قد تجاهلها كلها تقريباً الأدب الشعبي والثقافة العامة. إن معظم المعلومات والنتاج الإنساني المهتمة بالدين الأنثوي الضخم التي ازدهرت قبل آلاف السنين من ظهور اليهودية والمسيحية والعصر الكلاسي لليونان قد نبشت من الأرض لتدفن ثانية في نصوص أركيولوجية غامضة أبعدت إلى الرفوف بعناية في محفوظات الجامعة والمكتبات المتحفية. قلة قليلة من هذه المعلومات يسمح بها فقط باعتبارها تنتمي إلى الجامعة أو من أجل شهادة جامعية.

تصدّيت للمسألة منذ سنوات طويلة. وقد دفعتني إلى طواف نصف العالم ـ من سان فرنسيسكو إلى بيروت. أردت معرفة المزيد عن الدين القديم للربة. وفي طريقي اطلعت على ما في المكتبات والمتاحف والجامعات ومواقع الحفريات في الولايات المتحدة وأوروبا والشرق الادنى وبانتقالي من مكان إلى مكان جمعت معلومات من مصادر كثيرة التنوع فتفحصت كل جملة صغيرة وكل صلاة أو شذرة أسطورية بين آلاف المعلومات المختلفة.

وإذ جمعت هذه المادة عن الآلهات الأنثوية القديمة، وجدت أن كثيراً من الأساطير القديمة استُخدمت كدرامات طقوسية. وقد مثلت في الاحتفالات الدينية للمهرجانات المقدسة، متطابقة مع النشاطات الطقوسية الأخرى. وقد كشفت التماثيل واللوحات الجدارية والمخطوطات والألواح الطينية والبردى التي سجلت الأحداث والليجندات والصلوات شكل الدين وأوضاعه وطبيعة الآلهات المقدسة. وقد وجدت شروحات في أدب أحد البلدان عن الدين أو عن آلهات في بلدان أخرى. والأهم هو التحقق أن أساطير كل ثقافة تفسر أصولها لم تكن دائماً هي الأقدم. نسخ أكثر جدة حلت محل النسخ السابقة وأزاحتها، ومع ذلك تعلن صراحة أن «هذا ماحدث في بداية الزمن».

كتب البروفسور إدوارد تشيرا من جامعة شيكاغو عن الأسطورة البابلية لخلق الإله مردوخ السماء والأرض: إن «مردوخ، الإله الجديد لهذه المدينة الجديدة، لم يكن محقاً أبداً أن ينسب لنفسه مجداً في إنجاز هذا العمل العظيم.... لكن بابل في عصر حمورابي كانت عاصمة المملكة، فيستطيع مردوخ الذي استعادته جيوش حمورابي، أن يعلن الآن أنه الإله الأعظم في البلاد». وقد شرح البروفسور تشيرا أيضاً أنه في آشور، حيث صار الرب أشور تدريجياً الإله الأعلى قدم الكهنة الأشوريون التكريم لأشور وذلك عن طريق وضع اسم إلههم الخاص مكان اسم مردوخ، بكل بساطة. لكن عملهم لم يكن كاملاً ولم ينفذوه بدقة، ففي بعض الأماكن ظل اسم مردوخ يبرز.

في الصعوبات التي واجهتها لدى جمع المادة لم أستطع الاستفادة من الكتابات والتماثيل القديمة التي لابد أن تكون قد دمرت عن سابق قصد وتصميم. إن سجلات المواقف العدائية لليهودية والمسيحية والمحمدية (الإسلام) تجاه النتاج الإنساني المقدس للأديان التي سبقتها تدل أن ذلك قد حدث وعلى الأخص في مسألة الربة التي عبدت في كنعان (فلسطين). إن المذابح الدموية وتدمير التماثيل (أي الأصنام الوثنية) والمعابد مسجلة في صفحات من الكتاب المقدس بعد هذا الأمر الذي أصدره يهوه «تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء. وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتحرقون سواريهم بالنار وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان» (تثنية ١٢: ٢ - ٣) لاشك أن الهجمات المستمرة كما سجلها العهد القديم، دمرت كثيراً من المعلومات النفيسة التي لايمكن استرجاعها.

وفي المراحل المتأخرة اشتهر المسيحيون في العالم كله بتدميرهم الأيقونات المقدسة

والأدب الذي ينتمي إلى ماسموه الأديان «الوثنية» أو «الكافرة». كتب البروفسور جورج ميلوناس أنه خلال حكم الامبراطور المسيحي ثيودوسيوس «بات المسيحيون وعلى الأخص في المدن الكبرى كأنطاكية والإسكندرية المضطهدين (بكسر الهاء - المترجم) وبات الوثنيون مضطهدين (بفتح الهاء - المترجم) فقد دمّروا المعابد والأنصاب بالنار وأساؤوا معاملة القائمين فيها والقيّمين عليها». وبما أن عبادة الآلهات القديمة قمعت، وبما أن المعابد دمّرت أو أغلقت أو حولت إلى كنائس مسيحية، كما حدث باستمرار، فإن التماثيل والسجلات التاريخية أيضاً حطّمها الآباء الإرساليون للمسيحية.

ومع أن التدمير كان ضخماً إلا أنه لم يكن شاملاً. فلحسن الحظ لم يروا كثيراً من الأشياء، وهي البقايا التي تخبر بلسانها الخاص عن طبيعة تلك الطقوس والمعتقدات «الوثنية» المرعبة. فالعدد الضخم لتشخيصات الربة التي اكتشفت في حفريات المراحل النيوليثية والتاريخية للشرقين الأدنى والأوسط يشير إلى المزايا الأنثوية الواضحة لكل تلك التماثيل التي أزعجت المدافعين عن الإله الذكر. فمعظم «الأصنام الوثنية» ذات أثداء.

إن كتّاب الكتاب المقدس اليهودي/ المسيحي، كما نعرفه حرّفوا عن قصد الهوية الجنسية للمعبود الأنثوي الذي كانت تقدسه الشعوب المجاورة لليهود في كنعان وبابل ومصر. فالعهد القديم ليس فيه حتى كلمة واحدة عن «الربة». ففي الكتاب المقدس يشار إلى الربة باسم إيلوهيم، كجنس ذكري، ثم ترجم الاسم إلى كلمة الله. بيد أن قرآن المحمديين كان واضحاً كل الوضوح. فنحن نقرأ فيه «إن الله لايحب الكافرين... إن يدعون من دونه إلا إناثاً» (الآية الأولى من سورة آل عمران ٣٢ والثانية من سورة النساء ١١٧ - المترجم).

وبما أن كمية كبيرة من المعلومات أمكن التقاطها من مكتبات الجامعة والمتحف، فقد واجهتُ مشكلة أخرى وهي الانحياز الجنسي والديني لكثير من الباحثين الموسوعيين في القرنين التاسع عشر والعشرين. إن معظم المعلومات المتاحة في كل من الأركيولوجيا والتاريخ الديني القديم جمعها وناقشها مؤلفون ذكور. إن السيادة المطلقة للباحثين الذكور، وحقيقة أنه تقريباً جميع الأركيولوجيين والمؤرخين واللاهوتيين من كلا الجنسين ترعرعوا في مجتمعات يطوقها الدينان اليهودي والمسيحي المتوجهان توجهاً ذكورياً كان لهما تأثير كبير في المضمون والسعة والقليل من المعلومات التي لاتستحق أن يشار إليها. كتب البروفسور ر. ك. هاريسون عن دين الربة: «هناك سمة

من أبرز سماته وهي سمة الفسق والفجور والعربدة في طقوسه التعبّدية» وعلى الرغم من اكتشاف معابد الربة في كل حفرية من الحفريات النيوليثية والتاريخية تقريباً، يكتب ويرنر ليلر أن الإلاهة الأنثى عبدت أساساً على «الهضاب والتلال» فيردد بكل بساطة كلمات العهد القديم. وكتب البروفسور و. ف. أولبرايت، وهو أحد الباحثين الكتاب في أركيولوجيا فلسطين، عن الدين الأنثوي بأنه «عبادة ذات طبيعة معربدة وميثولوجيا الفسق والعري الشهواني». وتابع فقال «وقد أحلّت إسرائيل ببساطتها الرعوية وصفاء حياتها وحدانيتها الرفيعة وقانونها الأخلاقي الصارم محل تلك العبادة». ومن الصعب أن نفهم كيف يمكن تعديل هذه الكلمات أكاديمياً بعد أن نقرأ عن المذابح التي دبّرها العبريون لسكان كنعان الأصليين والتي صورها سفر يشوع، وعلى الأخص من الاصحاح التاسع حتى الحادي عشر. ويوافق البروفسور س. هـ . هوك في مجموعة مقالاته المعنونة «الأسطورة والشعائرية والملوكية» صراحةً: «إني أومن إيماناً راسخاً أن الله اختار إسرائيل لتكون أداة الوحي».

وقد كتب أولبرايت نفسه «غالباً مايقال إن الصيغة العلمية للأركيولوجيا الفلسطينية أضعفتها المفاهيم الدينية المسبقة للباحثين الذين حفروا في الأرض المقدسة. حقاً إن بعض الأركيولوجيين قدموا إلى فلسطين بدافع اهتمامهم بالكتاب المقدس، وإن بعضهم تلقى تدريباً سابقاً باعتبارهم باحثين توراتيين». بعد ذلك ينطلق ليرفض هذا الاحتمال من الضعف، مقيماً نتيجته على حقيقة أن التواريخ المشيرة إلى المواقع ومنتجات فلسطين القديمة، من قبل الباحثين الذين ساهموا في الحفريات الأولى أثبتت أنها حديثة جداً وليست موغلة في القدم كما كان متوقعاً. إن مسألة ما إذا كانت أو لم تكن المواقف والعقائد الموروثة في تلك «المفاهيم الدينية المسبقة» المفترضة قد أثّرت في تحليل وتوصيف الرموز والشعائر والطبيعة العامة للدين القديم لم تطرح حتى للمناقشة.

ينظرون إلى الدين الأنثوي في معظم النصوص الأركيولوجية باعتباره «عبادة الخصوبة» مما يكشف المواقف تجاه الجنسانية التي تتمسك بها مختلف الأديان المعاصرة وهذا مايمكنه أن يؤثر في الكتاب. ولكن الحقيقة الأركيولوجية والميثولوجية لتقديس الإلاهة الأنثى كخالقة ومقوننة للكون ونبيّة ومانحة المصائر الإنسانية ومبدعة وشافية وصيادة وقائدة جريئة في المعركة، تبين أن «عبادة الإخصاب» قد تكون تبسيطاً كبيراً لمركب البنية اللاهوتية.

اهتمَمْتُ أكثر بالدلالات، بالمعنى الضمني للمعنى وظلاله، فلاحظت أن كلمة

«عبادة» ذات الدلالات الضمنية الأقل دقة أو حضارة من كلمة «دين» كانت تقريباً تطبق على عبادة الآلهات الأنثوية ليس من قبل كهنة الكنيسة بل من قبل الأركيولوجيين والمؤرخين المفترض أنهم موضوعيون. كانت الشعائر المرتبطة بيهوه (جيهوفا) اليهودي/ المسيحي دائماً توصف من قبل هؤلاء الباحثين باعتباره «ديناً». فلدى رؤيتهم كلمات من أمثال «الله» و«هو» فإنهم يكتبونها بحرف كبير بينما كلمات من أمثال «ملكة السماء» و«الربة» و«هي» تكتب بحرف عادي للدلالة على درجة أقل، فرحت أجرب عليها الطريقة الأخرى، فلاحظت كيف أن التغيرات الصغيرة تؤثر في المعنى كما تؤثر في الانطباع الانفعالي.

ضمن أوصاف المدن والمعابد المدفونة منذ أمد طويل كتب الأساتذة الأكاديميون عن الربة الفعالة جنسياً على أنها «غير خاصة» أو «عدوانية لاتحتمل» أو «خالية من الأخلاق» بينما الآلهة الذكور وصفت بأنها «ممراحة» بل حتى «نشيطة». إن الطبيعة الجنسية الواضحة للربة متعارضة مع ألوهيتها المقدسة، مما حير في ذلك أحد الباحثين إلى أن استقر أخيراً على عنوان محيّر حقاً وهو البغيّ/ العذراء. إن النساء اللواتي اتبعن العادات الجنسية القديمة للإيمان بالربة عرفوا بلغتهن الخاصة باعتبارهن النساء المكرسات أو المقدسات أشاروا إليهن باعتبارهن «بغايا الطقوس». إن اختيار الكلمات هذه يكشف مرة أخرى أخلاقاً تحمل الأنانية العرقية وعلى الأخص تلك القائمة على مواقف توراتية. ومع ذلك فإن استخدام كلمة «بغاء» كترجمة لعنوان النساء اللواتي كن معروفات باسم قادش وقادش تعني المقدّس، يدل على نقص استيعاب البنية اللاهوتية والاجتماعية التي حاول شرحها وتفسيرها أولئك الكتاب.

أوصاف الآلهات الأنثى باعتبارها خالقة الكون أو مبدعة أو مانحة الثقافة توجز فقط بسطر أو بسطرين، هذا إذا أشير إلى ذلك، فالباحثون يتخلصون بسرعة من مظاهر الأنثى تلك كما لو كانت غير جديرة بالمناقشة. وعلى الرغم من حقيقة أن لقب الربة في معظم الوثائق التاريخية للشرق الأدنى هو ملكة السماء، فقد أصرّ بعض الكتّاب على تلقيبها فقط «أم الأرض» الأبدية.

فالأنثى المقدسة التي احترمت كمقاتلة أو صيادة أو جندية باسلة أو رامية سهام رشيقة وصفت أحياناً بأنها ذات صفات رجولية فيشيرون بذلك إلى أن قوتها وشجاعتها جعلتاها نوعاً من النزوة أو الشذوذ الفيزيولوجي. فقد رفض ج - . مارينجر، بروفسور أركيولوجيا ماقبل التاريخ فكرة أن تكون جماجم الأيائل تذكارات صيد لقبيلة بليوليثية. ما السبب؟ لأنها وجدت في قبر امرأة. يكتب «الهيكل العظمي هنا هو

لامرأة، مما يجعلنا نستبعد احتمال أن تكون جماجم الأيائل وقرونها ذكريات صيد». ألا يحكم هؤلاء المؤلفون على طبيعة النساء الجسدية الموروثة وفقاً لمُثُل الطراز الغربي الهشة والهزيلة في هذه الأيام؟

وبالتالي فإن كاهنات الربة، اللواتي يقدمن المشورة والإرشاد في معابد حكمتها النبوئية وصفن بأنهن ملائمات لهذه المهمة باعتبار النساء أكثر «استبصاراً» أو «انفعالية» فيصلحن كوسائل ملائمة للإلهام الإلهي. وهؤلاء الكتاب أنفسهم يهملون الأهمية السياسية للنصيحة المقدمة أو إمكانية أن تكون هؤلاء النسوة قد حظين بالاحترام باعتبارهن حكيمات وعارفات قادرات على تقديم المواقف المرشدة الأساسية. ومما يثير الغرابة أنهم لايشيرون أبداً إلى هذه الصفات الانفعالية أو القوى الاستبصارية عندما يجري الحديث عن الأنبياء الذكور ليهوه. وقد علّق غيرهارد فون راد «... كانت النساء دوماً هن اللواتي يظهرن ميلاً إلى العبادات التنجيمية الغامضة».

وعندما يجري نقاش عن الآلهة الأنثوية والذكرية فإن كلمة «الأرباب» المفضلة على «الآلهة» هي التي يختارها كتاب الدين القديم المعاصرون. إن الترجمات المتضاربة حتى البسيطة منها، من ترجمة درايفر «لقد كنس من الحقول النساء جامعات القضبان» حتى ترجمة غراي «كان يطوف في الحقول ويساعد النسوة الحاطبات» تطرح أسئلة عن دقة استخدام بعض الكلمات المختارة في الترجمات. صحيح أن اللغات القديمة هي لغات من الصعب تماماً حلّ ألغازها ومن ثم ترجمتها إلى كلمات وجمل معاصرة. في بعض الحالات هناك كمية معينة من التخمين الثقافي تبرز أمامنا، وهذا مفيد مؤقتاً، ولكن هنا قد تطفو على السطح المواقف التي تشكلت سلفاً.

ولسوء الحظ هناك أمثلة من الترجمات غير الدقيقة والتعليقات والافتراضات والتأملات المنحازة التي اختلطت اختلاطاً بريئاً في تفسيرات مواقف وعقائد العصور القديمة. إن الانحياز الذكوري، مع المواقف الدينية المسبقة التصور الذي يظهر في كل من المسائل الكبيرة والصغيرة يطرح بعض الأسئلة الملحة جداً والهامة بصدد موضوعية تحليل المادة الأركيولوجية والتاريخية المتاحة في الوقت الحاضر. إنه يقتضي إعادة اختبار النظريات والنتائج المسلم بها منذ أمدٍ طويل وإعادة تقييمها حيثما تشير الدلائل الفعلية، ومراجعتها.

في عام ١٩٦١ قام بوصف سلسلة من الأخطاء البروفسور ولتر أميري الذي أسهم في حفريات بعض القبور المصرية القديمة. يخبرنا أن «الوضع الزمني وحالة ميريث ـ

نيت غير مؤكدين لكن هناك سبباً لافتراض أنها قد تكون خليفة زير والحكم الثالث للأسرة الأولى» ويكتب السير فلندرزبتري عن حفر هذا القبر فيقول «في عام ١٨٩٦ اكتشف دي مورغان، ثم مدير مصلحة العاديات في النجادة قبراً عملاقاً قيل من جملة ماقيل، إنه كان مدفن حورآحا، أول ملك في الأسرة الأولى. لكن أبحاثاً متأخرة بيّنت أن الأرجح أن يكون ضريح نيت ـ حوتيب والدة حور ـ آحا». ويخبرنا أيضاً أنه «على صولجان نارمر هناك شكل موضوع في محفة مظللة اعتُقد أول الأمر أنه لرجل، ولكن مقارنته بأشكال مشابهة محفورة في الخشب المجلوب من سقارة أظهرت أن هذا غير محتمل وأنه يمثل امرأة بالتأكيد». ولكن على الرغم من سجلاته الخاصة لهذه السلسلة من الافتراضات أن أدوات الدفن الغنية والمحفات الملكية في الماضي كانت للرجال، أكثر مما كانت للنساء، يعود ويصف قبر الملك نارمر فيقول «إنّ هذا الصرح هام بالمقارنة مع قبر نيب ـ حوتيب في النجادة، ولا نستطيع إلا أن نستنتج أن هذا كان قبر الملك الجنوبي وأن مكان المدفن الحقيقي مايزال قيد الاكتشاف...» ومع أن بعض الفراعنة لم يشيدوا قبرين، فإن المرء قد يتوقع نتيجة مطلقة وانصرافاً ضمنياً عن احتمال أن يكون قبر الملكة في تلك المرحلة من السلالات المصرية الأقدم، أكبر من قبر الملك وأغنى زينة وفخامة.

وصف أ. أناتي في كتابه «فلسطين قبل العبريين» فئة من الأسيويين وصلت مصر. وفي هذا الوصف يشرح أن الرجال هم الذين وصلوا وأحضروا معهم بضائعهم وقرودهم وزوجاتهم وأولادهم وأدواتهم وأسلحتهم وآلاتهم الموسيقية. ووصف أناتي لأقدم ظهور للربة لايقل توجُّهاً ذكورياً عن ذلك. يكتب «كما خلق هؤلاء الرجال في العصر الباليوليثي الأعلى شكلاً أنثوياً يمثل الربة تمثيلاً واضحاً أو يمثل الخصوبة... فالمضامين السيكولوجية للربة الأم هي على درجة كبيرة من الأهمية... فهناك نجد صورة للرجل المفكر، لرجل ذي منجزات عقلية مثلما هو ذو منجزات مادية أيضاً» ألا يمكن أن تكون الجدات الأنثويات لأولئك النساء اللواتي جُعِلَتْ أسماؤهن في قوائم مع القرود والبضائع الأخرى نساء مفكرات، نساء ذوات منجزات عقلية مثلما هن ذوات منجزات مادية؟

لاحظت الدكتورة مرغريت موراي من جامعة لندن، لدى كتابتها عن مصر القديمة عام ١٩٤٩ أن كل سلسلة الأحداث التي تحيط بالعلاقات «الرومانتيكية» لكليو باترا التي حازت على عرش مصر بجدارة شرعية لم تفهم فهماً صحيحاً بسبب الانحياز الذكوري. وتستخلص أن «المؤرخين الكلاسيين، وقد تشربوا عادات الإرث الذكوري

والزواج الأحادي، إلى جانب النظر إلى النساء على أنهن من ملكيات رجالهن، أساؤوا تماماً فهم الأوضاع وبالتالي شرحوها للعالم شرحاً خاطئاً».

هذه أمثلة قليلة جداً من التحيزات الجنسية والدينية التي واجهتها. وكما يكتب سيروس غوردون، بروفسور دراسات الشرق الأدنى والرئيس السابق في جامعة برانديس في ماساسوشتس «نحن نتلقف المواقف كما لو كانت موضوعاً من موضوعات عملية التعليم. وفوق ذلك فإن المواقف تتحدد بما نراه، وما نخفق في رؤيته، في الموضوع. وهذا هو السبب في أن الموقف هام كالموضوع في العملية الثقافية» أسئلة كثيرة ترد إلى الذهن. كم كان تأثير الأديان المعاصرة كبيراً في الباحثين الذين كتبوا النصوص المتاحة في هذه الأيام؟ كم وكم افترض الباحثون ببساطة أن الذكور لعبوا دائماً دوراً مهيمناً في القيادة والابتكار الإبداعي، وأسقطوا هذا الافتراض على تحليلهم الثقافات القديمة؟ لماذا يفكر كثير من الناس المثقفين في هذا القرن بأن الثقافة اليونانية الكلاسية هي أول ثقافة كبرى في حين دخلت اللغة المكتوبة في الاستخدام وشيدت المدن الكبرى قبل هذا الوقت بخمسة وعشرين قرناً على الأقل؟ والأهم من ذلك لماذا دائماً نستنتج أن عصر الأديان «الوثنية» عصر عبادة الآلهات الأنثوية (هذا إن أشير أصلاً إليهن ولو إشارة) كان عصر ظلام وفوضى، عصراً سرّانياً شيطانياً، من دون أي رؤية أو عقلانية تلصقان افتراضاً بالأديان الذكورية المتأخرة، في حين ثبت أركيولوجيا أن أقدم قانون وحكومة وطب وزراعة وعمارة وتعدين وعربات ذات دواليب وسيراميك ونسيج ولغة مكتوبة قد تطورت في المجتمعات التي كانت تعبد الربة؟ ربما نجد أنفسنا مندهشين من الأسباب التي أضاعت ببساطة المعلومات التي كانت متاحة عن مجتمعات عبدت لآلاف السنين الخالقة القديمة للكون.

وعلى الرغم من العقبات الكثيرة نقبْتُ وجمعْتُ المعلومات الموجودة وبدأت أقارن وأربط بين ماجمعت. وإذ أخذت على عاتقي هذه العملية فإن أهمية وقدم وتعقيد هذا الدين الذي كان في الماضي بدأت تتكشف أمامي. والأغلب أن أعثر على إشارة للربة، وجزء من الليجندة، ومرجع غامض بين أربعمئة أو خمسمئة صفحة من مؤلفات الباحثين. موقع معبد مهجور في كريت أو تمثال في المعرض في أستانبول مع قليل من المعلومات المرافقة أو لاشيء... بدأت أجد موقعه في اللوحة العامة.

بذلت جهوداً لأجمع كل ذلك معاً، ثم بدأت أخيراً استوعب الواقع بمجمله. لم يكن مجرد مخطوط لصلاة قديمة، ولا مجرد أثر فني يجثم على رفّ المتحف خلف

الزجاج، كان أكثر من حقل معشب مع أجزاء من الأعمدة المكسورة أو كان أحجاراً أساسية دعمت في يوم من الأيام معبداً قديماً. وبوضع هذه القطع جنباً إلى جنب انكشف اللغز عن بنية شاملة لدين كبير منتشر انتشاراً جغرافياً واسعاً أثر في أعداد ضخمة من الناس عبر آلاف السنين. ومثل أديان هذه الأيام، كان ديناً متكاملاً في نماذج وقوانين المجتمع، فالأخلاق والمواقف مرتبطة بتلك العقائد اللاهوتية ووصلت إلى الأعماق حتى العقول المتشككة أو الملحدة.

أنا لا أدعو إلى عودة الدين الأنثوي القديم ولا إلى بعثه. ولكن كما كتبت شيلدا كولينز «أملنا كنساء إنما يكمن في الحاضر والمستقبل وليس في الماضي الميثولوجي الذهبي...» وإني آمل أن نستخدم الوعي المعاصر لتقديس الإلاهة الأنثى كخالقة حكيمة للكون وكل مظاهر الحياة والحضارة والذي كان منتشراً في يوم من الأيام، لوقف القمع والتزييف في الصور الرجولية والمبالغات والعادات والقوانين التي تطورت كردّة فعل على عبادة الربة من قبل قادة الأديان الذكورية المتأخرة. ولسوف أظهر أن الأكاذيب الأيديولوجية للمدافعين عن الآلهة الذكور المتأخرين قد فرضت على العبادة القديمة بقصد تحطيمها وتحطيم عاداتها التي ماتزال باقية في الثقافة والقانون والأدب والاقتصاد والفلسفة والسيكولوجيا ووسائل الإعلام والمواقف الإعلامية العامة، بل فرضت حتى على اللادينيين في هذه الأيام.

ولا أنوي تحقيق ذلك كنص أركيولوجي أو تاريخي. إنها دعوة إلى كل النساء للاشتراك في البحث لمعرفة من نحن حقاً، فنبدأ بمعرفة إرثنا الماضي بإعتباره أكثر من شذرة محطمة ومدفونة في حضارة الذكر. علينا البدء بإزالة الغموض في دراسة الأركيولوجيا والدين القديم، واكتشاف الماضي بأنفسنا من دون الاعتماد على الشروح والتفسيرات والترجمات والآراء والتصريحات التي قدمت لها. وعندما نجمع المعلومات سوف نكون في وضع أفضل لفهم وشرح الافتراضات الخاطئة في الأنماط المكررة المبتذلة التي ابتُدعت للنساء كي يوافقن ويتبعن الادعاءات الواردة في الأديان ذات التوجه الذكوري ذلك أن أي ميزة خاصة، وفقاً للكلمة المقدسة، كانت عادية أو طبيعية بينما أي انحراف هو عام وغير أنثوي بل آثم أيضاً. وكما أن كثيراً من عقائد اللاهوتيات اليهودية/ المسيحية يُنظر إليها في ضوء نشأتها السياسية وفي تسرب هذه العقائد لتكون أساساً في فهم الحياة الدنيوية، فإننا كنساء سنكون قادرات على رؤية أنفسنا كائنات بشرية ناضجة تعتمد على ذاتها. بهذا الفهم نصبح قادرات على النظر إلى أنفسنا ليس كمساعدات دائمات بل كفاعلات، ليس كداعمات مزركشة

ومناسبة للرجال، بل كأفراد نساء مسؤولات عن حقهن. إن صورة حواء ليست صورتنا عن المرأة.

كما أن هذا البحث دعوة إلى كل الرجال ـ أولئك الذي تساءلوا عن الأسباب الكامنة وراء أدوار الإناث وصورهن ووراء أدوار الرجال وصورهم في المجتمع المعاصر، وإلى أولئك الذين لم يدرسوا الموضوع من قبل. دعوة تصل إلى حد الأمل بأن نعي الأصول التاريخية والسياسية للكتاب المقدس، والدور الذي لعبته اللاهوتيات اليهودية /المسيحية في صياغة الموقف تجاه النساء والرجال في هذه الأيام، فذلك يؤدي إلى فهم أكبر وتعاون أوثق واحترام متبادل بين النساء والرجال أكثر مما هو الآن. وبما أن الرجال يهتمون بتحقيق هذا الهدف، فإن اكتشاف الماضي يقدم فهماً أعمق وأكثر واقعية للأنماط المكررة الجنسية لهذه الأيام وذلك بإخضاعها لمنظور تطورها التاريخي.

وكما في كل عمل ضخم أو دراسة هامة يكون ثمة كثير من الناس الذين يقدمون المساعدة خلال العمل، وإني مدينة لهم بالتقدير الكبير. أولا أريد أن أشكر والدتي وأختي وابنتي لتشجيعهن العاطفي لي طيلة سنوات البحث. كما أود أن أعبر عن امتناني لكارمن كاليل وأورسولا أوين من هيئة «فيراغوليمتد» القسم النسوي في «كوارتيت بوكس ليمتد» في لندن، اللتين انفقتا وقتاً طويلاً وجهداً واهتماماً شخصياً بتحرير الأصل ونشر الكتاب في انكلترا، وإلى جويس أنجلسون وديبرا مانيت ودونا شردر وآن كرونهاس وكل الآخرين في دار ديال الذين بدورهم قدموا إسهاماً كريماً لهذه الطبعة. وبعد هؤلاء ثمة مدراء المتاحف وهيئات المتاحف وأمناء مكاتب المتاحف والجامعات والعاملون في مواقع الحفريات، فهم من الكثرة بحيث ترددت في إعلان أسمائهم خوفاً من أن أنسى اسماً لأحدهم، فهم جميعاً قدموا مساعدة جلّى. ثم هناك الأركيولوجيون والمؤرخون الذين استخدمت كتبهم. (هناك الكثير منهم ممن وجدت لديهم شذرات خاطفة وحتى أولئك الذين عمدوا إلى تجاهل وجود إلاهة أنثى). ومع أن بعض التعليقات والاستنتاجات سببت لي رعباً غريباً بأن هيمنة الذكر هي هيمنة طبيعية، فإن كتبهم في اكتشاف وتفسير نتاجات الماضي جعلت كتابي هذا ممكناً. وكلي أمل بأن ماقلته وما سأقوله في بقية هذا الكتاب، سوف يترك بعض التأثير في إدراكهم المستقبلي لعابدي الربّة.

إن المؤلفات الكريمة لستيفن لونغدون وبراندون وأدوارد شيرا وسيروس غوردون وولتز هنز و ا. و. جيمس وجيمس ميلارت وهـ . و. ف. ساغس وج. ب. بتشارد و

ر. ا. ويت هي مؤلفات ذات فائدة خاصة. ولكني أولاً أقدم شكري للأساتذة النساء من أمثال المرحومة مارغريت موراي والمرحومة جيني هاريسون وأ. دوغلاس فان بيرنز وسيبيل فون كليس ريدن وفلورنس بينيت وريفكا هاريس وجاكيتا هوكس، فأنا مدينة لهنّ لتقديمهنّ معلومات هامة جداً مع إدراك فريد من نوعه، وبالتالي لتشجيعي على مسألة الموضوعية فيما كتبه الآخرون، ولإرشادي السير في المادة فاصلة بين الرأي والواقعة ـ وربما الأهم من ذلك ـ أن ألاحظ ماجرى إهماله.

ومع أن الأركيولوجيا والدين القديم يبدوان حقلين منفصيلن أشد الانفصال أو يبدوان حقلين غامضين، فإني آمل أن يشجع كتابي الناس على اكتشاف هذه الموضوعات بأنفسهم، بحيث أننا في يوم ما قد نفهم أحداث الماضي بصورة أفضل، ونقدم ما كان مهملاً أو مخبوءاً عن عمد تقديماً علنياً فنتحدى بذلك الكثير من الافتراضات الهشة التي تجاهلت الوقائع.

الفصل الأول

حكايات مع وجهة نظر

مع أننا نعيش وسط أبنية فولاذية سامقة وتجهيزات مطبخية فورميكية وشاشات تلفزيونية الكترونية، ثمة شيء مافينا، نساء ورجالاً، يجعلنا نرتبط بالماضي ارتباطاً عميقاً. ربما رطوبة مفاجئة لكهف شاطئي أو حزم أشعة الشمس التي تتخلل أوراق الأشجار الكثيفة في أيكة ظليلة من الأشجار الباسقة توقظ في أعماق عقولنا الخبيئة أصداء العصر القديم والقصي، فتعيدنا إلى الآثارات الأولى للحياة البشرية على هذا الكوكب. وبما أن الناس ترعرعوا وربوا على أديان اليوم الأبوية، الأديان التي تؤثر فينا حتى في معظم الأركان الدنيوية لمجتمعنا فربما ظلت هناك ذاكرة حائرة وعميقة للمقامات والمعابد المقدسة التي تشرف عليها الكاهنات اللواتي كن يخدمن في دين الإلاهة الأصلية الرفيعة. في البدء صلى الناس لخالقة الحياة، لسيدة السماء. وفي فجر الدين كان الإله امرأة. فهل تذكرون ذلك.؟

منذ سنوات شعرت أن شيئاً ما يغريني في اكتشاف الليجندات ومواقع المعابد والتماثيل والطقوس القديمة للآلهات الإناث، فجرّني خلفاً إلى عصر كانت فيه الربة فائقة القدرة، وتعمل فيه النساء ككاهنات لها، يشرفن على شكل الدين وطقوسه.

ربما كانت خبرتي وعملي كنحاتة دفعتني إلى تقصي منحوتات الربة الموجودة بين بقايا مذابح ماقبل التاريخ والمساكن الأولى للكائنات البشرية. ربما كانت نزعة صوفية رومانتيكية تلبستني في يوم ما، ولكني اعترف الآن بكل سرور، أنها قادتني عبر سنوات إلى إعادة جمع المعلومات عن أديان الأنثى القديسة وتقديس الآلهات الإناث. وحاولت مراراً التخلص من إعجابي بهذا الموضوع على أساس أنه موضوع خيالي ولا يرتبط أبداً بعملي (كنت أبني وقتها محيطاً نحتياً الكترونياً) ـ على أي حال وجدت نفسي دائماً أتابع الصحف الأركيولوجية واستنطق النصوص في المتاحف وأكوام المكتبات الجامعية.

وإذ كنت أقرأتذكرت أنني في زمن ما من حياتي أخبروني - ووافقت علىالفكرة - أن الشمس العظيمة والقوية عبدت باعتبارها ذكراً، بينما قدس القمر الرمز الغامض واللطيف للحب باعتباره أنثى. وكم أدهشني أن أكتشف سجلات عن ربات الشمس في بلاد كنعان والأناضول والعربية واستراليا بينما ربات الشمس لدى شعوب الاسكيمو واليابان وخاسيس الهند كن مصحوبات باخوة تبعلهن كنّ رمزاً للقمر.

كما تمثلت يوماً ما فكرة أن الأرض متوحدة بالأنثى «الأرض الأم» التي تلقت تلقياً سلبياً البذور، بينما كانت السماء على نحو طبيعي وموروث ذكراً فدخلت مرموزات قدرته الذكرية في المفاهيم المجردة. كما وافقت على هذا من دون طرح أي سؤال - إلى أن علمت أن كل الآلهات الإناث تقريباً في الشرقين الأدنى والأوسط كنّ يلقبن بملكة السماء. ليس هذا وحسب بل في مصر عرفت الربة القديمة نوت بأنها تمثل السموات بينما ابنها/ زوجها جيب كان يرمز للأرض.

والأدهش من ذلك كله هو اكتشاف سجلات كثيرة عن الخالقات الإناث لكل الوجود، وهن آلهات عزي إليهن ليس فقط خلق الشعوب الأولى، وإنما خلق كل الأرض وفوقها السموات. وهناك سجلات لهؤلاء الربات في سومر وبابل ومصر وافريقيا واستراليا والصين.

في الهند كانت الربة ساواسفاتي تكرم باعتبارها مخترعة للأبجدية الأولى، بينما في إيرلندا الكلتية احترمت بريجيت باعتبارها الإلاهة الكبرى للغة. وكشفت النصوص أن الربة نيدادا في سومر هي التي كرمت باعتبارها إحدى اللواتي كن من أوائل من اخترع الألواح الطينية والكتابة. لقد ظهرت في هذا الموقف قبل أي إله ذكر حلّ محلها فيما بعد. إن الكاتبة الرسمية للسماء السومرية كانت امرأة. والأهم من ذلك أن الدليل الأركيولوجي عن الأمثلة الأولى للغة المكتوبة المكتشفة وجد أيضاً في سومر، في معبد ملكة السماء في أريك، فقد كتبت هذه الأمثلة هناك منذ أكثر من خمسة آلاف سنة. ومع أن للكتابة يقال عنها عادة إنها من صنع الرجل، ومهما جرى السعي لتأكيد ذلك، فإن مجموعة العوامل المذكورة أعلاه تقدم دليلاً مقنعاً أن المرأة كانت فعلاً هي التي نقشت العلامات الدلالية الأولى للغة في الطين الرطب.

وتمشياً مع هذه النظرية المقبولة عموماً بأن النساء كن مسؤولات عن تطوير الزراعة، باعتبارها امتداداً لنشاطات جني الثمار، فإن آلهات إناثاً في كل مكان

يُعزى إليهن تقديم هذه الهبة للحضارة. في بلاد مابين النهرين، حيث عثرنا على بعض الأدلة للتطور الزراعي، قدست الربة ننليل لأنها قدمت لشعبها المعلومات الأولى عن طرائق الزراعة والحصاد. وفي كل مناطق العالم تقريباً مجدت الآلهات الإناث باعتبارهن شافيات يهيئن الأعشاب والجذور والنباتات والوسائل الطبية الأخرى عن طريق الكاهنات اللواتي يلتحقن بالمقامات فيقمن بدور الأطباء لكل من يتعبد هناك.

بعض الليجندات وصفت الربة على أنها محاربة قوية شجاعة، على أنها قائدة في المعركة. إن عبادة الربة باعتبارها محاربة جريئة هو المسؤول على مايبدو عن التقارير الكثيرة التي أخبرتنا عن الجنود الإناث، والتي أشار إليهن الإغريق الكلاسيون على أنهن الأمازونيات. إن الدراسة العميقة للتقدير الذي تكنه الأمازونيات للإلاهة الأنثى تبين بوضوح أن النساء اللواتي عبدن ربة محاربة كن يصطدن ويحاربن في ديار ليبيا والأناضول وبلغاريا واليونان وأرمينيا وروسيا وكن أبعد مايكون عن الخيال الأسطوري مما جعلنا كثير من كتاب اليوم نؤمن بهن.

ولا أستطيع أن أقدر مدى بعد الصور المعاصرة عن صور ما قبل التاريخ ومعظم المواقف التاريخية القديمة تجاه القدرات الفكرية والعقلية للنساء، إذ في كل مكان تقريباً بُجلت الربة كمستشارة ونبية حكيمة. فسردوين الكلتية كانت ربة الثقافة والمعرفة في ليجندات إيرلندا قبل المسيحية، فكاهنات الربة غايا قدمن حكمة الرؤيا المقدسة في حرمات معابد ماقبل الإغريق، بينما ديمتر الإغريقية وإيزيس المصرية كان ينظر إليهما كمانحات للقانون ومنفذات عاقلات للحكمة والحق والمشورة والعدالة. وكانت الربة المصرية ماعت تمثل النظام الدقيق والإيقاع وحقيقة الكون. وكانوا يشيرون إلى عشتار مابين النهرين على أنها مديرة ونبية الشعب وسيدة الرؤيا بينما السجلات الأركيولوجية لمدينة نمرود، حيث تعبّد عشتار، كشفت أن النساء استخدمن كقضاة ومستشارات في المحاكم القانونية.

وكلما قرأت أكثر اكتشفت أكثر. فعبادة الآلهات الإناث في كل منطقة من العالم تمثل صورة للمرأة لم أصادفها من قبل. ونتيجة ذلك بدأت أتأمل قوة الأسطورة وأدرك تدريجياً هذه الليجندات باعتبارها أكثر من حكايات طفولية بريئة كما تظهر للوهلة الأولى. إنها قصص مع وجهة نظر معينة.

فالأساطير تقدم أفكاراً ترشد الإدراك وتفرض علينا أن نفكر ونلمس بطريقة

خاصة، وعلى الأخص عندما نكون يافعين تأثريين. والأرجح أن تصور افعال الناس الذين كوفئوا أو عوقبوا لسلوكهم، وإننا لنجرؤ أن ننظر إلى هذه كأمثلة نقتديها أو نتجنبها. وهكذا فإن كثيراً من القصص تخبرنا من الأزمنة القديمة بما يكفي لأن نتفهم مواقفنا ونستوعب العالم حولنا ونتعرف على أنفسنا. فأخلاقنا ومناقبنا وسلوكنا وقيمنا وحس الواجب وحتى حس المرح تتطور عادة من الحدوتات والخرافات الطفولية. فمنها نتعلم ما يقبل اجتماعياً الآن من المجتمع الذي جاءتنا منه. إنها تحدد الخير والشر، والصواب والخطأ وما هو طبيعي وما هو غير طبيعي لدى أناس ينظرون إلى الأساطير أنها ذات معنى. ومن الواضح أن الأساطير والليجندات التي نشأت من - وروّجت لـ - دين إلالهة إنثى، بُجّلت كحكيمة ومقدامة وقوية وعادلة كما قدمت صوراً مختلفة جداً للرجولة التي تلقيناها على يد الأديان ذات التوجه الذكوري في هذه الأيام.

أسبوعان بعد خلق الكون:

كلما فكرت في سلطة الأسطورة تعاظمت صعوبة تجنب التساؤل عن التأثيرات الكثيرة التي تركتها تلك الأساطير المصاحبة للأديان التي تعبد الآلهة الذكور على تصوري بما تعنيه أنني ولدت امرأة، حواء أخرى، جدة إيمان طفولتي. أخبروني وأنا طفلة أن حواء صنعت من ضلع آدم، وخلقت لتكون رفيقة حياته ومساعدته ومؤنسة وحدته. وكما لو كان هذا التعيين للرفيقة الثانية الدائمة التي لم تخلق لتكون قائدة، غير كاف للضغط على خططي المستقبلية كعضوة فعالة في المجتمع، علموني أيضاً أن حواء كانت غبية حمقاء. وشرح لي من هم أكبر مني سناً أنها خدعت بسهولة بوعود الأفعى الغادرة. لقد عصت الله وحرضت آدم على العصيان ذاته وبذلك دمّرت الشيء الجميل - وهي الحياة المباركة السابقة في جنة عدن. أما لماذا لم يظنوا أن آدم بالمقابل هو مخلوق أحمق أيضاً فإنها مسألة لاتستحق النقاش. ولكن بما أني متوحدة بحواء التي قدمت كرمز لكل النساء، فإن اللوم يقع علي بطريقة غامضة - فقد رأى الله أن خطيئتي كانت سبباً لكل شيء فاختار عقابي بقراره: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك (تكوين: ١٦).

وحتى عندما كنت فتاة صغيرة علموني أنه بسبب حواء سوف أحمل عندما أكبر أولادي بأوجاع وآلام. وكما لو أن هذا ليس جزاء كافياً، إذ بدلاً من تعزيتي أو

التعاطف معي أو الإعجاب بشجاعتي كان عليّ أن أعاني الآلام مع الذنب، خطيئة الشر الذي يقع علي كعقاب لمجرد كوني امرأة، ابنة حواء. وزيادة في السوء يفرضون علي أن أقبل أن الرجال كرمز لآدم لابد أن يسيطروا علي ـ ان يحكموني. وتمشياً مع الإله الذكري الكلي القدرة الذي أتوقع منه الحق والكلمة لأعجب به واحترمه بورع وقور فإن الرجال كانوا أكثر حكمة من النساء. وهكذا فرض عليَّ الصبر والخنوع كأنثى من الصفحة الثالثة من التوراة التي تشكل ألف صفحة وهي الكتاب المقدس اليهومسيحي.

إلا أن قانون سيادة الرجل كان بداية فقط. فالأسطورة تصف حماقة حواء بحيث لاتنسى هذه الحماقة ولا يمكن تجاهلها. ثم درسنا كلمات أنبياء العهد الجديد، الذين استغلوا مراراً وتكراراً ليجندة الفردوس المفقود ليشرحوا، بل ليثبتوا أن النقص الطبيعي موجود في النساء إن الدروس التي ألقيت في جنة عدن كانت تؤثر فينا دائماً. الرجل خلق أولاً. المرأة خلقت من أجل الرجل. الرجل فقط خلق على صورة الله. ووفقاً للتوراة ولأولئك الذين يسلمون بها باعتبارها كلمة مقدسة فإن الإله الذكر يفضل الرجال والحقيقة أنه خلقهم متفوقين تفوقاً طبيعياً. وحتى الآن لا أستطيع أن أخفي دهشتي كم وكم قُرئت هذه المقاطع من العهد الجديد من موقع السلطة لمنبر الأحد أو من الكتاب المقدس العائلي الذي ينزله الأب أو الزوج من الرف ـ والمرأة الورعة تصغي لـ:

لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع ولكن لست آذن للمرأة أن تعلم ولا تتسلط على الرجال بل تكون في سكوت لأن آدم جبل أولاً ثم حواء وآدم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي... (تيموثاوس الأولى ٢: ١١ ـ ١٤ والآية الأخيرة من هذا المقطع هي: ولكنها ستخلص بولادة الأولاد إن ثبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل ونعتقد أن هذه الآية صدى للتربية اليونانية التي كانت تعتمد اعتماداً كلياً على الأم ـ المترجم).

لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن بل أن يخضعن لما يقول الناموس أيضاً. ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم في الكنيسة (كورنثوس الأولى ١١: ٣ و٧ و٩. والمرجعية الصحيحة هي ما يلي: كورنثوس الأولى ١١: ٨ و١٤: ٣٤ و٣٥ ـ المترجم).

والغريب أني لم أصبح متدينةً جداً، على الرغم من الجهود المستمرة لأساتذة مدرسة الأحد. والحقيقة أني عندما بلغت سن المراهقة رفضت كل ماقدمته لي الأديان. ولكن هناك شيئاً ما عن أسطورة آدم وحواء ما يزال قائمة ويتخلل الثقافة في مستواها الأشد عمقاً. إنها تظهر وتعود إلى مثل أساس رمزي للأشعار والروايات. لقد شرحت لي مرئياً في لوحات اساتذة الفن الزيتية العظيمة التي تبرق من الأضواء المسلطة في مراحل تاريخي الفني. وتشير دعاية المنتجات في المجلات الرفيعة أن اختيار المرأة للعطر المناسب يمكنها من تجنب الكارثة تماماً ودائماً. وحتى هذا كان أساس النكات المهينة في الرسوم المضحكة لمجلات الأحد. ويبدو أن المرأة في كل مكان تغري الرجل على ارتكاب الخطيئة. وقد وافق على ذلك كل مجتمعنا فآدم وحواء يمثلان صورة الرجال والنساء. فالنساء مغويات جنسياً إغواء خفياً مدبراً خطيراً، ولكنها في الوقت ذاته حمقاء وخفيفة العقل. إنهن بحاجة ضرورية للرجل المتقدم ليحفظهن ضمن الأصول ـ ويبدو أن كثيراً من الرجال يرغبون في ذلك كما أشارت النصوص المقدسة.

وإذ بدأت الأساطير الأخرى التي تشرح خلق الحياة، والقصص التي تعزو هذا العمل إلى نوت أو حاتور في مصر، ونامور أو ننهورساغ في سومر ومامي أو تيامات أو أورورو في أجزاء أخرى لبلاد مابين النهرين. وماوا في إفريقيا، صرت أرى أسطورة آدم وحواء على أنها خرافة مختلفة تماماً، ومحاولة غير بريئة لشرح ماحدث في البداية الأولى للوجود. ولكن ليس بعد ذلك بكثير بدأت أفهم كم كانت خبيثة تلك التفاصيل في هذه الأسطورة الخاصة.

في عام ١٩٦٠ علق المختص الميثولوجي جوزيف كامبل على أسطورة آدم وحواء فكتب:

«هذه الفكرة الميثولوجية الغربية، وماتزال حقيقة غريبة طيلة ألفي عام قبلها فيه العالم الغربي كأنها سجل يعتمد اعتماداً مطلقاً على حادث يظن أنه وقع بعد أسبوعين من خلق الكون فتفرض بقوة مسألة في غاية الأهمية عن تأثير الميثولوجيات المراوغة والمعارضة بوضوح وتصرفات الميثولوجيا ببنية العقيدة البشرية ومجرى الحضارة الناجم عن ذلك».

ويشير البروفسور شيبرا أن «التوراة لاتقدم لنا قصة واحدة عن الخلق بل تقدم العديد منها، ويبدو أن القصة التي وردت في الإصحاح الأول من سفر التكوين هي التي

صارت النموذج الشائع بين عموم الناس... وقد دخلت دخولاً قوياً في دوائر البحث» ثم يناقش الخلافات بين أديان هذه الأيام والعبادة القديمة فيقول:

«نجحنا منذ سنوات قليلة بجمع قطع من عدد ضخم من الألواح للحصول على القصة الكاملة لأسطورة سومرية قديمة. وقد اعتدت أن أسميها النظرية الداروينية للسومريين. فلا شك أن الأسطورة شاعت شيوعاً واسعاً لأن نسخاً كثيرة منها قد ظهرت إلى الوجود. وتتفق هذه الأسطورة مع قصة التوراة في أن المرأة تلعب دوراً مهيمناً، تماماً مثل حواء. لكن التشابه ينتهي هنا. فحواء المسكينة أدانتها كل الأجيال اللاحقة بسبب عملها، بينما ألّه البابليون جدّتهم المرأة الأولى تأليهاً كبيراً.

وكلما قرأت الآن الأساطير الأخرى تلك، اتضح لي أن المرأة النمطية الكبرى في الأديان القديمة، كما مثلتها الربة، كانت مختلفة تماماً، من عدة وجوه عن المرأة حواء. ثم إني لاحظت أن كثيراً من ليجندات النشأة والتكوين جاءت من أرض كنعان ومصر وبابل، وهي تماماً الأرض التي نشأت فيها أسطورة آدم وحواء. والليجندات الأخرى عن الخلق جاءتنا من الأدب الديني الأسطوري لشعب لم يعبدْيهوه (جيهوفا) العبريين، وإنما كان أقرب جيران أولئك العبريين الأوائل.

الفصل الثاني

من كانت؟

لم تكن فترة طويلة قبل أن تأخذ القطع المختلفة للدليل مكانها وقبل أن تأخذ التواصلات شكلاً. عندئذ فهمت. فعشتاروت الإلاهة «الوثنية» التي يحتقرها العهد القديم هي (برغم الجهود التي بذلها الكتبة التوراتيون في استخدام الجنس المذكر لمحو هويتها) هي عستارتي ـ الربة العظيمة، كما عرفت في كنعان وملكة سماء الشرق الأدنى. فهؤلاء المتعبدون الوثنيون في التوراة كانوا يؤدون صلاتهم لإله امرأة ـ وكانت تعرف بحسب الأمكنة: اينين، اينانا، نانا، نوت، أنات، أناتاليا، عستار، إيزيس، أوسيت، أشيرا، عشتارت، أتوريت، أتار، حاتور ـ الجدة المقدسة الكثيرة الأسماء. ولكن كل اسم من هذه الأسماء، في اللغات واللهجات للأقوام التي يقدسونها، يدل على الربة العظمى. فهل كان مجرد مصادفة أنه خلال كل هذه السنوات في مدرسة الأحد لم أتعلم أن عشتاروت كانت امرأة؟.

ومما يثير الدهشة أن الدليل الأركيولوجي الذي أثبت أن دينها كان موجوداً وانتعش في الشرقين الأدنى والأوسط لآلاف السنين قبل وصول ابراهيم الأبوي، أول نبي مذكر للإله يهوه. لقد تتبع الأركيولوجيون عبادة الربة حتى المجتمعات النيوليثية ٧٠٠٠ قبل المسيح تقريباً، وبعضهم وصل إلى الثقافات الباليوليثية العليا ٢٥٠٠٠ قبل المسيح تقريباً. ومن نشأتها النيوليثية تكرر ظهورها حتى العصور الرومانية. ومع ذلك فإن باحثي التوراة يوافقون أن إبراهيم عاش في كنعان (فلسطين) بين ١٨٠٠ ـ ١٥٥٠ قبل المسيح.

من كانت هذه الربة؟ لماذا أنثى، وليس ذكراً، رُفعت إلى مصاف الإلاهة العليا؟فما أهمية عبادتها وانتشارها، ومتى بدأت هذه العبادة حقاً ؟وإذ ألقي على نفسي هذه الأسئلة، أذهب في السير بعيداً في العصور النيوليثية والباليوليثية. ومع أن الربة قد عبدت في كل أصقاع العالم، فقد ركزت اهتمامي على الدين كما تطور في الشرقين الأدنى والأوسط، لأن هذه المنطقة كانت أرضاً لولادة اليهودية والمسيحية والإسلام.

وقد وجدت تطور دين الإلاهة الأنثى في هذه المنطقة متداخلاً مع البدايات الأولى للدين كما تم اكتشاف ذلك في كل مكان في الأرض.

الفجر في جنة عدن الباليوليثية العليا:

المرحلة الباليوليثية العليا، وإن اكتشفت مواقعها في أوروبا، فإنها الأساس التخميني لدين الربة كما ظهرت في العصر النيوليثي في الشرق الأدنى. وبما أنها سبقت عصر السجلات الكتابية ولم تفض مباشرة إلى مرحلة تاريخية تساعد على تفسيرها، فإن المعلومات عن الوجود الباليوليثي لعبادة الربة في هذا العصر تبقى معلومات تأملية. إن نظريات نشأة الربة في هذه المرحلة موجود بجوار عادات الأمومة في عبادة الجدود. وهي نظريات قائمة على ثلاثة اتجاهات منفصلة عن بعضها كأدلة.

الاتجاه الأول يقوم على التشابه الانتروبولوجي في شرح التطور الأولي للمجتمعات الأمومية (الانتماء إلى الأم) وأدت دراسات القبائل «البدائية» في القرون القليلة الماضية إلى التحقق أن بعض الشعوب «البدائية» المنعزلة، حتى في قرننا، لم تمتلك الفهم الواعي لعلاقة الجنس بالحمل. فالتماثل يدل على أن الشعب الباليوليثي قد يكون في مستوى مشابه من الوعي البيولوجي.

كتبت جاكيتا هوكس عام ١٩٦٣ أن «... الشعوب الاسترالية وقلة من الشعوب البدائية الأخرى لم تفهم الأبوة البيولوجية أو توافق على رابطة ضرورية بين الجماع الجنسي والحبل». وفي السنة ذاتها لاحظ البروفسور س. ج. ف. براندون، أستاذ الدين المقارن في جامعة مانشستر في انكلترا «كيف يكون الطفل في الرحم كان شيئاً سرياً عند الرجل البدائي... حسب نظرة المرحلة التي تفصل بين التلقيح والولادة فمن المحتمل أن أهمية الحمل والولادة معروفة قبل التحقق أن هذه الظواهر هي نتيجة الحمل الذي يعقب الجماع».

يكتب ليونارد كوترل «جيمس فريزر ومرغريت ميد وبقية الأنتروبولوجيين أكدوا أنه في المراحل الأولى جداً لتطور الإنسان، قبل فهم سر الإنجاب البشري، قبل فهم ارتباط الجماع بالولادة، قدست المرأة باعتبارها واهبة الحياة. فالنساء وحدهن يمكنهن إنسال نوعهن، ولم يكن دور الرجل في هذه العملية معترفاً به»..

وطبقاً لهؤلاء المؤلفين، وأيضاً لكثير من المؤلفين الذين كتبوا في هذا الموضوع، فإن البشر في كل المجتمعات البشرية القديمة لم يكونوا قد فهموا بعد فهماً واعياً علاقة الجنس بالتناسل. وبذلك فإن مفاهيم الأبوة لم تكن قد أدركت بعد. ومع كل

الشروحات الميثولوجية المختلفة المرافقة فإن الأطفال كانوا بكل بساطة يولدون من النساء.

فإن كانت هذه هي الحالة، إذن لابد أن يُنظر إلى الأم على أنها الأب الوحيد لأسرتها، على أنها منتجة الجيل التالي. ولهذا السبب كان من الطبيعي أن يتخذ الأطفال اسم قبيلة الأم أو عشيرتها. فالتسلسل السلالي في الأسرة لابد من أن يظل ضمن خط المرأة، فينتقل من الأم إلى الابنة، وليس من الأب إلى الابن، كما هي العادة الجارية في المجتمعات الغربية في هذه الأيام. ويشار إلى هذه البنية الاجتماعية باسم الأمومة أي القائمة على النسب إلى الأم. ففي هذه الثقافات (الشائعة بين الشعوب «البدائية» حتى هذه الأيام وكذلك في المجتمعات التي برزت تاريخياً في عصر اليونان الكلاسي) ليس الأسماء وحسب بل أيضاً الألقاب والملكيات والحقوق الإقليمية تمر من خلال الخط الأنثوي بحيث تظل ضمن نطاق الأسرة.

تستنتج هوكس أنه في استراليا في المناطق التي لم يبرز فيها مفهوم الأبوة ولم يفهم «... هناك الكثير من الأدلة تبين أن السلالة الأمومية والزواج المحلي الأمومي (ينتقل الزوج إلى منزل أسرة زوجته أو قريتها) كانت عامة وكان وضع المرأة رفيعاً». وتكتب أن هذه العادات ظلت سائدة في أجزاء من إفريقيا وبين درافيد الهند ومازال بقايا منها في ميلانيسيا وميكرونيسيا واندونيسيا.

والاتجاه الثاني للدليل يدرس بدايات المعتقدات والطقوس الدينية وارتباطها بالسلالة الأمومية. لقد كانت هناك دراسات عديدة عن الحضارات البليوليثية واكتشافات مواقع مأهولة بالسكان وشعائر ترتبط ارتباطاً واضحاً بدفن موتاهم. ويدل هذا أنها، وقد تطورت مفاهيمهم الأولى عن الدين، قد اتخذت شكل عبادة الأجداد. أيضاً هناك تماثل يظهر بين الشعب الباليوليثي والمفاهيم والشعائر الدينية التي لوحظت بين كثير من القبائل «البدائية» التي درسها الأنتروبولوجيون في القرنين الماضيين. وعبادة الأجداد تظهر بين الشعوب القبلية في العالم كله. ويقول مارينجر إنه حتى زمن كتابته ١٩٦٥ كانت بعض القبائل في آسيا ماتزال تصنع تماثيل صغيرة تعرف باسم دزولي. ويشرح ذلك فيقول «فالأوثان إناث وتمثل البدايات الأولى للقبيلة بكاملها».

وهكذا ما إن تطورت المفاهيم الدينية لأبكر إنسان عاقل حتى بدأالبحث عن المصدر المطلق للحياة (وربما هذا هو جوهر التفكير الثيولوجي). ففي هذه المجتمعات الباليوليثية العليا ـ التي قد تكون الأم فيها اعتبرت الأب الوحيد للأسرة، فكانت عبادة

الأجداد أساس الطقس المقدس، وسجلات الجدودية لم تعرف إلا من خلال الخؤولة ـ وربما يكون مفهوم خالق الحياة قد صيغ عن طريق صورة العشيرة للمرأة التي كانت جدتهم الأولى والعظمى، ولذلك قدست الصورة وعبدت كجدة مقدسة.

الاتجاه الثالث للدليل، وهو الأكثر بروزاً، مأخوذ من المنحوتات الكثيرة للنساء التي عثر عليها في الثقافات الغرافيتانية ـ الأورليغانية للعصر الباليوليثي الأعلى. وبعض هذه المنحوتات يرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠٠ قبل المسيح. فهذه التماثيل الصغيرة المصنوعة من الحجارة والعظام والطين والتي تدل عادة على أشكال فينوس، وجدت في المناطق التي كانت تعيش فيها المجتمعات المستقرة. لقد اكتشفت بالقرب جداً من بقايا الجدران الغائرة لما يظن أنها كانت المساكن البشرية المصنوعة الأولى في الأرض. ويذهب مارينجر إلى أنه صنعت أثلام أو ضغوطات في الجدران لتعليق الأشكال. وقد وجدت تماثيل النساء هذه، وبعضهن حوامل على مايدو، في المواقع الغرافيتية ـ الاوريغانية المنتشرة انتشاراً واسعاً حتى أطراف اسبانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا وروسيا. وقد ظهرت هذه المواقع والتماثيل لتغطي مرحلة لاتقل عن عشرة آلاف سنة.

يقول مارينجر «يبدو أنه من المحتمل جداً أن الأشكال الأنثوية كانت أوثاناً لعبادة «الأم العظمى» وقد مارسها صيادو الماموت الأوريغانشيون غير البداة، الذين سكنوا المناطق الأوروبية الآسيوية التي تمتد في جنوب فرنسا حتى بحيرة بيكال في سيبيريا» (ومن منطقة بحيرة بيكال في سيبيريا نشأت على مانعتقد القبائل التي هاجرت إلى أميركا الشمالية في الفترة نفسها، وهناك تطوروا إلى الهنود الأميركان).

وفي كتاب الكسندر مارشاك «جذور الحضارة» هناك نص لأبراموفا المختصة الروسية بعصر الباليونيث يقدم شرحاً مختلفاً قليلاً وهو أنه في الدين الباليونيثي «كانت صورة المرأة/ الأم... صورة معقدة، وهي تشتمل على أفكار مختلفة مرتبطة بالأهمية الخاصة للنساء في المجتمع العشائري الأول. لم تكن ربة ولا وثناً ولا أم الرب بل كانت أم العشيرة... وقد انعكست أيديولوجيا قبائل الصيد في هذه المرحلة من حياة العشيرة الأمومية في التماثيل الصغيرة الأنثوية».

الصباح النيوليثي:

الارتباطات بين التماثيل الصغيرة الأنثوية الباليوليثية والظهور المتأخر للمجتمعات عابدات الربة في المراحل النيوليثية للشرقين الأدنى والأوسط غير محددة، وإنما افترضها

خريطة ١ - بعض أقدم المستوطنات البشرية (٧٠٠٠ - ٤٠٠٠ ق.م)

كثير من الباحثين. ففي الموقع الغرافيتي لفيستونيك في تشيكوسلوفاكيا، حيث كانت أشكال فينوس لم تتشكل وحسب بل كانت تقوّى بالشيّ في تنور، كما وجدت مرتبة في قبر امرأة عثروا عليها. كان عمرها أربعين عاماً تقريباً. وكانت مزودة بالأدوات ومغطاة بشفرات مصنوعة من عظام كتف الماموت ومصبوغة بالمغرة الحمراء. وفي موقع نيوليثي في شانيدار، على الامتداد الشمالي لنهر دجلة، عثروا على قبر آخر، يرجع تاريخه إلى عام ٩٠٠٠ قبل المسيح. كان مدفناً لامرأة شابة، كذلك صبغت بالمغرة الحمراء.

وإحدى الروابط الأبرز بين المرحلتين كانت التماثيل الصغيرة الأنثوية التي برزت في المجتمعات النيوليثية من خلال ظهورها في الفترة التاريخية للسجلات المكتوبة، وهي تمثل الربة. فمنحوتات الثقافات الباليوليثية والمراحل النيوليثية تجعلنا نلاحظ أن الأشكال الباليوليثية «... تشبه شبهاً كبيراً الأم أو الربة الأرض لدى الشعوب الزراعية الأوروآسيوية في العصر النيوليثي، ولابد أن تكون أسلافاً لها». ويلاحظ جيمس هذا التشابه فيقول عن التماثيل النيوليثية «كثير منها ينتمي بوضوح إلى الأنماط الكبرى الغرافيتية ـ الباليوليثية. ولكن ربما يكون الشيء الأكثر أهمية حقيقة أن المواقع الأوريغناسية قد اكتشفت الآن بالقرب من الأناضول زهاء ستين ميلاً من مجتمع عابد الربة النيوليثي لهاسيلار في الأناضول (تركيا) وفي موساداغ شمال سوريا (وكانت جزءاً من كنعان).

يصف جيمس ميلارت المدير المساعد السابق للمؤسسة البريطانية للأركيولوجيا في أنقرة، والمدرس الآن في معهد الأركيولوجيا في لندن، الثقافات الكبرى النيوليثية في الشرق الأدنى فيرى أنها تمتد من ٩٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ قبل المسيح. فيكتب أنه خلال ذلك التاريخ «ظهر الفن على شكل حفريات حيوانية وتماثيل صغيرة للإلاهة الفائقة، الإلاهة الأم».

ظهرت المجتمعات النيوليثية مع أقدم الأدلة على التطور الزراعي (وهو مايميزهم كنيوليثيين). لقد ظهروا في مناطق سميت فيما بعد باسم كنعان (فلسطين ولبنان وسوريا) وفي الأناضول (تركيا) وعلى طول الروافد الشمالية لنهري دجلة والفرات (العراق وسوريا). وقد يكون من الأهمية أن كل هذه الثقافات امتلكت الزجاج البركاني من أقرب المواقع إليها ـ الأناضول. وأحد هذه المواقع، قرب بحيرة فان، يمتد مباشرة من السهوب الروسية إلى الشرق الأدنى.

الموقع المعروف الآن باسم أريحا (في كنعان) كان سكانه بحلول ٧٠٠٠ قبل

المسيح يعيشون في بيوت من القرميد الجصي، بعضها فيه تنانير ومدافىء وحتى حفريات الصواري الباب. معابد جصية مستطيلة ظهرت إلى الوجود. وتكتب سيبيل فون كليست ريدن عن أريحا «تشير المكتشفات المختلفة إلى حياة دينية ناشطة. وهناك أشكال طينية للأنثى مع أيد مرفوعة إلى الصدور تشبه أوثان الإلاهة الأم التي انتشرت أخيراً في الشرق الأدنى» ويكتب ميلارت أيضاً عن أريحا «لقد صنعوا بدقة أشكالاً طينية لنموذج الربة الأم».

وتمركز مجتمع نيوليثي آخر في جارمو شمال العراق في ٦٨٠٠ قبل المسيح تقريباً. ويخبرنا ساغس أستاذ اللغات السامية أنه في جارمو «وجدت تماثيل صغيرة من الطين لحيوانات وكذلك للربة الأم: والربة الأم الممثلة بهذه التماثيل الصغيرة يبدو أنها كانت الشخصية المركزية في الدين النيوليثي».

واستوطنت هاسيلار، التي تبعد ستين ميلاً عن الأوريغناسيان في الأناضول زهاء عام ٦٠٠٠ قبل المسيح. وهنا أيضاً عثروا على أشكال للربة. ففي حفريات كاتال حيوك القريبة من السهول الكيليكية في الأناضول، القريبة اليوم من فونيا، اكتشف ميلارت مالايقل عن أربعين معبداً يرجع إلى عام ٦٥٠٠ قبل المسيح وماقبل. وقد ظهرت ثقافة كاتال حيوك منذ ألف سنة من هذا التاريخ. ويبين ميلارت «تسمح لنا التماثيل أن نتعرف على الآلهات الرئيسية التي عبدها الشعب في كاتال حيوك. والآلهة الرئيسية كانت ربة تتجلى في ثلاثة أوجه، كامرأة شابة أو كأم ولود أو كامرأة عجوز». ويرى ميلارت أنه قد تكون هناك أغلبية من النساءفي كاتال حيوك، كما دلت على ذلك مدافن النساء. في كاتال حيوك نثرت على الأجساد مغرة حمراء جداً. وكل مدافن المغرة الحمراء تقريباً كانت للنساء. ويعتقد أيضاً أن الدين ترافق أساساً مع دور النساء في التطور الأولي للزراعة. ويضيف «ويبدو أنها شبيهة تماماً بعبادة الربة التي كانت تديرها النساء...».

وبحلول عام ٥٥٠٠ قبل المسيح تقريباً كانت البيوت قد شيدت وتتألف من مجموعة غرف حول باحة مركزية، وهو طراز يستخدمه كثير من مهندسي هذه الأيام. وقد وجدت في المواقع على طول الروافد الشمالية لنهر دجلة، وفي مجتمعات عرفت باسم مرحلة حسونة. فهناك كما في المجتمعات النيوليثية الأخرى وجد الأركيولوجيون أدوات زراعية مثل المجرفة والمنجل وجرار الغلال الخاصة بالحبوب والتنانير الطينية. أيضاً يقول البروفسور ساغس «أيضاً تظهر الأفكار الدينية لمرحلة حسونة في أشكال طينية للربة الأم».

حضارة من أعظم الحضارات المعقدة للشرقين القديمين الأدنى والأوسط أقيمت على ضفاف دجلة الشمالي وامتدت غرباً حتى نهر الخابور. وقد عرفت باسم حضارة حلف وظهرت بأماكن مختلفة في عام ٥٠٠٠ قبل المسيح تقريباً. ففي مواقع حلف هذه اكتشفوا مدناً صغيرة بشوارع مرصوفة. صاروا يستخدمون المعدن وهو ماجعل حضارات حلف تدخل مرحلة سماها الأركيولوجيون بالعصر النحاسي.

ويكتب ساغس بعد دراسة صورة على مزهرية من السيراميك أنه «من مرحلة حلف يبدأ تاريخ اختراع العربة ذات العجلات». لقد وجدوا تماثيل صغيرة للربة في كل مواقع حلف، ولكن هذه الأشكال في المدينة الحلفية الارباشية (العربجية - المترجم) ترافقت مع الأفاعي والفؤوس المزدوجة والحمام، وكلها رموز مرتبطة بعبادة الربة كما عرفت في المراحل التاريخية. وإلى جانب هذا ظهر الخزف السيراميكي المزخرف في أبنية الأرباشية (العربجية - المترجم) التي عرفت باسم تولوي. كانت عبارة عن غرف مستديرة الشكل يرتفع قطرها إلى ثلاثة وثلاثين قدماً مع سقوف للتهوية. وكانت الأبنية المستديرة مرتبطة بمماش طويلة مستطيلة يصل طولها ثلاثة وستين قدماً. وبما أن التماثيل الصغيرة للربّة اكتشفت قريباً من التولوي فقد استخدمت أيضاً كمعابد.

وفي ٤٠٠٠ قبل الميلاد ظهرت أشكال الربة في أور وأوروك، وكلتاهما تقعان على الطرف الجنوبي لنهر الفرات، ليس بعيداً عن الخليج الفارسي. وفي هذه الفترة نفسها تقريباً ظهرت في مصر حضارات البادارية والعمارتية وهي من الحضارات النيوليثية. وفي تلك المواقع ظهرت الزراعة في مصر لأول مرة. وفي مجتمعات مصر النيوليثية هذه اكتشفت أيضاً تماثيل صغيرة للربة.

انطلاقاً من هذه النقطة ومابعد، ومع اكتشاف الكتابة ظهر التاريخ في كل من سومر (جنوب العراق) ومصر في عام ٣٠٠٠ قبل المسيح تقريباً. وفي كل منطقة للشرقين الأدنى والأوسط عرفت الربة واشتهرت في العصور التاريخية. ومع أن القرون الكثيرة المتعاقبة حولت وغيرت الدين من دون شك بطرق مختلفة، فإن عبادة الإلاهة الأنثى ظلت قائمة في المراحل الكلاسية لليونان وروما. ولم تقمع هذه العبادة حتى زمن الأباطرة المسيحيين لروما وبيزنطة، الذين أغلقوا آخر معابد الربة عام ٥٠٠ بعد المسيح.

الربة ـ بصفات الإله التي يراها الناس اليوم:

تدل المنتوجات الإنسانية الفنية الأركيولوجية أنه في كل المجتمعات النيوليثية والنحاسية المبكرة كانت الجدة المقدسة توجد باعتبارها إلاهة عليا. وفي هذه الآونة لم تقدم الحياة البشرية وحدها فقط بل أيضاً المواد الغذائية. ويظن دوسون أنه لابد أن تكون الزراعة المبكرة قد نمت حول معابد الربة الأم، فأصبحت مراكز اجتماعية واقتصادية، وكذلك أمكنة مقدسة صارت نواة مدن المستقبل.

يقتبس جوزيف كامبل في كتابه «الميثولوجيا البدائية» من شميدت فيتحدث عن هذه الثقافات المبكرة «هنا كانت النساء اللواتي ظهرن فائقات لم يحبلن بالأولاد فحسب، بل كن أيضاً المنتجات الرئيسيات للطعام. وبتأكيد ذلك فإن من الممكن أن يحرثن ويحصدن، فجعلن الأرض ذات قيمة وأصبحن بالتالي المالكات لها. وهكذا تسلمن السلطة الاقتصادية والاجتماعية إلى جانب الاحترام». ويضيف هوكس في عام ١٩٦٣ أنه «ثمة أسباب كثيرة للافتراض أنه في ظل ظروف الأسلوب النيوليثي للحياة كان نظام حق الأم والعشيرة سائداً، وكانت الأرض تورث عن طريق السلالة الأمومية».

ومع أن الربة ظهرت في بدايتها الحاكمة الوحيدة فإنها في مرحلة غير محددة من الزمن ظهر لها ابن أو أخ (وذلك بحسب المكان الجغرافي) فكان عشيقها وزوجها. وقد برز من خلال رمزية المراحل التاريخية المبكرة ويفترض أنه كان جزءاً من الدين الأنثوي في العصور القديمة جداً. ويكتب البروفسور جيمس «سواء كان هذا يعكس أو لايعكس نظاماً بدائياً للتنظيم الاجتماعي الأمومي، وهذا غير محتمل فإن الحقيقة تبقى أن الربة في البداية كانت لها الأسبقية على الإله الفتى الذي رافقها كابن أو زوج أو عشيق».

وكان هذا الفتى هو الذي يرمز إلى الدور الذكوري في الاتصال الجنسي السنوي المقدس مع الربة. (عرف هذا الطقس منذ العصور التاريخية ولكن يظن عموماً أنه عرف في مرحلة الدين النيوليثية). وقد عرف بلغات مختلفة باسم داموزي أو تموز أو أتيس أو أدونيس أو أوزيريس أو بعل، وقد توفي هذا الزوج في شبابه فسبب فترة سنوية من الحزن والنواح بين أولئك الذين يقدمون الولاء للربة. فالرمزية والطقوس المرتبطة به سوف نشرحها باسهاب في فصل يدور عن الزوج المذكر، ولكن حينما يظهر هذا الزوج الشاب المتوفى كإله ذكر، يبرز حضور دين الربة، فالليجندات والطقوس النواحية

تتشابه تشابهاً كبيراً في كثير من الحضارات. علاقة الربة بابنها أو في بعض الأمكنة علاقتهما بشاب وسيم يرمز إلى الابن، عرفت في مصر في عام ٣٠٠٠ قبل المسيح، وظهرت في الأدب السومري القديم، ثم ظهرت في بابل والأناضول وكنعان وبقيت في الليجندة اليونانية الكلاسية عن أفروديت وأدونيس كما عرفت في روما قبل المسيحية في طقوس سيبيل وأتيس، ومن الممكن أن تكون قد أثرت في رمزية وطقوس المسيحية الأولى. إنها وجه من أكبر وجوه الدين الذي تفرع إلى مساحات واسعة تغطي حيزاً كبيراً من الجغرافيا والتاريخ.

ولكن حالما نزح سكان الثقافات النيوليثية القديمة هابطين من أوروبا، ومن الممكن أن تكون سلالات الثقافات الغرافيتية ـ الاوريغناسية، اندفعت موجات أكبر من سكان الشمال وانحدرت إلى الشرق الأدنى. ويظن أن هذه الثقافات كانت من سلالات الثقافات الميزوليثية (١٥٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ قبل المسيح) والميغلوميزية والكوندية في أوروبا الشمالية. وكما سوف أوضح فيما بعد بصورة أوسع، لم يكن وصولهم بالتدريج على مراحل انتشارهم في المناطق، كما هو الأمر لدى شعوب الربة، وإنما كان سلسلة من الغزوات العدوانية فانتزعوا بالغزو منطقة إثر منطقة من شعوب الربة.

هؤلاء الغزاة الشماليون الذين عرفوا باسم الهندوأوروبيين أحضروا دينهم معهم وهو يقوم على عبادة الشاب المقاتل و/أو الرب الأب الفائق. ويحدد وصولهم تاريخياً وأركيولوجياً بعام ٢٤٠٠ قبل المسيح ولكن ربما تكون عدة غزوات قد حدثت قبل ذلك. فطبيعة الغزاة الشماليين ودينهم وتأثيرهم في الشعب العابد للربة ستلقى المزيد من الشرح والمناقشة في الفصلين الرابع والخامس. إلا أن النموذج الذي ظهر بعد الغزوات كان مزيجاً من لاهوتين. قوة أحدهما أو الآخر تختلف من مدينة إلى مدينة اختلافاً ملحوظاً. وإذ استولى الغزاة على المزيد من الأراضي وتابعوا التكاثر والاستقواء طيلة ألفي سنةتالية جمع دينهم بين الآلهة المؤنثة والآلهة المذكرة ولكن ليس كمتساوين بل بتفوق الذكر كزوج مسيطر أو حتى كقاتل للربة. ومع ذلك فإن الأساطير والتماثيل والدليل الوثائقي تكشف الحضور الدائم للربة وبقاء العادات والطقوس المرتبطة بالدين، على الرغم من جهود الغزاة في تحطيم العبادة القديمة أو التقليل من شأنها.

ومع أن الأمثلة أكثر قدماً للغة المكتوبة التي اكتشفت في كل مكان في الأرض ظهرت في معبد ملكة السماء في أريك في سومر، قبل ٣٠٠٠ سنة قبل المسيح فإن الكتابة في ذلك الوقت تبدو أنها استخدمت أولاً في حسابات الشغل المتعلق بالمعبد.

وقد عدلت المجموعات الشمالية عندما وصلت طريقة الكتابة فعرفت باسم الكتابة المسمارية (إشارات صغيرة حادة تضغط في الطين الطري) فاستخدموها في أدبهم وسجلاتهم الخاصة. ويعلق البروفسور شييرا «من الغريب أن نلاحظ أن كل الأدب العملي الموجود كان يسجل في شكل مكتوب بعد عام ٢٠٠٠ قبل المسيح بقرن أو قرنين». وما إذا كان هذا يفترض أن اللغة المكتوبة لم تعتبر وسيلة للأساطير والليجندات قبل ذلك الوقت أو أن الألواح الموجودة دمرت وأعيدت كتابتها، تبقى مسألة مفتوحة. لكن لسوء الحظ فإن ذلك يعني أن علينا الاعتماد على الأدب الذي كتب بعد بداية الغزوات والغارات الشمالية. ومع ذلك فإن بقاء وانتعاش الربة ككائن أعلى في مناطق معينة والعادات والطقوس والصلوات ورمزية الأساطير وأيضاً دليل مواقع المعبد والتماثيل تمدنا بكمية كبيرة من المعلومات عن عبادة الربة حتى في ذلك الوقت. إنها تسمح لنا نوعاً ما بملاحظة نجاح التحولات التي برزت في ألفي السنة التالية، ومكنتنا في العودة خلفاً لنفهم طبيعة الدين كما وجد في العصور التاريخية القديمة والعصور النيوليثية.

وكما أشرت من قبل فإن عبادة الإلاهة الأنثى قد اشتملت في جزئها الأعظم على إضافة صغيرة لدراسة نماذج المعتقدات الدينية في الثقافات القديمة، لكن معظم الباحثين يفضلون مناقشة المراحل التي حازت السيادة فيها الآلهة الذكور. ففي كثير من الكتب هناك إشارة خاطفة للربة تسبق عادة الأطروحات الطويلة عن الآلهة الذكور الذين حلوا محلها. معظم سوء الفهم نابع من الاستنتاجات الغامضة أن تقديس الإلاهة الأنثى كان حادثاً منعزلاً أو أنه كان في حيز صغير أو أنه كان غير مألوف أو طارىء. وبما أن معظم الكتب تهتم بمنطقة جغرافية واحدة معينة، فكان هذا جزئياً نتيجة حقيقة أن الربة كانت متوحدة باسم أو أسماء نوعية كانت مألوفة لدى سكان ذلك المكان، أما الارتباطات العامة فلا إشارة إليها.

على أي حال، بالتمحيص الدقيق بات واضحاً أن الكثير من الأسماء التي استخدمت في مناطق مختلفة إنما كانت ألقاباً متنوعة للربة العظمى، كانت صفات من أمثال ملكة السماء أو سيدة المكان العالي أو الحاكمة السماوية أو سيدة الكون أو حاكمة السموات أو لبوة المجمع المقدس أو جلالتها، هكذا ببساطة. وقد يضاف عادة اسم المدينة أو العاصمة مما يجعل الاسم أكثر تخصصاً. على أي حال نحن لانواجه آلافاً مؤلفة من الآلهات المشوشة، وإنما نواجه تنوعاً من الألقاب الناجمة عن اللغات واللهجات المختلفة. فإذا أخذنا بهذه النظرة الواسعة والشاملة يغدو واضحاً أن الإلاهة

الأنثى في الشرقين الأدنى والأوسط كانت تقدس كربة ـ تماماً مثلما يفكر الناس في هذه الأيام بالإله.

في كتاب سترونغ وغارستانغ «الربة السورية» عام ١٩١٣ جرى شرح بعض الروابط «بين البابليين والساميين الشماليين كانت تسمى عشتار وهي عشتاروت التي في التوراة وعستارتي عند الفينيقيين. وكان اسمها في سوريا أتار وفي كيليكيا اتخذ اسمها شكل أتي (أتيه).

في ترجمة روبرت غريفس لكتاب «الحمار الذهبي» الذي كتبه كاتب روماني في القرن الثاني بعد الميلاد نلاحظ أن الربة نفسها هي التي تقدم الشرح والتفسير:

«أنا الطبيعة، أنا الأم الكونية، أنا سيدة كل العناصر، الطفل البدائي للزمن، حاكمة كل الأشياء الروحية، ملكة الموتى وأيضاً ملكة الخالدين، التجلي الوحيد لكل الأرباب والربات، إيماءة مني تحكم أعلى القمم المشرقة في السماء وأنفاس البحار كلها والصمت الحزين للعالم السفلي. ومع أني عبدت بأوجه كثيرة، وأطلقت علي ما لا يعد ولايحصى من الأسماء واستعطفت بكل طرق الطقوس المختلفة، فإن جميع أهل الأرض تقدسني.

الفريجيون الأوائل سموني بيسينونتيكا، أم الآلهة، والأثينيون الذين ولدوا من تربتهم الخاصة سموني أرتيميس السيكروبية، وعند سكان جزيرة قبرص أنا أفروديت البافية، وعند رماة السهام في كريت آناوكتينا وعند الصقليين أصحاب اللغات الثلاث اسم بروسبيرين الستيجية، وعند الأليوسيين أم الحبوب القديمة. بعضهم عرفني باسم جونوا وآخرون باسم بيلونا المعارك، وآخرون باسم هيكاتي، وآخرون باسم رامومبيا ولكن كلا العرقين من الأثيوبيين، التي تشرق الشمس على أراضيهم أول ماتشرق، والمصريين المتفوقين في العلم القديم وعبادتي في احتفالات تليق بألوهيتي، سموني باسمي الحقيقي، سموني الملكة إيزيس».

لقد كانت إيزيس هي الترجمة اليونانية للربة المصرية أوسيت.

إن التشابهات في التماثيل والألقاب والرموز من أمثال الأفعى والبقرة والحمامة والفأس المزدوجة وعلاقة الابن/ العشيق الذي يموت فيحزن عليه سنوياً والكهنة الخصيان والاتصال الجنسي السنوي المقدس والعادات الجنسية للمعبد، وكلها تكشف الروابط الأساسية والمتداخلة بين عبادة الآلهة الأنثى كما اتسعت مكاناً وزماناً من السجلات القديمة لسومر حتى اليونان وروما الكلاسية.

إن تقديس الإلاهة المرأة وعبادتها في أجزاء كثيرة من العالم القديم شكلت اختلافات حول القيمة، فالنسخ تختلف قليلاً عن المعتقدات الثيولوجية الأساسية ذاتها، تلك التي نشأت في المراحل القديمة للحضارة البشرية. ومن الصعب فهم شدة وأهمية التبجيل المقدم للربة عبر مرحلة تقدر إما بخمسة وعشرين ألف سنة (كما يشير إلى ذلك الدليل الباليوليثي الأعلى) أو حتى سبعة آلاف سنة فوق أميال من الأرض متجاوزاً الحدود القومية والمساحات الضخمة للبحر. فمن الضروري أن نستوعب القوة المديدة والانتشارية وتأثير هذا الدين الذي جرى اعتناقه في يوم من الأيام.

طبقاً للشاعر والميثولوجي روبرت غريفز «إن أوروبا النيوليثية بكاملها، إذا ماحكمنا بناء على المنتوجات والأساطير الباقية كان لديها نظام متجانس من الأفكار الدينية القائمة على الربة الأم الكثيرة الألقاب، والتي عرفت أيضاً في سوريا وليبيا... فقد اعتبرت الربة العظمى خالدة لا يعتريها تغير، كليّة القدرة، ولم يكن مفهوم الأبوة قد دخل بعد في الفكر الديني».

والدين نفسه الذي يناقشه غريفز كان موجوداً حتى أبكر من ذلك في مساحات تعرف اليوم باسم العراق وإيران والهند والعربية السعودية ولبنان والأردن وفلسطين ومصر وسينا وليبيا وسوريا وتركيا واليونان وايطاليا، وكذلك في ثقافات جزر من أمثال كريت وقبرص وصقلية وسردينيا. وتوجد أمثلة كثيرة عن العبادة ذاتها في مراحل أوروبا النيوليثية التي بدأت عام ٣٠٠٠ قبل المسيح تقريباً. وقد تابع التواتادي دانان أصلهم حتى الربة التي أحضروها معهم إلى إيرلندا قبل دخول الثقافة الرومانية بزمن طويل. والكلتيون الذين يشكلون اليوم الجزء الأعظم من سكان إيرلندا وسكوتلاندا ويلز وبريتاني عرفوا عند الرومان باسم الغال. وقد اشتهروا بأنهم يرسلون كهنتهم إلى المهرجان المقدس للربة سيبيل في بيسينوس والأناضول في القرن الثاني قبل المسيح. وهناك دليل عن حفريات في كارناك والمعابد الغالية في شارترز ومونت سان ميشيل في فرنسا يفيد أن هذه الأمكنة كانت في يوم ما مواقع للربة العظمى.

من الهند حتى البحر المتوسط... حكمت بتفوق:

نوقشت حالة الربة العظمى وأصولها في دراسات عديدة عن الديانة القديمة. وقد انصب الاهتمام الأول لهؤلاء الباحثين على الابن/ العاشق والانتقال من الأديان المؤنثة إلى الأديان المذكرة ولكن كل تقرير من تقاريرهم يكشف أن الحالة الأصلية للربة هي أنها كانت إلاهة فائقة.

في عام ١٩٦٢ وصف جيمس ميلارت الثقافات من ٩٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ قبل المسيح في كتابه «الحضارات الأولى للشرق الأدنى». وقد أشرت من قبل أنه استنتج أنه في ذلك الوقت ان الفن ظهر على شكل حفريات حيوانية وتماثيل صغيرة للإلاهة الفائقة، الربة الأم». ويكتب أنه في كاتال حيوك في الألف السابعة «كانت الإلاهة الأساسية ربة...». وفي وصفه موقع هاسيلار، وهي مجتمع نيوليثي في ٥٨٠٠ قبل المسيح، يلفت نظرنا إلى حقيقة أن التماثيل الصغيرة تصور الربة وكان دور الذكر ثانوياً كابن أو عشيق».

هناك شكل للربة من هاسيلار موجود الآن في متحف أنقرة وركبت معظم قطعه التي عثر عليها في هاسيلار وكاتال حيوك من قبل حفريات ميلارت، فعراقتها تتناقض تناقضاً غريباً مع المعمارية المعاصرة والديكور. ويبدو أن هذا المنحوت الخاص للربة يصورها وهي تمارس الحب، مع أن شكل الذكر مكسور ولايمثله إلا شذرة صغيرة من خصره وفخذيه وساق واحدة. وهناك احتمال أن هذا الطفل أكبر من أن تحمله إليها، فهو أقرب إلى المراهق الشاب، وربما كان الابن/ العاشق للإلاهة الأنثى منذ ثمانية آلاف سنة.

وكذلك في كتاب «عيلام العالم المفقود» المنشور عام ١٩٧٣ يناقش الدكتور والتر هنز، مدير مؤسسة الدراسات الإيرانية في جامعة كوتنجن في ألمانيا، أيضاً عبادة الربة في الشرقين الأدنى والأوسط. فالأمة العيلامية كانت شرق سومر تماماً، وكانت الثقافتان في المراحل التاريخية المبكرة وثيقتي الصلة. ويكتب الدكتور هنز «إن المكان الأرفع في هذا العالم احتلته ربة ـ وهذا نموذج عام لعيلام... لقد كانت ـ الأم العظمى ـ للعيلاميين. والحقيقة أن الأسبقية كانت للربة، التي تقف بعيداً فوق كل الأرباب العيلاميين وتشير إلى التكريس الأمومي في هذا الدين».

ويصف الدكتور هنز الربة بأنها كانت مشهورة في مراكز مختلفة في الديار العيلامية ثم يخبرنا «في الألف الثالث ظلت أمهات الأرباب العظيمات تحتل قمة البانثيون العلامي إلا أن تغيراً حصل أثناء الألف الثاني. فحالما استسلم عصر الأمومة القديم في عيلام أمام النهوض التدريجي لموقع الرجال فإن تنظيماً مناسباً برز بين الأرباب... فأثناء الألف الثالث كان (حومبان زوج الربة) مايزال يشغل المكان الثالث، ولكن أواسط الألف الثاني انتصب على رأس البانثيون».

وفي تفسيره لظهور الإلاهة الأنثى بين الساميين الذين يضمون العرب والعبريين أكد

روبرتسون سميث في كتابه النبوئي عام ١٨٩٤ «دين الساميين» أن الإلاهة الأنثى في الديانة السامية قدست كنتيجة مباشرة لتجاور عبادة الأجداد ونظام القرابة الأمومي. وقد كتب في ذلك الوقت:

«الباحثون المحدثون في الأسرة يجعلونها في أعلى درجة، فلا يحتمل أن تكون العلاقة الجسدية بين الرب وعابديه التي وجدت آثارها في كل المنطقة السامية مفهومة أصلاً على أنها علاقة أبوية. لقد كان دم الأم وليس دم الأب هو الذي شكل الرابطة الأساسية للقرابة بين الساميين وكذلك بين الشعوب القديمة الأخرى، في مرحلة المجتمع هذه، إذ كان يعتقد أن الإله القبلي هو أبو الأرومة، لابد أن تكون الربة وليس الرب هي موضوع العبادة».

كتب البروفسور هنري فرانكفورت في كراسته عام ١٩٤٨ عن «القرابة والأرباب»: «في مابين النهرين الربة هي العليا لأنهم يرون أن مصدر الحياة كلها هو الأنثى. ولذلك فإن الرب أيضاً انحدر منها وسمي ابنها مع أنه أيضاً زوجها. ففي طقس الزواج المقدس فإن الربة تمسك بالمبادرة في كل مكان. وحتى في حالة الفوضى فإن الأنثى تيامات هي القائدة وليس أبسو إلا ملحق لها».

وفي المجلدات الاثني عشر المكرسة لدراسة الدين القديم و «البدائي» المنشورة عام ١٩٠٧ كتب السير جيمس فريزر عن الربة المصرية إيزيس (أوسيت) وابنها /زوجها أوزيريس (اوسار). وبالإضافة إلى مجلدات «الغصن الذهبي» الاثني عشر نشر أيضاً كتاباً منفصلاً (أوتيس وأدونيس وأوزيريس» واستخدم فيه عدة مقاطع من «الغصن الذهبي» وفي كلا العملين يشدد أنه وفقاً للميثولوجيا المصرية كانت إيزيس الإله الأقوى في الزوجين. وقد ربط هذا بنظام الملكية والإرث الممارس في مصر، الذي يصفه بأنه «قرابة الأم» ويشير إلى العاشق الشاب للربة على أنه «التشخيص الميثولوجي للطبيعة» ويفسر أن ماكان يستدعي هذا الشكل لابد أن يكون الزواج الجنسي من الإلاهة الأنثى العليا. وعلى حالة الشاب ووضعه في الدين علق «في كل حالة (أتيس وأدونيس وأوزيريس) يبدو أن الأصل أن الربة كانت شخصية أكثر قوة وأكثر أهمية من الرب».

وقد ناقش هـ. ج. روز في كتابه المنشور عام ١٩٢٨ «مفكرة الميثولوجيا اليونانية» دور الذكر الشاب في الاتصال الجنسي المقدس فوصفه أنه «شريكها الناقص» ملاحظاً «ربما إننا نتعامل مع ليجندات تمثل الربة لا باعتبارها متزوجة بل باعتبارها تشكل اتصالات مؤقتة مع أحدهم ينقص عنها كثيراً وهي عملية تميز تماماً الربات الشرقيات

اللواتي هن أمهات ولسن زوجات وإلى جانبهن يغرق عشاقهن في إهمال نسبي».

وفي كتاب ا. و. جيمس «الآلهة القديمة» المنشور عام ١٩٦٠ نجد وصفاً للعلاقة بين الربة وابنها /زوجها. إنه يفسر تفوقها على هذا النحو:

«كانت هي المسؤولة عن شفائه وإحيائه الذي عليه يعتمد تجديد الطبيعة. ففي التحليل الأخير كانت إينانا/ عشتار وليس داموزي/ تموز المصدر المطلق للحياة وإعادة تجديدها، وإن كان الرب الشاب كوكيل لها أداة في هذه العملية... ومع توطيد الزوجية والتأهيل صارت وظيفة الذكر في عملية التناسل أكثر وضوحاً وحيوية وكان على الربة الأم أن تزف إلى زوج حتى تلعب دورها كمنسلة، وإن كان كما في مابين النهرين مثلاً ابنها/ زوجها الشاب أو خادمها. والحقيقة أنه من الهند حتى البحر المتوسط حكمت بتفوق، والأغلب أن تظهر كربة غير متزوجة».

آرثر إيفانز، الباحث الاكسفوردي البارز والأركيولوجي المرموق الذي نقب تحت الأرض بل إنه أعاد جزئياً بناء القصر الملكي في كنوسوس في جزيرة كريت، علق في عام ١٩٣٦ «لاشك أن كثيراً من العنصر الذكوري قد أكد ذاته في الهيمنة على الحكومة، في الأيام العظيمة للحضارة المينوسية لكن الدين استمر يعكس المرحلة الأمومية للتطور الاجتماعي. ومن الواضح أن الربة كانت متفوقة...».

وكتب ايفانز مناقشاً الأناضول التي كانت وثيقة الصلة بكريت المينوسية من خلال التبعية والتجارة «عبر جزء كبير من الأناضول، نتعرف مرة أخرى على عبادة الأم العظمى ذاتها مع زوجها الذكر التابع، العاشق أو الولد، كما قد تكون الحالة». باحث أوكسفوردي آخر من أواخر القرن التاسع عشر ل. ر. فارنل كتب عن كريت منذ ١٨٩٦، في سلسلة من المجلدات بعنوان «العبادات في الولايات اليونانية» علق «إننا قد نستنتج بإطمئنان من الأدلة المتاحة أن الدين الأقدم لكريت كان مخصصاً على نحو رئيسي لربة عظمى، بينما الإله الذكر المدموج حتماً في عبادة الربة كان تابعاً ويقبع في الخلف».

كتب روبرتسون سميث عن وضع الربة في الجزيرة العربية التي كان قد قال عنها إنها المقدسة الأساسية باعتبارها أصل الأرومة. وصف تحول السلطة التي برزت عندئذ فقال «كانت الربة والرب في الدين العربي زوجين، الربة هي المتفوقة والرب، ابنها هو الإله الأقل مقاماً. وحدث بالتدريج تغير انتقلت فيه خصال الربة إلى الرب، وهكذا انحط وضع الأنثى أدنى من الذكر».

واستخلص سميث أن الربة ظلت معروفة في الدين الأبوي التالي وزعم أن عبادتها صارت ملحقة بـ «العبادات» التي عثروا على أصولها في «عصور القرابة الأمومية». ثم ناقش العصر عندما:

«... انتزع التغير في قانون القرابة الأم من مركزها السابق القديم في الأسرة وحول إلى الأب القسم الأعظم من سلطتها وتكريمها... وفقدت النساء حق اختيار أزواجهن، وصارت الزوجة خاضعة لسيادة زوجها... وفي الوقت نفسه صار أطفالها لأغراض الوراثة وواجبات الدم، أعضاء في عشيرته لا في عشيرتها. وكلما سار الدين خطوة مع القوانين الجديدة للأخلاقية الاجتماعية المترتبة على هذا التطور، صارت الأم المقدسة المستقلة الشريك التابع للإله الذكر... أو إذا كان تفوق الربة شديد الوطادة جداً مستعصياً على الاندثار، فإنها قد تغير جنسها، كما في جنوب الجزيرة العربية حيث تحولت عشتار إلى أثتار الذكر».

والخلاصة يلاحظ أنه بالإضافة إلى قبول قرابة الذكر، فإن المرأة أنزلت منزلة التابع ولم يعد الوضع الرئيسي للابن بيد المرأة، بل بيد الرجل. ومع أن سميث قدم التغير وكأنه يجري كتغير طبيعي، كما أشرت وكما سأشرح ذلك مطولاً فيما بعد، فإن التحول ترافق بالعدوان العنيف والمذابح المريعة والصراعات المخيفة في كل أرجاء الشرقين الأدنى والأوسط.

بعد قراءة هذه الدراسات وغيرها في الموضوع، لم يعد ثمة أي شك في ذهني عن وجود الدين الأنثوي القديم، ولا أن المرأة في أقدم الأنظمة الثيولوجية كانت تقدس باعتبارها الكائن المقدس الأساسي والفائق. وهذا الدين، الذي انتشر في كل العالم القديم مع أمثاله واختلافاته المحلية، هو الذي سوف أصفه في بقية هذا الكتاب. وسوف نقسمه أيضاً حسب أسمائه الخاصة وأمكنته، كما تتيح لنا ذلك المادة المتاحة، بيد أننا لانستطيع تجنب ملاحظة التشابهات والتماثلات العديدة للدين كما عرف ومورس في ثقافة ما مع أشكاله وطقوسه في ثقافة أخرى. ذلك أن هذا الدين الذي سبق الأديان الذكورية بآلاف السنين كان أيضاً دليلاً دامغاً. ولكن هذه المعلومات، وإن أرضت فضولي، إلا أنها تبرزه بروزاً كبيراً فقط. بيد أن الأهم عندي هو التساؤلات عن وضع النساء اللواتي عشن فعلاً في مجتمعات بُجلت فيها الجدة المقدسة.

الفصل الثالث

النساء حيث قدست المرأة

السؤال الأكثر إلحاحاً - وربما السؤال الذي كان سبباً لظهور هذا الكتاب - هو هذا: ما تأثير عبادة الإلاهة الأنثى على حالة النساء في الثقافات التي مجدت فيها؟أشار هنز وإيفانز ولانفدون وكثير غيرهم إلى المجتمعات التي تعبد الربة القديمة على أنها أمومية. فماذا يعني هذا تماماً؟

من السهولة أن ندخل في النمط السجالي للتعليل هنا، كأن نقول مثلاً، لقد عبدوا الربة فلا بد أن تكون النساء قد حققن حالة رفيعة، أو لأن النساء حققن حالة رفيعة عُبدت الربة، مع أن هذين العاملين، إذا اعتبرنا أوضاع المجتمعات التي تعبد الآلهة الذكور اليوم، قد يكونان وثيقي الصلة. ومع ذلك لابد من أخذ مختلفة الآراء في هذا الموضوع، حتى تلك التي يضطرب فيها السبب والنتيجة أو التي تدرك فيها الأحداث المتزامنة على أنها متعاقبة. ومانريده هو استيعاب قدر الإمكان علاقة الدين الأنثوي بوضع النساء.

في كتاب «الجنس المسيطر» يكتب م . فارتنغ في ألمانيا عام ١٩٢٣ مؤكدين أن جنس المعبود كان يحدد جنس أولئك الذين في السلطة:

«الجنس الحاكم يمتلك السلطة لينشر نظراته الخاصة ويسعى لتعميم أيديولوجيته النوعية. فلابد لاتجاهات الجنس التابع أن تعارض فيقمع هذا الجنس بمزيد من القوة حسب نسبة السيطرة التي يمتلكها الجنس السائد. والنتيجة أن خليطاً من الآلهة الذكور تترافق عادة مع الرجال السائدين وخليطاً من الآلهات الإناث مع سيادة النساء».

وذهب السير جيمس فريزر إلى أن الحالة الرفيعة للنساء مسؤولة أساساً عن تقديس وتقدير الإلاهة الأنثى. ويستشهد بعشيرة بيليو في ميكرونيسيا حيث اعتبرت النساء متفوقات على الرجال سياسياً واجتماعياً. كتب «هذه الأفضلية للربات على الأرباب في عشيرة اسلانديي بيليو تُفسر تفسيراً صحيحاً بالأهمية الرفيعة للنساء في النظام الاجتماعي للشعب».

ويربط روبرتسون سميث اختيار جنس الإلاهة الفائقة بوضع سيطرة الذكر أو الأنثى داخل العائلة. ويرى نتيجة نظام القرابة أن الهوية الجنسية لرأس الأسرة تفرض الهوية الجنسية للإلاهة الفائقة.

كل هذه الأمثلة عبارة عن أمثلة أن جنس المعبود تقرره السيطرة القائمة لجنس على الآخر ـ وهو في حالة الربة الوضع الأسمى للنساء في الأسرة وفي المجتمع. وإلى جانب هذه النظريات هناك كثير من المادة الشعرية الزائفة عن تقديس الأنثى كرمز للخصوبة ـ عن طريق الأنثى ـ لسحر قدرتها على إنجاب طفل يجعلها موضوعاً لعبادته.

وكما أشرت فإن فريزر اعتقد أن الحالة الرفيعة للنساء أدت إلى عبادة الربة ككائن متفوق معتمداً في نتائجه على سنوات دراسة المجتمعات البدائية والكلاسية. ولكن نتيجة لهذا البحث ربط أيضاً عبادة الإلاهة الأنثى بنظام القرابة الأمومي وعبادة الأجداد موضحاً أنه «حيثما كانت الربة متفوقة على الرب والجدات يعبدن بإحترام أكثر من الأجداد، فهناك دائماً تقريباً بنية قرابة أمومية». وكذلك ربط روبرتسون سميث الهوية الجنسية للإله الفائق بنظام القرابة السائدة في كل مجتمع.

ومهما كان نظام السبب والنتيجة المقترح فإن أهم العوامل التي تظهر دائماً في المادة التي تدرس حالة النساء ودورهن في الدين الأنثوي القديم في العصور التاريخية وهو عامل الارتباط الوثيق بالقرابة الأنثوية، بالأمومة التي كانت أساس تطورها. وفي اختبار وضع النساء، فإن هذه الأمم، أو البنية القرابية الأنثوية التي أدت إلى التوريث الأمومي للاسم والملكية التي سوف ندرسها باهتمام فيما بعد.

وقد عرفوا الأمومة على أنها بنية اجتماعية تسير فيها الوراثة من السلالة الأنثوية فالأبناء أو الأزواج أو الإخوة يحصلون على اللقب والملكية فقط نتيجة علاقتهم بالمرأة التي هي المالكة الشرعية. فالنسب الأمومي لا يعني النظام الأمومي الذي يحدد بوجود النساء في السلطة أو بكلمة أدق يحدد كرأس الأسرة، التي يكون لها وضع سلطوي أيضاً في المجتمع وحكومة الدولة. في بعض المجتمعات الأمومية يلعب أخو المرأة الذي بيده حق الاسم والملكية دوراً هاماً. ومع ذلك لايمكننا تجاهل احتمال أن العادات السلالية والمحلية الأمومية تؤثر في حالة النساء وفي وضعهن بشتى الطرق. ولابد من الأخذ بعين الاعتبار حذاقات السلطة وتسلم الوضع الذي رافق حيازة منزل أو ملكية أو لقب أو استقرار النساء في القرية أو بيت آبائهن لا في قرية أو بيت آباء أزواجهن، كما في المجتمعات الأمومية المحلية.

إن اقتصاديات المجتمعات النيوليثية والمجتمعات الزراعية التاريخية الأولى ناقشتها عالمة الاجتماع ف. كلين في عام ١٩٤٦. لقد رأت «أن النساء في المجتمع الأولي أنتجت المادة الرئيسية للثروة، فقد كن مالكات للبيت ومنتجات للطعام، فقدَّمْن الملجأ والأمن. لذلك اعتمد الرجل اقتصادياً على المرأة».

المجتمعات التي اتبعت الأنثى أو عادات القرابة الأمومية اشتهرت في الماضي ولا تزال تظهر في كثير من المناطق في العالم. فالنطرية القائلة إن معظم المجتمعات كانت أصلاً مجتمعات تعتمد على النسب الأمومي والنظام الأمومي والتعدد الزوجي (زواج المرأة بعدة أزواج) كانت موضوع دراسات واسعة جداً في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وقد وافق باحثون من أمثال جوهان باخوفن وروبرت بريفولت وإدوارد هارتلاند على فكرة نظام الأمومة وتعدد الأزواج، ودعموا نظرياتهم بكمية كبيرة من الأدلة، لكنهم اعتبروا هذه الأنظمة مرحلة نوعية في حركة تطورية. وقد رأوا أن كل المجتمعات مرت عبر مرحلة النظام الأمومي قبل أن تصبح مجتمعات أبوية بزواج واحدي، يبدو أنهم اعتبروها المرحلة العليا للحضارة. ولكن كما في كلام جاكيتا هوكس «ليس من المناسب اليوم أن نتحدث عن أنظمة أمومية للمجتمع. وهناك دليل في كثير من أرجاء العالم أن دور النساء ضعف منذ العصور القديمة في عدة قطاعات من البنية الاجتماعية».

إن معظم دراسات نظام الأمومة تعتمد على المشابهة الانتروبولوجية وعلى الأدب الكلاسي لليونان وروما. وبما أن معظم هذه الدراسات بحثت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن هؤلاء الكتاب لم يتوافر لديهم الدليل الأركيولوجي المتوافر في هذه الأيام. وعلى الرغم من سوء الفهم، وعلى الرغم من أحكام القيمة المنحازة فإننا نجد أن هؤلاء الكتاب كانوا في مقدمة عصرهم في التنبؤ.

نحن اليوم نستخدم كتلة هائلة من المادة قدمتها الحفريات الأركيولوجية الواسعة في الشرقين الأدنى والأوسط في هذا القرن، بالإضافة إلى المادة التي قدمها هؤلاء الكتاب. ولكن الصحيح أيضاً أن هناك حدوداً للمكتشفات الأركيولوجية - ما بقي غير مكتشف وما عثر عليها تالفاً فلا يقرأوما لايحل وما تعرض للتلف نتيجة طبيعة مواده الأصلية.

لقد اعتبر قانون حمورابي البابلي (١٧٩٠ قبل المسيح تقريباً) على أنه أقدم ماجمع، ومن المعروف الآن أنه سبقته قوانين أخرى اكتشفت حديثاً. بعض هذه القوانين يرجع

إلى عام ٢٣٠٠ قبل المسيح تقريباً. وبعضها يرجع إلى عام ٢٠٠٠ قبل المسيح أو بعد ذلك بقليل. ولكن مايزال علينا الاعتماد على المادة التي ظهرت في الشكل الكتابي الذي ظهر فقط في بدايات الغزوات الشمالية. ولكن علينا أن نكون حذرين تجاه الدلائل والشروحات المتاحة التي تختلف باختلاف المكان والزمان، فيجب أن ننفذ إلى أوضاع النساء في مجتمعات العبادة المرفوعة إلى الربة.

أثيوبيا وليبيا ـ كل السلطة للمرأة:

قبل ميلاد المسيح بتسعة وعشرين عاماً كتب روماني من صقلية عن رحلاته في إفريقيا الشمالية وبعض أقطار الشرق الأدنى، مسجلاً ملاحظاته عن الناس أثناء ترحاله. وقد اهتم اهتماماً كبيراً بالنماذج الثقافية فكان حقاً أحد السباقين في ميداني الأنتروبولوجيا والسيوسيولوجيا. وقد عرف باسم ديودوروس الصقلي أو ديودوروس الذي من صقلية. تقارير كثيرة وصف فيها حالة النساء. ويحق لنا أن نسأل لماذا هو من دون الآخرين وأكثر من أي كاتب كلاسي سجل معلومات وفيرة عن النساء المحاربات والنظام الأمومي في كل الأمم المحيطة به. إنه لم يقلل من شأن الرجال الذين عاشوا في هذه المجتمعات، إذ لم يكن ذلك همه. والواقع أنه بدا معجباً ومحترماً ومقدراً النساء اللواتي حزْن على هذه السلطة.

إن ديودوروس هو الذي قدم تقريراً أن النساء في ليبيا كن يحملن السلاح ويمارسن الزواج الشرعي، ويربين أولادهن تربية شيوعية بحيث أنهن لايعرفن هن أنفسهن من هي الأم الطبيعية لهذا الولد أو ذاك. في بعض أنحاء ليبيا حيث كانت الربة نيت تحظى بتبجيل كبير أظهرت الوثائق أن النساء الأمازونيات كن مايزلن يتجولن حتى في العصور الرومانية وقد وصف ديودوروس أمّة منهن في ليبيا كالتالي:

«كل السلطة كانت بيد المرأة، التي تصرف أي شأن من شؤون الناس. وكان الرجال يقومون بأعباء المنزل تماماً كما تفعل النساء اليوم بيننا، فيفعلون ماتأمرهم به زوجاتهم. فلم يكن يسمح لهم بممارسة شؤون الحرب أو أي وظيفة حكومية، أو شغل أي دائرة شعبية شاغرة، مما هيأ فيهم روح التمرد على النساء. وكان الأولاد فور ولادتهم يعطون للرجال الذين يقدمون لهم الحليب والطعام المناسب لعمرهم».

وكتب ديودوروس عن النساء المحاربات الموجودات في ليبيا فقال إن هؤلاء النسوة شكلن جيوشاً وغزون البلدان الأخرى. وكن، حسبما يقول، يقدسن الربة باعتبارها إلاهتهن العليا ويقمن المعابد لعبادتها. ومع أنه لايقدم اسماً معيناً، فإن

كتاباته تشير إلى الربة الليبية المقاتلة المشهورة باسم نيت التي قدست في مصر تحت اسم نيت نفسه.

مصر - يوم كان الأزواج يقيمون في المنزل ويغزلون:

حققت الربة في مصر ماقبل التاريخ تفوقاً في مصر العليا (الجنوب) تحت اسم نيخبت ورمزوا لها بالنسر. سكان مصر السفلى التي تضم إقليم الدلتا الشمالي، عبدوا ربتهم الفائقة باعتبارها كوبرا مستخدمين اسم وازيت (الأفعى العظمى). ومن عام ٣٠٠٠ قبل المسيح ومابعد يقال إن الربة المعروفة باسم نوت أو نيت أو نت، المشتقة على الأغلب من نيخبت، إنها وجدت عندما لم يكن قد خلق أي شيء. وعندئذ خلقت كل ما ظهر في الوجود. وطبقاً للميثولوجيا المصرية فإنها هي التي كانت أول من نصب رع، رب الشمس، في السماء. نصوص مصرية أخرى تعزو إلى الربة حاتور هذا الدور كخالقة للوجود وتشرح ذلك بأنها اتخذت شكل أفعى في ذلك الوقت.

ظل مفهوم الربة في مصر دائماً حيوياً فعالاً. وتقدُّمُ الآلهة الذكور، حالما بدأت المراحل الأسروية (٣٠٠٠ قبل المسيح تقريباً) سوف نناقشه بعمق في الفصل الرابع. وقد قلل هذا كثيراً من تفوقها الأصلي المعروف عن المجتمعات النيوليثية. لكن عبادة الربة استمرت مقترنة بهذا، فالظاهر أن النساء في مصر استخدمن كثيراً من الطرق.

وكتب ديودوروس طويلاً جداً عن عبادة الربة إيزيس (الإغريق يترجمون الاسم إلى أوسيت) التي اتخذت مظاهر كل من وازيت وحاتور وقد ترافقت الربة إيزيس جداً مع الربة نوت، التي صورتها السجلات الميثولوجية أنها أمها، وفي الرسوم ترتدي إيزيس أجنحة نيخبت. وفسر دودوروس أن إيزس، طبقاً للدين المصري، كانت مقدسة ومبتكرة للزراعة، وشافية وطبيبة عظيمة وأول من وطد قانون العدالة في البلاد.

كما سجل أيضاً أننا قد نجد اليوم وصفاً قلقاً لقوانين مصر، وهو يفسر ذلك أنها كانت نتيجة تبجيل هذه الربة القوية. كتب: «لهذه الأسباب كان مألوفاً أن تمتلك الملكة سلطة أكبر وتكريماً أعظم من الملك، وأن تتمتع الزوجة بين الأشخاص العاديين بسلطة على زوجها. ويوافق الأزواج في عقد الزواج أنهم سوف يطيعون زوجاتهم في كل الأشياء».

علق فريزر على العلاقة بين تقديس إيزيس وعادات القرابة الأنثوية وانتهى أنه «في مصر استمر النظام القديم لقرابة الأم، مع تفضيله النساء على الرجال في قضايا الملوكية والإرث حتى العصور الرومانية...».

هناك دليل أن مصر كانت بلداً نالت فيه النساء قسطاً عظيماً جداً من الحرية والسيطرة على حياتهن الخاصة، وربما على حياة أزواجهن أيضاً. لقد كتب هيرودوت اليوناني، قبل ديودوروس بعدة قرون أن في مصر «نساء يتجولن في الأسواق العامة يصرفن الشؤون وينهمكن في العمل، بينما الرجال يمكثون في البيت ويقومون بالغزل والنسج» ومعاصره سوفوكليس يرى أن «أفكارهم وأفعالهم كلها ضربت ضرباً على الأساليب المصرية، إذ يجلس الرجال هناك في البيت خلف النول بينما الزوجات خارج البيت لتأمين الحاجات اليومية».

كتب البروفسور سيروس غوردون في عام ١٩٥٣ عن حياة مصر القديمة. يخبرنا أن «النساء في الحياة العائلية يحظين بوضع هام لأن الإرث ينحدر من خلال الأم وليس من خلال الأب... وربما يرجع هذا النظام إلى عصور ماقبل التاريخ عندما كانت العلاقة الواضحة بين الأم والطفل معترفاً بها وليس العلاقة غير الواضحة بين الأب والطفل».

ترى الدكتورة موراي أن «ظرف النساء كان راقياً جداً وربما كان ذلك بسبب استقلالهن الاقتصادي» ويكتب السير بارون أنه في البرديات المصرية ظهر كثير من النساء كأطراف في الدعاوي المدنية والتصريفات العملية المستقلة حتى تجاه أزواجهن وآبائهن وكتب أحد أوائل الأركيولوجيين المختصين بإهرامات مصر وهو السير وليم فلندرز بتري عام ١٩٢٥ أن «الملكية في مصر تذهب كلها في السلالة الأنثوية، فقد كانت المرأة سيدة المنزل وتبدو في القصص القديمة أنها هي المتحكمة بنفسها ومكانها» وناقش اللاهوتي والأركيولوجي رولاند دي فوكس وضع النساء في مصر القديمة فكتب عام ١٩٦٥ أن «الزوجة في مصر كانت رأس الأسرة مع كل الحقوق المترتبة على ذلك». كانت الطاعة مفروضة على الأزواج في قوانين بتاح حوتب. فعقود الزواج في كل المراحل تفرض وضعاً اجتماعياً واقتصادياً مستقلاً كل الاستقلال للنساء. ووفقاً لماير الذي يقتبس من دراسة الأخوين فارتنغ «كان النساء من بين المصريين حرائر بصورة ملحوظة... فمنذ القرن الرابع قبل المسيح وجد جنباً إلى جنب الزواج الأبوي شكل للزواج تختار فيه المرأة الزوج ويمكنها أن تطلقه لقاء مبلغ من التعويض».

وتشير قصائد الحب المكتشفة في القبور المصرية أن المرأة المصرية هي التي كانت تقوم بالمغازلة، وتغازل الذكر بتقديم المسكرات لإضعاف مقاومته. وكتب روبرت بريفولت عن كهنوتية مصرية أصبحت فيما بعد حاكمة، وبالتدريج صارت قائدة للجيش.

وقد وضعت الدكتورة مرغريت موراي دراسة مستنيرة وهامة عن البنية الاجـتماعية ووضع النساء في مصر عام ١٩٤٩. وقد تحرت سلالة الأسر الملوكية في مصر، فاثبتت أن الثقافة المصرية على الصعيد الملوكي كانت أمومية في معظم مراحلها. وقد جرت الدراسات على الملوكية لأن السجلات عن هؤلاء الناس كانت متاحة جداً. وطبقاً لموراي كانت البنات وليس الأبناء هن الوارثات الفعليات للعرش الملكي. وتعتقد أن عادة زواج الأخ / الأخت الذي تطور عندئذ سمحت بهذه الطريقة للابن أن يكون له امتياز ملكي. وتكتب أن حق الوراثة الأمومي بالعرش كان سبب تزويج الأميرات المصريات لكثير من القرون داخل الأسرة ولم يكن يسمح بأحلاف الزواج الدولية. وهذا مايوضح لماذا الربة إيزيس التي يجعلها فريزر إلاهة أهم من ابنها /زوجها أوزيريس والتي يجعلها ديودوروس سبب ارتقاء وضع النساء في مصر، كانت مشهورة باسم العرش.

ولكن حتى في مصر خسرت النساء وضعهن المرموق بالتدريج. وناقش السير فلندرز بتري وهو زميل محترم للدكتورة موراي في جامعة لندن، دور الكاهنات في مصر القديمة. وقد استنتج أن وضعهن قد تغير بين زمن الأسر الأولى (٣٠٠٠ قبل المسيح ومابعد) وحتى زمن الأسرة الثامنة عشرة (١٧٥٠ - ١٣٠٠ قبل المسيح). وطبقاً للسجلات المتاحة كانت الربة المعروفة باسم حاتور وهي مقدسة بمقام إيزيس، تخدمها إحدى وستون كاهنة وثمانية عشر كاهناً في العصور القديمة بينما الربة المعروفة باسم نيت كانت تخدمها الكاهنات فقط. وبصعود الأسرة الثامنة عشرة لم تعد النساء حتى جزءاً من الاكليروس الديني، فاقتصرن على خدمة المعابد كموسيقيات فقط. وفي زمن الأسرة الثامنة عشرة مارست مصر أعظم تأثير لها على الهندوأوروبيين، وهو عنصر سوف نعود إلى مناقشته بمزيد من التفصيل في الفصلين الرابع والخامس. وكلمة «فرعون» التي هي أقوى دلالة من كلمة «ملك» مشتقة من فار - عو التي تعني حرفياً البيت العظيم. واستخدمت هذه الكلمة من أيام الأسرة الثامنة عشرة فقط لتدل على الذكر الملكي لذلك البيت.

سومر - نساء الأيام القديمة اتخذن زوجين...

كتب البروفسور ساغس عام ١٩٦٢ عن مجتمعات مابين النهرين، وهي تشمل كلاً من سومر وبابل. فما بين النهرين التي تدل على العراق تقع بين نهري دجلة والفرات، ابتداء من الخليج الفارسي ووصولاً إلى الأناضول. وقد درس علاقة تبجيل

الربات بأوضاع النساء في سومر (زهاء ٣٠٠٠ - ١٨٠٠ قبل المسيح في جنوب العراق) مستنتجاً أن النساء في المراحل القديمة جداً كن أفضل مما هن في المراحل المتأخرة، وأنهن فقدن وضعهن بالتدريج. يكتب السير ساغس أن:

«لاشك أن وضع النساء في دولة مدينة سومر القديمة أرفع بكثير مما تلا ذلك... فثمة دلائل أن النساء في البداية الأولى لمجتمع سومر حققن وضعاً أرفع بكثير مما هو في زمن الثقافة السومرية: ويقوم استنتاجنا على حقيقة أنه في الدين السومري القديم شغلت الربات وضعاً بارزاً، ثم غبن بعد ذلك باستثناء عشتار ولم يظهرن إلا كزوجات للأرباب. كان العالم السفلي نفسه تحت حكم مفرد للربة، وتشرح الأسطورة كيف أنها صعدت منه لتتخذ لنفسها زوجاً، وقد لعبت الربات دوراً في القرار المقدس الذي يتخذ في مجمع الآلهة في الأساطير. وهناك ميل قوي جداً للاعتقاد أن تعدد الأزواج قد مورس في يوم من الأيام إذ تشير إصلاحات أوروكاجينا إلى نساء يتخذن أكثر من زوج واحد، وقد نفر بعض الباحثين من هذا الاستنتاج ومالوا إلى الاعتقاد أن الإشارة قد تكون إلى زواج الأرملة، لكن كلمات النص السومري لاتؤيدهم في هذا».

ويمكن أن أضيف أن ربة العالم السفلي لم تتخذ زوجاً قط بل كان عندها من يجرها من شعرها، ويطردها من العرش ويهددها بالموت مالم توافق على الزواج من قاتلها الرب نيرجال الذي قبل عندئذ دموعها وصار زوجها وحاكم العالم السفلي إلى جانبها.

يرجع تاريخ إصلاح أوروكاجينا إلى عام ٢٣٠٠ قبل المسيح تقريباً. وقد جاء في هذا الإصلاح «اعتادت النسوة في الأيام الخوالي أن يتخذن زوجين ولكن المرأة في هذه الأيام ترجم رجماً بالحجارة إن أقدمت على ذلك». إن تعدد الأزواج إشير إليه على أنه كان في مناطق عبادة الربة الدرامينية في الهند ومايزال قائماً حتى في هذا القرن.

عثروا على قوانين دولة اشنونا السومرية التي تعود إلى قرابة عام ٢٠٠٠ قبل المسيح في مدينة صغيرة، وبذلك أمكن الاطلاع على أوضاع أقدم. نقرأ في هذه القوانين «إذا رفض رجل زوجته بعد أن تكون قد حبلت بطفل واتخذ زوجة أخرى يطرد من المنزل ويجرد من كل مايملك فإن ناصره أحد خرج معه». وجاء في هذه القوانين نفسها أنه إذا تزوجت امراة وحبلت بطفل من رجل آخر بينما كان زوجها في الحرب، فإنها شرعاً تظل تعتبر زوجة الرجل الأول. ولاتوجد إشارة إلى عقوبة الزنا. أما الموافقة على الزواج فتؤخد من الأم والأب معاً.

لقد درست رفقة هاريس بعمق عام ١٩٦٢ وضع ونشاطات مجموعة من النساء السومريات عرفن باسم «ناديتو». لقد فحصت بدقة النصوص السومرية فوجدت أن نساء الناديتو كنّ يقمن بنشاطات عملية في المعبد، ويملكن باسمهن أطياناً حقيقية، ويقرضن المال ويقمن عموماً بنشاطات اقتصادية. كما وجدت أيضاً سجلات من تلك المرحلة لكثير من النساء الكاتبات. ومع ذلك نقرأ فصلاً للبروفسور سدني سميث في الكتاب الذي أشرف عليه هوك «الأسطورة والطقس والقرابة» جاء فيه «إن كلمة ناديتو تعني على الأرجح النساء اللواتي يرتمين أي يستسلمن للاله».

وفي الترانيم السومرية نجد أن الأنثى سبقت الرجل. وتبين ملحمة جلجامش أن الكاتب الرسمي للسماء السومرية إنما كان امرأة. وكما أشرت من قبل أنه قد تكون الكاهنات والأرجح الناديتو هن اللواتي كن يقمن بحسابات عمل المعبد، فكن أول من طور الكتابة. وقد اكتشفت الأمثلة الأولى للكتابة (منذ عام ٣٢٠٠ قبل المسيح تقريباً) في معبد الربة إينانا في أريك حيث عاش فيه كثير من النارديات، فتبين أنها حسابات المعبد عن الريع العقاري.

ويلاحظ الباحث الاكسفوردي البارز ستيفن لانغدون فيما كتب عام ١٩٣٠ أن الليجندات التي تحدثت عن ملكة السماء السومرية إينانا كتبت في مجتمع يعتمد «النظام الأمومي». وتدل على ذلك أيضاً التغيرات التي حصلت في صورة ودور الربة إينانا عندما نجدها بعد قرون أنها صارت عشتار البابلية. وفي الأسطورة السومرية تستخدم إينانا قوتها وتصب جام غضبها على ابنها/ عشيقها داموزي لرفضه إظهار الاحترام لها فطردته إلى أبالسة عالم الموتى بينما بعد ثلاثة عشر قرناً في أسطورة عشتار البابلية ظهرت نسخة جديدة للقصة ذاتها، إذ نلاحظ أن الربة اعتراها الحزن عندما مات الشاب لدى وقوع حادث بمحض المصادفة.

إن سجلات إصلاحات أوروكاجينا السومرية قرابة عام ٢٣٠٠ قبل المسيح صارت توجه توجيهاً قوياً. صارت تشير إلى أشجار ثمار وطعام أراضي المعبد التي باتت تستخدم من أجل أولئك المحتاجين أكثر من أن يستخدمها الكهان. وهذه القضية تحولت سريعاً إلى عادة في ذلك العصر. والحقيقة أن في هذه الألواح إشارات متكررة إلى أن هذه الإصلاحات هي أصداء لأشياء كانت تحدث في المراحل القديمة جداً مما يدل أن مجتمعات سومر القديمة كانت غارقة في المشاعية أكثر. والأهم من ذلك هو الكلمة التي استخدمت عنواناً لهذه الإصلاحات وهي كلمة أمارجي ترجمت ترجمة مزدوجة: الحرية والعودة إلى الأم.

عيلام ـ عراة أمام الكاهنة:

رأى الدكتور ولنر هنز عام ١٩٧٣ أن التفوق الأصلي للربة في عيلام (إلى الشرق القريب من سومر وفي تماس معها عام ٣٠٠٠ قبل المسيح) دل على «نهج أمومي» في المكرسين لديانتها. وشرح بأنها رغم تفوقها في الألف الثالث فإنها صارت فيما بعد ثانوية بالنسبة إلى زوجها خمْبان، فقد كانت وقتها تعرف باسم الزوجة العظمى. وفي سوسا في الطرف الشمالي لأقاليم عيلام اشتهر الزوج بلقب إين شوشيناك. وفي العصور الأقدم اشتهر بلقب أبي الضعفاء، وسمي في الألف الثاني باسم ملك الآلهة وفي القرن الثامن قبل الميلاد بلقب حامي آلهة السماء والأرض.

في المراحل القديمة لعيلام ظهر الآلهة المقدسون وقد قام على خدمتهم كهنوت من الإناث والذكور، فظهر الرجال عراة أمام الكاهنة العليا، كما كانت العادة في عيلام القديمة. ويشرح هنز ذلك بأنه في عيلام ـ وهذا يشبه كثيراً نساء سومر النادينو ـ «فئة خاصة بين النساء شكلتها النساء أو العذارى اللواتي كرسن حياتهن للربة العظمى». وكانت هؤلاء النساء يعملن في البيع والشراء واستغلال الأرض.

وتكشف الوثائق النظامية من عيلام والتي وصلتنا بعد عام ٢٠٠٠ قبل المسيح أن النساء كن الوارثات الوحيدات، فقد رفضت امرأة متزوجة أن تعود الوراثة إلى زوجها وجعلتها حصراً بابنتها. وجاء في لوح آخر أن ابناً وابنة اقتسما حصصاً متساوية وقد أشير إلى الابنة قبل الابن. وقد وصفت ألواح عديدة الأوضاع حيث كان الزوج يترك كل مايملك لزوجته ويؤكد أن الأولاد يرثون فقط إذا اعتنوا بأمهم وأظهروا لها الاحترام الكبير.

بابل ـ امتلاك وإدارة أطيانهن الخاصة:

في مابين النهرين، عقب ارتقاء أوضاع الأكاديين في ظل سارغون عام ٢٣٠٠ قبل المسيح، وتفوقهم تدريجياً قرابة عام ١٩٠٠ قبل المسيح، حلوا بالتدريج محل السومريين كقادة ثقافيين وسياسيين للمنطقة. لقد شكلوا أمة سموها بابليونيا وجعلوا عاصمتها بابل في وسط الفرات. وغدت اللغة الأكادية للبابليين لغة عالمية في الشرق الأدنى، لكن دين السومريين تضافر مع الثقافة البابلية واستخدمت اللغة السومرية كاستخدام اللاتينية في صلاة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في كل أرجاء العالم. وبحلول عام ١٦٠٠ قبل المسيح بسط الكاشيون سيطرتهم على بابل. ويشير الدليل اللغوي أن حكام الكاشيين كانوا غزاة شماليين، كانوا

هندوأوروبيين تسربوا تدريجياً إلى بابل وآشور.

وعلى الرغم من تخلف وضع النساء في بابل قياساً إلى أسلافهن في سومر ـ فإنه تخلف ترافق بصعود الآلهة الذكور من أمثال الإله مردوخ الذي كما جاء في الميثولوجيا، قتل الربة تيامات للحصول على مركزه وتعزيزاً لهذا المركز ـ وقد ظلت نساء بابل تحظى ببعض حقوق الاستقلال. والشاهد التالي قائم على قانون حمورابي الذي صدر تحت الحكم الكاشي، لكنه قد يكون متأثراً بالغزوات المستمرة للهندوأوروبيين، من الشمال قرابة عام ٢٠٠٠ قبل المسيح ومابعد، كتب بوسكادين عام ١٨٩٤ قائلاً إن:

«الحرية التي منحت للنساء في بابل خولتهن أن يملكن ويدرن أطيانهن الخاصة وكانت هذه هي الحالة مع كاهنات المعبد اللواتي كن يتاجرن على نحو واسع... ومن أبرز وأهم السمات المميزة لحضارة البابليين المبكرة هو الوضع الرفيع للنساء. فالأم تمثلها إشارة تدل دائماً أنها تعني «ربة المنزل» وأي خطيئة ترتكب ضد الأم كانت تفرض عليها عقوبة من قبل المجتمع. هذه هي الوقائع التي تشير إلى شعب كان في يوم ما حامل قانون السلالة الأمومية».

ووفقاً لدي فوكس الذي كتب عام ١٩٦٥ أن «الأب في القانون البابلي يمنح العروس الشابة بعض الممتلكات التي تصير لها حقاً شرعياً، وأما الزوج فيقوم باستخدام هذه الممتلكات فقط. إنها ترجع إلى المرأة إذا كانت أرملة أو طلقت من دون خطيئة اقترفتها. وقد استطاعت في بابل أن تحوز الملكية وتقوم بالأعمال المشروعة، وأن تكون طرفاً في العقود ولها حصة في ميراث زوجها».

في عصر حمورابي كانت النساء حرائر في طلب الطلاق، وتنص إحدى فقرات قانون بابل أن المرأة إذا رغبت أن تكون مسؤولة عن ديون زوجها قبل الزواج فعليها أن تكتب وثيقة له تنص أنه وافق على ذلك. هذه المسؤولية المالية في الزواج تدل أن معظم النساء كن يشاركن في الشؤون العملية والمالية (كما في مصر) وربما في عصر من العصور كن مسؤولات اقتصادياً عن الأسرة. إن سبع فقرات في قانون حمورابي تهتم بكاهنات المعبد وحقوقهن في الوراثة ومايمكن أو لا يمكن توريثه للذرية، مما يدل أن الوضع الاقتصادي لهؤلاء النساء كان قضية هامة ولكن سرعان ما تغير.

لقد بجلت عشتار باعتبارها «سمو الملكة التي تقدس قوانينها». وتقول عشتار

نفسها في أحد الألواح «عندما تنعقد المحكمة أكون حاضرة فالمرأة التي تفهم الدعوى هي أنا». وفي نمرود، شمال مابين النهرين، سجلات عن نساء سماويات كن قاضيات ومرافعات، تشهد بالوضع المحترم والحيوي للنساء الذي استمر حتى القرن الثامن عشر قبل المسيح. وهناك سجلات في مدن عديدة عن الكاهنات البابليات اللواتي عملن نبيات معبديات، فقدمن المشورة العسكرية والسياسية للملوك والقادة وكان لهن تأثر قوي في شؤون الدولة. وسجلات الكاتبات النساء موجودة في كل المراحل البابلية، مع أنه كان هناك ذكور في هذا الميدان أكثر من النساء.

ونجد في قوانين بالبليونا المتأخرة التي تنتمي إلى العصر ذاته في نهاية الألف الثاني، أنه لايمكن لامرأة متزوجة أن تنخرط في عمل ما لم يمارسه زوجها أو ابنها أو ابن حميها. فإذا عمل معها أي رجل آخر، حتى لو أثبتت أنه لم يكن يعرف أنها متزوجة فلابد من أن توجه إليه تهمة باعتباره مجرماً.

الأناضول ـ من القديم تحكمهم النساء:

شمال بابل تماماً، وفي تماس سياسي مباشر، كانت هناك منطقة اشتهرت باسم الأناضول، وتمثلها في هذه الأيام تركيا، وأحياناً اشتهرت باسم آسيا الصغرى. في مراحل الأناضول النيوليثية كانت الربة العظمى تمجد. فظهرت عبادتها في معابد كاتال حيوك قرابة عام ٦٥٠٠ قبل المسيح. وقلما كانت تعرف في الأناضول بعد مرحلة كاتال حيوك مباشرة، ولكن في وقت ما قبل عام ٢٠٠٠ قبل المسيح غزا الهندوأوروبيين الأناضول.

المناطق التي كثرت فيها مستوطنات الشعوب الشمالية كانت وسط الأناضول وجنوب وسط الأناضول. بعضهم اجتاح البلاد التي تعرف باسم حثي. فالغزاة والسكان الأصليون أيضاً صاروا يعرفون باسم الحثيين. معظم الربات اللواتي ظهرن في أدب هذه المنطقة ونصوصها المكتوبة بعد وصول الحثيين، كانت بالفعل آلهات حثية أقدم. وأهم إلاهة من آلهات الإناث ظلت قائمة هي سون ربة أرينا. وبعد الغزوات الحثية عين لها زوج كان يرمز لرب العاصفة. ومع أن إله العاصفة هذا أحرز تفوقاً في معظم المدن حيث حكمت الشعوب الشمالية، فإنه في أرينا ظل يحتل المرتبة الثانية. ولكن الملكات الحثيات ظهرن في عدة نصوص على صلة وثيقة بالربة سون الحثية. لقد كن يعملن كاهنات راقيات عندها. ومع أنه لايوجد دليل استنتاجي يمكن تأكيده، فإن وجود هذه النصوص يفرض احتمال أن يكون غزاة الشمال، حالما غزوا البلاد حربياً،

تزوجوا الكاهنات الحثيات للحصول على مزيد من الأمن والحق الشرعي في العرش في نظر السكان المغلوبين.

في القطاعات الغربية من الأناضول استمرت الأنساب الأمومية وعبادة الربة في العصور الكلاسية. كتب سترابو، قبل ولادة المسيح بقليل عن مدن الأناضول الشمالية وصولاً إلى أرمينيا حيث يعتبر الأطفال الذين يولدون من نساء غير متزوجات شرعيين ومحترمين. وهم يأخذون بكل بساطة أسماء أمهاتهم اللواتي كن، طبقاً لتقرير سترابو، أعظم نبلاً وأرستقراطية من المواطنين.

ومن المحتمل أن الكثيرين في عصر الغزوات الحثية من الشعوب الذين يعبدون الربة قد فروا إلى الغرب. إن تجديد هيكل الربة في مدينة أفسس كان هدف جهود بعثة الرسول بولس المتشددة (أعمال الرسل ١٩: ٢٧) إن هذا الهيكل الذي تدعي الليجندة والتقارير الكلاسية أن الأمازونيات أسسوه لم يغلق إغلاقاً كاملاً حتى عام ٣٨٠ بعد المسيح. وعلى طول القطاع الغربي الذي يضم مناطق عرفت باسم ليسيا وليديا وكاريا توجد سجلات في الأدب الإغريقي الكلاسي والأدب الروماني عن انتشار عبادة «أم الآلهات» مع تقارير عن الأمازونيات، النساء المحاربات. كتب ديودوروس عن أمة في هذه المنطقة «تتمتع فيها النساء بالسلطة العليا وبالحكم الملكيين». وطبقاً لهذه التقارير فإن ملكة هذه البلاد توزع مهمات غزل الصوف والواجبات البيتية الأخرى على الرجال، بينما كان القانون بيد الملكة. وزعم أن حقوق العرش تعود إلى ابنة الملكة والنساء المرموقات في سلالة العائلة. وفي أرض ليديا يقال إن هرقل اليوناني الهندوأوروبي الأسطوري احتفظت به الملكة امفالي. وعند هذه النقطة يبرز سؤال عما إذا كانت القصص الكثيرة عن نساء «الأمازون» لم تكن فعلاً هي السجلات الأخيرة اليونانية الهندوأوروبية عن نساء حاولن الدفاع عن معابد الربة القديمة فتمردن على الغزاة الشماليين الأبويين. ومع ذلك نقرأ في الموسوعة البريطانية «التفسير الممكن لقصة الأمازونيات هي أنها قصة خارجة عن المألوف في بلاد بعيدة حيث كل شيء يتم بطريقة مغايرة، وبذلك فالنساء تقوم بالحرب، عمل الرجال».

وطيلة المرحلة اليونانية الكلاسية تكررت السلالة الأمومية وأفكار النظام الأمومي في غرب الأناضول في التقارير عن الليشيين حيث بقوا أطول من غيرهم، أو برزوا أكثر من غيرهم. كتب هيرودوت «اسأل الليشي من هو وسوف يجيب بتقديم اسمه الخاص واسم أمه وهكذا على طول السلالة الأنثوية». وكتب نيكوس

الدمشقي «ويسمون أنفسهم بعد أمهاتهم وممتلكاتهم تمر في الوراثة إلى البنات بدلاً من الأبناء». وقال هيركليدس بونتيكوس عن الليشيين «منذ القديم تحكمهم النساء».

كريت ـ يتملكهم المبدأ الأنثوي:

كتب كثير من المؤلفين الكلاسيين أن الليشيين والكاريين كانوا على صلات قوية مع جزيرة كريت. وزعم بعضهم أن ليسيا كانت مرة من المرات مستعمرة لثقافة تلك الجزيرة المثيرة. وعلى كريت وجدوا تماثيل للربة في شتى المواقع النيوليثية، مع أنه لايوجد ما هو أقدم من الموجود على الجزيرة الرئيسية. ففي سهل ميسارا في كريت حيث اشتهرت الأبنية باسم تولوي وتشبه شبهاً شديداً تلك الأبنية في موقع حلف في الأرباشية (العربجية ـ المترجم) قد اكتشفت هذه الأبنية. ومن المراحل النيوليثية حتى الغزو الدورياني كانت كريت المجتمع الذي يعتقدون أنه كان مجتمع الأمومة وراثةً ونظاماً.

المدير السابق لمدرسة الأركيولوجيا البريطانية في اليونان سنكلير هود كتب في مجلده «المينوسيون، كريت في عصر البرونز»:

«يبدو واضحاً أن عادات النوع الذي وصفناه بأنه نظام أمومي (حكم الأم) استمرت في كريت. وهذه العادات برزت في المجتمعات البدائية حيث لايدرك الناس عندما يولد الطفل من هو أبوه. ولذلك يسمى الأولاد بأسماء أمهاتهم وكل الوراثة تنتقل إلى الذرية الأنثوية. هذا النوع من التقاليد البدائية ازدهر في غرب الأناضول في العصور الكلاسية. وهكذا بين الكاريين على الشاطىء الغربي للأناضول كانت الوراثة ماتزال عن طريق الأم في القرن الرابع قبل المسيح وفي ليسيا وحتى جنوب شرق كاريا كان الأطفال يسمون بأسماء أمهاتهم».

وكتب شارلز سلتمان في عام ١٩٥٢ عن هذه الثقافة المتطورة جداً في كريت، التي بداياتها تسبق عصور التوراة بقرون كثيرة. وقد رأى أنه في كريت كان النظام الأمومي أسلوباً للحياة. فناقش الحياة الجنسية للنساء والنسب الأمومي ودور «الملك» الذي يدل على وضع رفيع للنساء في أرض تظهر فيها الربة على أنها جوهر الوجود.

كتب سيلتمان «عند المتوسطيين يقوم المجتمع كقاعدة عامة على المرأة، حتى أعلى المستويات حيث النسب ينحدر دائماً من سلالة الأنثى. والرجل صار ملكاً أو رئيساً فقط لزواجه الشكلي، وابنته وليس ابنه هي التي تخلفه بحيث أن الرئاسة التالية تكون

من نصيب الشاب الذي تزوج ابنته... وحتى وصول الشماليين كان مبدأ الأنثى مسيطراً في الدين والعادات».

ويكتب غوستاف غلوتز في كتابه «الحضارة الايجية» عام ١٩٢٥ دارساً دور المرأة في كريت فيؤكد أن النساء سيطرن أساساً على شكل شعائر دينية. ويشرح ذلك بأن:

«ترأست الكاهنات الممارسات الدينية لمدة طويلة. فكانت المرأة الوسيطة الطبيعية مع المقدسات، وأعظمهن كان المرأة المؤلهة. وكثير من الأشياء تمثل الكاهنات يقمن بواجباتهن... فكانت مشاركة الرجال في العبادة، مثل مشاركة الرب مع الربة، تطوراً متأخراً. فدورهم في الاحتفالات الدينية كان دائماً دوراً تابعاً حتى عندما صار الملك الكاهن الأعلى للإرادة الملكية. وكما لو كانوا يريدون التخفيف من انتهاكاتهم وطرد الأرواح الشريرة التي يجعلهم هذا العمل تحت سلطتها... وبينما كانت العبادة الخاصة تؤدى أمام أوثان صغيرة، فقد كانت المرأة هي التي تقوم بدور الربة في العبادة العامة. والكاهنة العليا هي التي تأخذ مكانها في مقعد الربة، فتجلس عند قدم شجرة مقدسة أو تقف على قمة جبل لتتلقى العبادة والتقدمات من الكهنة المساعدين ومن المؤمنين».

ويكتب ستليانو اليكسو، مدير المعرض الأركيولوجي في ايراكليون، في الفصل الذي يعقده عن الدين الكريتي في كتابه «الحضارة المينوسية»: «فالعرش المرمري في كنوسوس يناط وفقاً لهيلغا ريوش، بالكاهنة الملكة التي تهاجمها الوحوش الخرافية المرسومة على الجدار، فتقوم بتشخيص الربة. وفي رويال فيلا يوحي العرش الذي يقام جانباً كأنه مذبح مقدس، أن هناك شخصاً حقيقياً يتقبل المتعبدين. ووفقاً لماتز فإن الملكة عندما تهبط على درجات القصر إلى المحاكم داخل المعابد فإنها تمثل التجلي الأصلي للإلاهة لجمهور المتعبدين المغتبطين».

في عام ١٩٥٨ قدمت جاكيتا هوكس بعض الملاحظات عن وضع النساء في كريت فقالت إن المرء وإن كان يفكر بإمكانية أن الربة قد تكون حلماً ذكورياً «لقد اعتاد الكريتيون والكريتيات في كل مكان على رؤية ربة رائعة تغدو ملكة على رب ذكر صغير متضرع، ولابد لهذا المفهوم من أن يعبر عن موقف في المجتمع البشري يكون مقبولاً منه». وتابعت استنتاجها أن الثقة الذاتية للنساء ومكانهن المضمون في المجتمع ربما قدم الدليل بخصائص أخرى. «فهذا تأكيد جريء طبيعي عن الحياة الجنسية التي تجري عبر كل التعبيرات الدينية وكانت واضحة في اللباس المثير لكلا

الجنسين وسهولة اختلاطهما ـ إنها روح تفهم من خلال نقيضها: الحجاب الكامل وعزلة النساء المسلمات تحت إيمان يرفضهن روحياً».

بمعاينة المنتوجات واللوحات الجدارية في كنوسوس في المعرض الأركيولوجي في ايراكليون ومعارض كريت الأخرى لم يعد ثمة شك في أن الإلاهة الأنثى كانت لآلاف الأعوام الكائن المقدس الأساسي في كريت، مع نساء يخدمنها كإكليروس. لذلك من المفيد متابعة تجليات الثقافة الكريتية كما فيما بعد في اليونان القديمة، قرابة ألف عام قبل العصر الكلاسي (قرابة ٥٠٠ ـ ٢٠٠ قبل المسيح) الذي نعرفه أكثر.

اليونان ـ هجوم على العشائر الأمومية:

إن الروابط التي أقامها المستوطنون في كريت و/أو اليونان، البلاد الأم، هي التي تعزى لشعب عرف باسم الميكينيين ـ وقد سماهم الأركيولوجيون هكذا بسبب موقع من مواقع البلاد الرئيسية ـ ميكينا. هناك دلائل على أصل الشعب الذي سكن هذه المواقع قدمها باحثون مع احتمالات مثيرة للاهتمام. فمعظمهم يؤمنون أن الميكينيين كانوا مجموعة من الهندوأوروبيين، ربما من شعب الآخيين نفسه، أو ربما من هجرة أبكر لقبائل نزحت من الشمال. باحثون آخرون يؤكدون أنهم كانوا مستوطنين من قبل في كريت وأنهم قاموا بانقلاب على الحكومة السابقة قبل عام ١٤٠٠ قبل المسيح بقليل. بعضهم يربطهم بمجموعة عرفت باسم شعوب البحر، بينما مايزال آخرون يرون أنهم فلسطينيون أو أن الفلسطينيين كانوا فرعاً من الميكينيين. بل هناك اعتقاد أن الميكينيين مرتبطون بالهكسوس (الملوك الرعاة) الذين استخدموا العجلات التي تجرها الخيول واخضعوا مصر لحكمهم عدة قرون. وطرد الهكسوس من مصر حصل في الوقت نفسه الذي ظهر فيه الميكينيون أول مرة.

مهما كانت نشأتهم الأولى، فإن السبب الذي يجعل الميكينيين هامين لنا هنا هو أن ثقافتهم كما نعرفها جيداً كانت في جزء منها كريتية، وفي جزئها الآخر يونانية. ويعتقد معظم الباحثين أنهم نقلوا الثقافة الكريتية من كريت إلى اليونان. إن ألواح الميكينيين (ب) التي هي قوائم جرد، عثر عليها في قصر كنوسوس وكلها مؤرخة بالسنة ذاتها، قرابة ١٤٠٠ قبل المسيح، وكتبت بلغة يعتقد الباحثون أنها تختلف عن اللغة المستخدمة سابقاً في كريت. وبعد سنوات كثيرة من النقاش وافق معظم الباحثين أن اللغة المستخدمة في الألواح (كتبت بكثير من الرموز والإشارات استخدمت في لغة أقدم لم تحل ألغازها بعد، وإن كان غوردون قدم دليلاً كبيراً أن هذه اللغة كانت وثيقة

الصلة باللغة الكنعانية التي استخدمت في أوغاريت) هي شكل مبكر للغة اليونانية. فإذا كان الميكينيون أو قادتهم هندوأوروبيين في أصلهم كما تشير الألواح، فإنهم حالما استوطنوا في كريت تبنوا كثيراً من أمور الجزيرة وأسلوب التقنيات الحرفية وطراز اللباس وطريقة الكتابة ودين سكان الجزيرة السابق.

ويخبرنا كوترل أن «الفن الميكيني استمر يعكس الثقافة المينوسية (نسبة إلى الملك مينوس الذي عاش في الفترة الميكينية نفسها ـ المترجم) لشعوب المتوسط... الذين تبنوا نظامهم في الكتابة». ويكتب هتشيسون من جامعة كامبردج أنه «في منتصف الألف الثاني على الأرجح كان الإغريق قد استقروا في كريت، ولكن بأعداد قليلة نسبياً، وقد تبنى هؤلاء الإغريق الميكينيون كثيراً من العبادات الكريتية والعادات الدينية. وحتى في بلادهم الرئيسية نجد بقايا من الدين المينوسي أو على الأقل من الدين السابق على الهيلينية...».

في كاتالوج المجموعات القبل تاريخية للمتحف الأركيولوجي القومي في أثينا يشير القيّمون «في الدين المكيني الذي حمل كثيراً من السمات الكريتية الواضحة، نلاحظ قبل كل شيء ظهور ربة الطبيعة الكريتية». في هذا المتحف الضخم مجموعة من المنتوجات التي اكتشفتها حفريات المستوطنات الميكينية في بلاد اليونان الأم، وهي مجموعة تتوجها صناعة معقدة لخواتم ختمية ذهبية، وأختام رسمت عليها مشاهد للربة وكاهناتها ـ مشاهد تكاد تكون واحدة مع تلك التي أنتجتها كريت المينوسية.

بمناقشة مجموعة الألواح (ب) التي اشتهرت بعض أسماء أمهاتها بعدئذ في اليونان الكلاسية بإشارات مختصرة، يشرح كوترل قائلاً «... هناك أيضاً في بيلوس (في البلاد الأم) وفي كنيوس (في كريت) إشارة متكررة إلى بونتيا ـ السيدة أو سيدتنا وهذه المخطوطات الأخيرة تثبت ما افترضه الأركيولوجيون منذ أمد بعيد من الأدلة على الأختام المكتشفة في البلاد الأم ـ إن الميكينيين عبدوا أيضاً الربة الأم المينوسية».

استوطن الميكينيون كريت وحكموها في قصر كنوسوس قبل الحريق الضخم بقليل، والأرجح أن يكون بسبب غزوة أو هزة أرضية. أسس هذا الشعب نفسه كثيراً من المدن قبل اليونانيين في البلاد الأم ـ وقد أحضروا معهم عبادة الربة الكريتية. ويمتد العصر الميكيني عادة بين ١٤٥٠ و١١٠٠ قبل المسيح. فتاريخ بداياته تسبق مباشرة الفترة التي ظهر فيها موسى. وقد استمر الازدهار قروناً قبل يونان هومر وفي هذا العصر وقعت أحداث كتب عنها هومر أو بعد وقوعها بقليل. إن البحث عن هيلين هو

البحث عن الحقوق الشرعية لعرش أسبارطة. ومع أن اليونان الكلاسية تقدم لنا على أنها الأساس الحقيقي لثقافتنا وحضارتنا الغربية فمن المهم التأكيد أن هذا حصل بعد خمسة وعشرين قرناً من اختراع الكتابة، وقد صيغت الحضارة اليونانية نفسها نتيجة التأثير العميق لثقافات الشرق الأدنى التي سبقتها بآلاف السنين.

وقد غزت الشعوب الشمالية اليونانية مرات عديدة. كتب روبرت غريفز في مقدمته لكتابه «الأساطير اليونانية» عام ١٩٥٥ «أضعفت الغزوات الآخية في القرن الثالث عشر قبل المسيح التقليد الأمومي إلى حد بعيد... وعندما وصل الدوريون، قرابة نهاية الألف الثاني كانت الوراثة الأبوية هي القاعدة». ومع هذا الشعب الشمالي دخلت العبادة الهندوأوروبية لـ «دايوس بيتار» التي تعني حرفياً الأب الإله، وبالتدريج عرف في اليونان باسم زيوس وفي روما باسم جوبتر. هذه الفترة الانتقالية للتغير من عبادة الربة إلى عبادة الإله الذكر، التغير الذي جاء مع الغزوات الدوريانية، كان كتاب بيترورت «بقايا من العالم قبل الأولمبي» الذي كتبه عام ١٩٦٦.

لقد عزم بيترورث أن يفعل مع اليونان ماكانت فعلته موراي مع مصر. وبتتبعه أنساب البيوتات الملكية بعناية، بين أن الكثير من أعظم المدن السابقة على الإغريق، التي كانت بالأساس أمماً صغيرة، كانت من حيث الأصل مدناً أمومية. وقد استنتج أن أرغوس وطيبة وتيرنس وأثينا، وكذلك المدن الأخرى، اتبعت في زمن ما العادات الأمومية في السلالة. ويشرح بأن هذا إنما نتيجة عبادة الربة وأصولها الكريتية، مبيناً أن كريت نفسها كانت أمومية والأرجح أن تكون ذات نظام أمومي.

لقد اهتم أساساً بالثورة الأبوية، في الزمن الذي حققت فيه العشائر الأبوية انتصاراً عنيفاً لفرض عاداتها على كل المحيطين والجوار:

«لم تكن الأمومية شاملة لكل العالم الإغريقي والإيجي، إلا أنها انتشرت انتشاراً واسعاً... وقد كان مؤثراً تأثيراً كبيراً نظام استخلاف القرابة ووراثة الملكية في تلك الأيام. إن أغلبية العشائر كانت عاداتها أمومية وأعظم ثورة في تاريخ اليونان القديم تلك العادة التي تغيرت من وراثة الأم إلى وراثة الأب وتدمير الولاء للعشيرة».

من عام ٣٠٠٠ قبل المسيح ومابعد صورت الكاهنات في المنحوتات وظهرت في اللوحات الجدارية وفي المنتوجات الفنية الأخرى لكريت فتشير بقوة إلى أن النساء هن اللواتي سيطرن على العبادة. وحكمت كريت فيما بعد من قبل الميكينيين الذين تبنوا عندئذ ديانتهن وكثيراً من مظاهر ثقافتهن. وبما أن منتوجات الميكينيين الفنية الدينية

رسمت أكليروس الربة من نساء فمن المحتمل جداً أن النساء في المجتمعات الميكينية في اليونان حصلن على هذا الامتياز. وقد أكد بيترورث أن النساء، وبالأخص نساء البيوتات الحاكمة، هن اللواتي كن حاميات الدين. ويفصل في الشرح فيقول إ ،:

«الهجوم على العشائر الأمومية دمرت قوة العالم العشائري نفسه، ومعه دمرت دينه... فتاريخ تلك العصور تكتنفه كثيراً صراعات الأبوة والأمومة كما تحطمت الأسر الدينية القديمة، فكنست وأعيد بناؤها... وقد انتهى العالم الأمومي بسبب مذابح مجرمة في قلب ذلك العالم، في البونتياماتير (الربة العظمى) ذاتها».

لا أستطيع إلا أن أتذكر الليجندة الإغريقية عن الربة المشهورة باسم هيرا، التي يبدو أن عبادتها جاءت من العصور الميكينية وثورتها الفاشلة ضد زوجها الجديد زيوس، وهي ليجندة مجازية تذكرنا بأولئك اللواتي ناضلن من أجل سيادة الربة ـ وفشلن. ومع ذلك طبقاً لهوكس فإن كثيراً من المواقف عن الوضع المتدني للنساء في اليونان الكلاسي بولغ فيها بسبب «انحياز دراسات القرن التاسع عشر». وترى أنه حتى في مرحلة اليونان الكلاسية احتفظت النساء ببعض حرية أسلافهن الكريتيات:

«وكما في كريت فقد شاركت النساء في سلطة الربة نفسياً واجتماعياً، فكانت الكاهنات ذات مكانة رفيعة، وكهنوتياً كانت تتشكل مجموعات من النساء حول المعابد والأماكن المقدسة. فكانت هناك مثلاً مجموعة خدمت في معبد أرتيميس (ديانا) الشهير في افسس. والحقيقة أنه في هذه المدينة بل في أيونيا عامة تتمتع النساء والفتيات بكثير من الحرية. وبينما حققن النساء تأثيراً وحزْن مسؤولية بالخدمة في المعابد واحتفالات الدولة الكبرى بالربة، كان هناك أيضاً حرية ممنوحة للعبادات القديمة، فالزعيمات والفتيات المحترمات في مجموعات كبيرة يمضين الليالي بكاملها على الهضاب المكشوفة في الرقص الذي يثير النشوة، وفي السكر، وربما شرب الكحول ولكن بطريقة صوفية. وقد اختفى الأزواج ولكن يقال إنهم لم يرغبوا في التدخل في الشؤون الدينية».

في عصر أسبارطة الكلاسي، حيث تقديس الربة أرتيميس استمر قوياً، كانت النساء يتمتعن بحرية كبيرة واستقلال أوسع. طبقاً لما يقوله يوربيدس وبلوتارك فإن النساء الأسبارطيات الشابات لايقبعن في البيوت بل في الجمنسيات (معاهد رياضية للتدريب ـ المترجم) حيث يخلعن ثيابهن الضيقة ويتصارعن عاريات مع أترابهن الذكور. ويبدو أن نساء أسبارطة كن يتمتعن بحرية جنسية كاملة، ومع أن الزواج

الأحادي كان القاعدة الرسمية للزواج، فقد وردت إشارات في عدة آثار كلاسية تبين أن هذا الزواج لم يكن ينظر إليه نظرة جادة. وكتب بلوتارك أن خيانة النساء في أسبارطة كانت شيئاً مريعاً، بينما يخبرنا نيكولاس الدمشقي، ربما نتيجة بعض التجارب الشخصية، أن امرأة أسبارطية أعلنت أنها ترغب في أن تحبل من أجمل رجل تجده سواء كان وطنياً أو كان أجنبياً.

كنعان ـ الوضع الاجتماعي والشرعي لزوجة اسرائيلية...

لقد أبقيت دراسة النساء في أمتين عبريتين: يهوذا وإسرائيل إلى الأخير، لأننا نعتبرهما جزءاً من مجتمع أبوي منعزل عبد الإله المذكر وحده. وعند هذه النقطة من الواضح أننا نقارن وضع النساء العبريات ليس بمعاصراتهن في بابل ومصر فقط وهما ثقافتان تداخلتا في ثقافتهم، وإنما أيضاً بنساء أخريات في كنعان، باعتبارها المستقر الأخير للعبريين.

في مدينة أوغاريت في شمال كنعان في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، التي لم تكن مجتمعاً عبرياً، توجد سجلات عن امرأة ترجم لقبها على النحو التالي «السيدة الهامة في البيت الملكي». وكانت تعرف بأدات (تعني السيدة مقابل أدون الذي يعني السيد). والربة في هذه المنطقة عرفت باسم أنات ونرجح أن تكون هي الكلمة ذاتها. نصوص أوغاريت (اليوم اسمها رأس شمرا في سوريا) حيث اكتشفت ليجندات عن أنات دلت أن هذه «السيدة الهامة» لعبت دوراً فعالاً في الشؤون السياسية.

كتب كلود شيفر نائب مدير الحفرية الأولى في أوغاريت عام ١٩٣٩ «يبدو أن الوضع الاجتماعي للنساء وبالأخص أم الأسرة هو وضع رفيع في أوغاريت». وتكشف الوثائق الأوغاريتية لهذه الحقبة بالذات أن المرأة في حالة الطلاق أو الترمل تحتفظ بملكيتها. وشبيه بذلك السجلات الرسمية في عيلام، فتنص أن الأزواج يتركون ممتلكاتهم لزوجاتهم لا لأبنائهم، ويتلقى الأبناء وصية بألا يختصموا وأن يحترموا ويطيعوا أمهم. وكما سوف أشرح في الفصلين التاليين، فقد كان هناك في أوغاريت لقاء غريب بين الثقافات الجنوبية والشمالية، انعكست في أساطيرهم الدينية. وهناك ظواهر لكثير من الحياة الهندوأوروبية في تلك المدينة في القرن الرابع عشر قبل المسيح رصدت في الوثائق، ومع ذلك لا يبدو أن وضع النساء قد تأثر كثيراً بهذه الظواهر.

بين عمونيي كنعان وهو شعب احتدم الصراع بينه وبين العبريين باستمرار، كانت النساء تعمل في الدوائر الرسمية. وفي عام ١٩٦١ كتب الأركيولوجي لاندرز عن

«الوضع الرفيع للنساء لكونه متفقاً مع الممارسة البدوية». ويقول أن الملكات، كملكة سبأمثلاً (قرابة عام ٩٥٠ قبل الميلاد) قادت في ذلك الزمن الولايات العربية أو القبائل العربية وهذا ماحصل أيضاً في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد.

بالمقابلة مع وضع النساء الاقتصادي والشرعي والاجتماعي في كل الجوار، يعكس وضع النساء الاسرائيليات كل النتائج المترتبة على القبول الكلي للاله الذكر يهوه، والمجتمع الأبوي المرافق له. وطبقاً للتوراة المقدسة، وإن لم نعثر على دليل أركيولوجي واحد يؤيده، فإن الشرائع الاسرائيلية ترجع بتاريخها إلى موسى (قرابة ١٣٠٠ - ١٢٥٠ قبل الميلاد). واستمرت هذه الشرائع قانوناً للعبريين في كنعان حتى سقوط المملكة الشمالية المعروفة باسم إسرائيل في عام ٧٢٢ قبل المسيح وسقوط المملكة الجنوبية المشهورة باسم يهوذا (أو اليهودية ـ المترجم) عام ٥٨٦ قبل المسيح. هذه القوانين ذاتها ماتزال تظهر في العهد القديم من الكتاب المقدس اليهودي/ المسيحي حتى هذه الأيام.

من خلال دراسة مكثفة للكتاب المقدس وضع الأركيولوجي والكاهن رولاند دي فوكس هذه الملاحظات عن النساء العبريات وقد ظهرت دراسته عام ١٩٦٥ ونشرت بعنوان «اسرائيل القديمة»:

«إن الوضع الاجتماعي والشرعي لزوجة إسرائيلية كان متخلفاً جداً عن الوضع الذي تشغله زوجة في الأقطار المجاورة الكبرى... فكل النصوص تبين أن الإسرائيليين يرغبون في الأبناء لاستمرارية ذرية الأسرة والثروة، وللحفاظ على ميراث الأجداد... فبإمكان رجل أن يطلق زوجته.. ولكن من جهة أخرى لاتستطيع النساء أن يطلبن الطلاق... الزوجة تنادي زوجها ببعل أو سيد وتسميه أدون أو رب، فتخاطبه في الحقيقة كما يخاطب العبد سيده أو كما يخاطب التابع مليكه. والوصايا العشر تجعل زوجة الرجل من ضمن ممتلكاته... وطيلة حياتها تبقى ضئيلة. والزوجة لاترث شيئاً من زوجها، ولا البنات من آبائهن، إلا عندما لايوجد وريث ذكر. وإذا نذرت فتاة أو امرأة متزوجة نذراً فإنه حتى يكون مشروعاً يحتاج إلى موافقة الأب أو الزوج، فإن لم يكن هناك موافقة فالنذر ملغى وباطل. وللرجل حق بيع ابنته والنساء لا إرث لهن».

وعلى عكس الثقافات الأخرى للشرق الأدنى، يؤكد دي فوكس أنه لم يكن يسمح بقيام كاهنات في العقيدة الإسرائيلية. ويشرح ذلك:

«إن الإفتراض أن هناك نساء بين كهنة المعبد يصطدم بحقيقة لغوية هامة: توجد

كاهنات في آشور، وكاهنات رفيعات المستوى في الطبقة العليا في فينيقيا حيث يستدل على ذلك من كلمة كوهن (كاهن باللغة العربية) المؤنثة، وفي المخطوطات المينوسية هناك كلمة أنثوية لو (ومعناها كاهنة ـ المترجم) وأما عند العبريين فلا توجد كلمة تقابل كلمة كوهن ولا كلمة لو. فلا توجد نساء إطلاقاً بين الأكليروس الإسرائيلي».

ويمكن أن أضيف أنه طبقاً للشريعة العبرية بأن المرأة لاحق لها بالمال أو الملكية في الطلاق، وبما أن نذرها غير قانوني فبالطبع لاتستطيع أن تشغل عملاً. وربما أشد القوانين صدمة في كل الشريعة التي أعلنت أن المرأة يجب أن ترجم أو تحرق حتى الموت إذا فقدت عذريتها قبل الزواج، وهذا بند لم يظهر إطلاقاً في أي قانون من قوانين الشرق الأدنى، وعلاوة على كونه جريمة اغتصاب فإن المرأة تجبر على الزواج من المغتصب فإذا كانت من قبل مخطوبة أو متزوجة فإنها ترجم حتى الموت لأنها اغتصبت.

ربما كان أوضح شرح لوضع النساء العبريات قديماً كشفه الأركيولوجي يوسيشكين عام ١٩٧٠. وصف ضريحاً قديماً اكتشف حديثاً في إسرائيل على هذا النحو: «ويبدو أن جسداً، وهو للزوج، قد وضع أعلى من الجسد الآخر وهو للزوجة، وهكذا كان وضع المرأة المتدني يتجلى أيضاً بعد الموت».

وعلى الرغم من الوضع المتدني الذي نصت عليه الشرائع والعادات العبرية، هناك حادثتان تفصحان عن إمكان ازدهار دين الربة القديمة حتى داخل البيت الحاكم في إسرائيل. وارتباطهما بالمعتقدات القديمة يوحي أن الملكتين قد تكونان استولتا على السلطة عن طريق العادات الأمومية التي عادت متسللة إلى إسرائيل مع بقية الأنماط «الوثنية». والحادثتان بطلتهما امرأتان تصنفان باعتبارهما ملكتين عبريتين، الواحدة في إسرائيل والأخرى في يهوذا (أو اليهودية كما أشرنا ـ المترجم).

الأولى تتعلق بامرأة عرفت باسم الملكة معكة، ويرجح أن تكون سليلة أميرة آرامية تحمل الاسم ذاته كانت بين حريم الملك العبري داود. كانت معكة الثانية مصنفة في التوراة باعتبارها ملكة رحبعام ملك إسرائيل من ٩٢٢ إلى ٩١٥ قبل المسيح تقريباً. أمه لم تكن عبرية وإنما أميرة عمونية. وعرف عن الملك هذا أنه أقام عجولاً ذهبية «وثنية». وتفترض موراي أن هذه الملكة نفسها كانت فيما بعد زوجة الملك التالي ابيام الذي جاء أنه ابن معكة ورحبعام. وافتراضها يقوم على حقيقة أن بعض نسخ التوراة تصنف

معكة على أنها أم ابيام ابن اسا. ونسخ أخرى تصنف معكة على أنها جدته ولكنها تضع اسمها مكان اسم الأم دون الإشارة من كانت أمه وهذا نمط يختلف كل الاختلاف عن المواصفات الأخرى للأبناء العبريين الملكيين. كتبت موراي «التفسير الوحيد أن ابيام واسا لهما الأم ذاتها، عن طريق زواج ابيام بأمه».

واسا هي التي أدخلت كثيراً من الاصلاحات العبرية فقمعت ماكان سائداً من الممارسات «الوثنية» وأخيراً خلعت معكة عن عرشها، في ضوء هذه التناقضات الغريبة في سلالة اسا، فإن السبب الذي تقدمه التوراة لخلعها هو الأهم. في سفر الملوك الأول ١٥: ٢ ـ ١٤ نقرأ أن معكة صنعت تمثالاً لعشيرة، أي تمثال الربة عشيرة. ونظراً لتكرار الدليل على «الوثنية» خلال هذه المرحلة، فإن إسرائيل على مايبدو قد أخذت بالعادات الدينية القديمة، فوافقت في ذلك العصر على الدين الأنثوي ووراثة العرش عن طريق القرابة الأمومية. فإن كان الأمر على هذا النحو فإن معكة تكون وارثة ملكية واحتلت هذا المركز إلى أن عادت إسا، وربما تحت تأثير الكهنة العبريين، مرة ثانية إلى توطيد دين يهوه.

ويرجع تاريخ الحادثة الثانية إلى قرابة عام ٨٤٢ قبل المسيح عندما اعتلت عثليا بنت الملكة ايزابل، عرش مملكة يهوذا باعتباره حقاً لها. طبقاً للشريعة العبرية لم يكن مسموحاً للنساء أن يحكمن منفردات بالعرش. ومع ذلك فقد تطلب الأمر ثورة عنيفة لخلعها. إيزابل نفسها كانت تعتنق الدين القديم. وأبوا ايزابل، جدا عثليا، كانا كاهناً وكاهنة من مستوى رفيع لعشتروت وبعل في مدينة صيدا الكنعانية وقد حكما هناك كملك وملكة. إن مقتل ايزابل التي حكمت جنباً إلى جنب مع آحاب كملكة في مملكة اسرائيل الشمالية كان حقاً اغتيالاً سياسياً لدين الربة. ويبدو هذا واضحاً في الأحداث التي أعقبت مقتلها حسب رواية التوراة في سفري الملوك الأول والملوك الثاني. وهكذا من الضروري أن نلاحظ أن ابنة ايزابل هي التي اعتلت العرش الملكي لمملكة يهوذا، وهي المرأة الوحيدة التي حكمت أمة العبريين وحدها. والأكثر أهمية هي أن عثليا حالما ضمنت حقوقها في اعتلاء العرش حكمت زهاء ست سنوات، فأعادت توطيد الديانة الوثنية القديمة في كل الأمة، فزادت الكهنة العبريين غماً على غمّ.

خلاصة:

مع أن السبب والنتيجة بين السلالة الأمومية والوضع الأنثوي وتقديس الربة يعانيان غالباً من الاضطراب، فإننا لانستطيع أن نتحاشى حقيقة أن الأدلة المتكررة التي تؤيد أن

دين الربة ونظام القرابة الأمومي كانا متداخلين في كثير من أصقاع الشرق الأدنى. ومع أن الكثير من مظاهر نظام الأمومة ترتبط بالملوكية فهناك مايكفي للقول إن العادات الأمومية كانت تمارس في مناطق كثيرة من قبل عموم السكان أيضاً. وفي دراستنا لانتقال الناس من دين الربة إلى عبادة الإله الذكر ككائن فائق والنتائج المترتبة على وضع النساء نجد أنماطاً معينة تأخذ طريقها إلى الظهور.

منذ بداية الألف الثاني كان الآشوريون في تماس سياسي وتجاري وثيق مع الحثيين الهندوأوروبيين. فالأمراء الحوريون الهندوأوروبيون ظهروا في شتى مدن سوريا الشمالية منذ ذلك الزمن ومابعد. وبحلول عام ١٦٠٠ قبل المسيح كانت بابل قد خضعت للكاشيين الهندوأوروبيين. وبحلول عام ١٥٠٠ قبل المسيح كانت آشور قد وقعت نهائياً تحت سيطرة الحوريين الذين شكلوا مملكة ميتانيا (كثير من المصادر تسميها ميتاني ـ المترجم).

ومع هذه الغزوات دخلت أسطورة مردوخ الذي قيل إنه قتل الربة ليحتل المركز الأعلى في بابل. وفي آشور نسمع الأسطورة ذاتها، كل ما في الأمر أن اسم آشور حل محل مردوخ. وخلال الألف الثاني تسلل الهندوأوروبيون إلى قلب بلاد كنعان ومابين النهرين، وكما سوف أوضح في الفصلين التاليين، قد يكونون قد لعبوا دوراً هاماً في تشكيل الدين الإسرائيلي والشرائع اليهودية.

من الأفضل في هذه النقطة أن نلخص التغيرات في القوانين باعتبارها تؤثر في شتى مظاهر حياة النساء. ففي أشنونا (في سومر) قرابة عام ٢٠٠٠ قبل المسيح كان الرجل الذي يغتصب امرأة يحكم بالإعدام. وفي بابل القديمة أيام حمورابي، قبل غزوات الهندوأوروبيين، مع أن كثيراً من الشماليين كانوا في بابليونيا حتى في ذلك العصر فإن العقوبة ذاتها كانت تنفذ. وفي قوانين آشور التي يرجع تاريخها بين ١٤٥٠ و١٢٥٠ قبل المسيح (عندما كانت آشور تحت سيادة الهندوأوروبيين) نقرأ أنه إذا اغتصب رجل امرأة فإن زوج تلك المرأة أو أباها يقوم باغتصاب زوجة المغتصب أو ابنته و/أو يزوج ابنته للمغتصب. والجزء الأخير من القانون كان قانوناً للعبريين الذين أضافوا أن المرأة المغتصبة يجب أن تعدم إن كانت متزوجة أو أرملة. ويبدو أن القوانين الآشورية هي أولى القوانين التي أشارت إلى الإجهاض فجعلت عقوبته الإعدام.

وتشير إصلاحات أوروكاجينا (قرابة ٢٣٠٠ قبل المسيح) إلى حقيقة أن النساء اعتدن أن يتخذن زوجين، ومع ذلك ففي زمن حكمه (حكم أوروكاجينا ـ المترجم) لم

يعد يسمح بذلك. وفي قوانين أشنونا كل رجل يتخذ زوجة ثانية، بعد أن تلد له زوجته الأولى طفلاً، يطرد من البيت من دون أي ممتلكات. وفي أشنونا إذا ولدت امرأة طفلاً من رجل آخر أثناء غياب زوجها في الحرب، فإن زوجها يعيدها إليه كزوجة. ولاتوجد إشارة إلى عقوبة الزنى. وفي قوانين حمورابي إذا ارتبطت امرأة جنسياً برجل آخر فتؤخذ لقسم اليمين في المعبد ثم تعود إلى بيتها وزوجها. والقوانين الآشورية والعبرية منحت الزوج حق قتل كل من الزوجة والعشيق.

من الصعب نوعاً ما أن نعقد مقارنة بين شتى الأمكنة والمراحل لأن القوانين قد اشتملت على تشريعات لأحداث خاصة ولأوضاع مختلفة جداً. إن التغيرات الكبرى في القوانين التي تخص النساء أصابت حقهن في العمل في النشاطات الاقتصادية ومايورثن وما لايورثن، ومايسمح لهن بتوريث أولادهن، والموقف من الاغتصاب والإجهاض والخيانة من قبل الزوج أو الزوجة وعقوبة الموت ـ عند العبريين فقط ـ للنساء إذا فقدن عذريتهن قبل الزواج. وبما أن هذه القوانين تتأثر أساساً بالنشاطات الاقتصادية والجنسية للنساء فإن الأرجح أنها استهدفت عادات النسب الأمومي. والحقيقة الناصعة أن كثيراً من القوانين التي تهتم بالنساء تدل على أن كلاً من الوضع الاقتصادي والجنسي للنساء أخذ يتغير باستمرار منذ زمن الغزوات الشمالية الأولى (قرابة عام ٢٣٠٠ قبل المسيح) حتى قوانين العبريين المرجح أنها كتبت بين ١٢٥٠ و١٠٠٠ قبل المسيح ـ مع أن النصوص العبرية الأساسية كما أشرت لم تكتشف بعد.

وفي البحث عن أي مدى تأثرت عادات القرابة الأنثوية وتبجيل الإلاهة الأنثى بوضع النساء، فقد يكون من الأفضل أن نحكم على ذلك من ملاحظاتنا عن النساء في القبائل العبرية التي تبنت عبادة الإله الذكر الجديد وحده والقوانين الناجمة المسيطرة على وضعهن وحقوقهن في المجتمع الذي عشن فيه.

كما لابد أيضاً من أن نأخذ بعين الاعتبار إمكانية أنه حتى من الناحية الشخصية نجد أنه كما يصلي العبريون من أجل الأبناء ويبتهجون عندما يولد الوارثون الذكور ليتابعوا ذرية الأسرة (ولايبعد ذلك عن موقف الكثير من الأسر حتى هذه الأيام) فإن ولادة البنات في المجتمعات الأمومية كانت تعتبر نعمة خاصة. والأولاد الإناث يدللون للأسباب ذاتها. فطبقاً للقيّمين على المتحف الأركيولوجي في جامعة كامبردج في انكلترا أنه حتى اليوم «في مجتمع أسانتي الأمومي في إفريقيا يولون قيمة خاصة للأولاد الإناث لقوتهن على نقل الدم (موغيا) ولاستمرارية الذرية الأمومية (أبوسوا). وفي العصور القديمة عبدت سن ربة أرينا في الأناضول مع ابنيها وجدتها. والخاسيس

في أسام عبدوا ربتهم مع بناتها الثلاث وابنها المشاكس. أما مايحدثه هذا من نتائج عاطفية على تقدير الفتاة وتطورها في ذلك الزمن فلا نستطيع معرفتها إلا على الظن.

إن وعي علاقة تقديس الربة بالميراث الأمومي للاسم والملكية والحقوق والعرش ضروري لفهم اضطهاد ديانة الربة. وكما سوف أوضح فإن هناك سبباً كامناً وراء الامتعاض من عبادة الربة (وكل ماتمثله) الذي أبداه الغزاة الأبويون الذين قدموا من الشمال.

بحكم الحضور المستمر للربة كإلاهة فائقة في المجتمعات النيوليثية والنحاسية في الشرقين الأدنى والأوسط فإن عبادة الربة، والأرجح أن ترافقها العادات الأمومية، تبدو أنها وجدت من دون أن تواجه تحدياً لآلاف السنين. ولدى ظهور الشماليين الغزاة، الذين شكلوا كل أركان النظام الأبوي ووطدوا العادات الأبوية وعبادة الإله الذكر الفائق، وأحياناً قبل وصولهم إلى المناطق التي تعبد الربة، أخذت تحدث تغيرات كبيرة في المعتقدات الدينية والعادات الاجتماعية. من هؤلاء الشماليون؟وكيف استطاعوا أن يقمعوا ويدمروا بالتدريج دين الربة القديمة الذي استمر لآلاف السنين؟

الفصل الرابع

غزاة الشمال

السؤال لماذا ومتى بدأت القبائل الشمالية تختار رباً ذكراً هو سؤال غير مجد. ففي تطورهم المبكر لم يتركوا لا ألواحاً ولا معابد. فقط عقب وصولهم إلى مجتمعات عبدة الربة في الشرقين الأدنى والأوسط، التي كانت في ذلك الوقت قد تطورت إلى مراكز مدنية نشيطة، دخلوا ضمن نطاق اهتمامنا.

فقدان أي دليل على مراكزهم الثقافية الأولى في ديارهم الشمالية في روسيا وإقليم القوقاز قبل غزواتهم يفرض علينا أنه حتى وصولهم إلى الشرقين الأدنى والأوسط، كانوا على الأرجح مجموعات بدوية تعمل في الصيد. البري والبحري، ويحتمل أن الرعاة باشروا ممارسة الزراعة. يشار إلى تلك الشعوب الشمالية في شتى السياقات على أنها هندوأوروبية أو هندوإيرانية أو هندوآرية أو آرية هكذا بكل بساطة. وجودهم، حالما ظهروا في المراحل التاريخية، يصورهم محاربين عدوانيين يمتطون عربات حربية بارتفاع الصدر تجرها الخيول، وظهورهم المغامر المبكر في أزمنة ماقبل التاريخ كان أنهم بحارة ماهرون مخروا أنهار وشواطيء أوروبا والشرق الأدنى.

في مناقشة نشأتهم تكتب هوكس عن جماعات ميزوليثية ونيوليثية عرفت بـ «ثقافات بلطة المعركة» فتخبرنا أن:

«الباحثين لم يختلفوا حول موضوع من الموضوعات مثل اختلافهم كل هذا الاختلاف الكامل أو الفقدان الكبير للموضوعية، في موضوع أصل هذه الثقافات. وسبب هذا الاندفاع يكمن في شيء واحد اتفق الباحثون عليه ـ وهو أن ثقافات بلطة المعركة تمثل جذور الشعوب المتحدثة بالهندوأوروبية... وما يمكن أن يقال بشيء من التأكيد هو أن شعب بلطة المعركة له أصول عرقية كبيرة، ووراثة اجتماعية وثقافية عن صائدي السمك وثقافات الغابات من أمثال الماغليموسيين والكونديين... وإن لم يكونوا هكذا دائماً وفي كل مكان، فهذه السمة ظهرت في وقتها لتكون سمة زراعية أبوية حربية توسعية سائدة».

بعض الباحثين يربطون الشعوب المتحدثة بالهندوأوروبية بثقافة شعب الكورغان النيوليثي الذي عاش في روسيا شمال البحر الأسود والقوقاز تماماً. وهناك فرضية تقول إن شعب الكورغان سيطر أخيراً على أوروبا النيوليثية، وذهب أحد الكتاب إلى حد القول إن هؤلاء هم الذين أدخلوا اللغة الهندوأوروبية إلى الشعوب الأوروبية في ذلك الوقت. وبما أننا لانملك دليلاً عن لغة شعب الكورغان في روسيا أو الشعب الأوروبي في ذلك الزمن، فلابد أن تظل هذه النظرية عن هذا الزمن نظرية تأملية. (هذا المقطع كان بالأصل هامشاً علقت به المؤلفة على كلام هوكس السابق فجعلناه هنا تجنباً للهوامش ـ المترجم).

استقرت هذه الشعوب الماغليموسية والكوندية في العصور الميزوليثية (قرابة ١٥٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ قبل المسيح) في الغابة وفي المناطق الشاطئية لأوروبا الشمالية، ومعظمهم استقر في الدانمرك. وكانت مواقعهم تمتد شمالاً أكثر من مواقع المجموعات الغرافيتية الأورغناسية التي تركت لنا إرثاً من تماثيل فينوس.

لم يكن غزو الشعوب الشمالية حادثاً كبيراً مفرداً بل كان بالأحرى سلسلة من الهجرات التي تمت في موجات واستغرقت مرحلة لاتقل عن ألف سنة وربما ثلاثة آلاف سنة. غزوات المرحلة التاريخية التي بدأت قرابة عام ٢٤٠٠ قبل المسيح نجدها في الأدب وبقايا المنتوجات الفنية وقد اتفق عليها معظم المؤرخين والأركيولوجيين. أما عصور ماقبل التاريخ فتخضع للتأمل وتقوم على دليل مفترض وعلى ترابطات إتيمولوجية. وتلك الغزوات المبكرة والقليلة التوسع سوف تأخذنا خلفاً إلى ٤٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ قبل المسيح، وقد حدثت قبل عصر السجلات المكتوبة. وهي عموماً لم ترتبط مع القبائل الغازية نفسها، ومع ذلك على أساس الدليل الذي يظهر أشعر أنني يجب أن أشير إليهم في كل المراحل البارزة تاركة القارىء يرسم استنتاجاته الخاصة.

لكن الأشد أهمية أن غزاة الشمال في العصور التاريخية رأوا أنفسهم شعباً متفوقاً. ويبدو أن هذا الوضع قائم أساساً على قدرتهم على غزو المزيد من المستوطنين السابقين الأكثر تطوراً منهم، وهم شعب الربة. لقد كان الهندوأوروبيون في صراع دائم ليس فقط مع الشعب الذي يغزون أراضيه بل بين أنفسهم أيضاً. والنمط الذي يبدو في كل بقعة يظهرون فيها هو أنهم مجموعة من المحاربين المعقدين تصحبهم طائفة كهنة من المستوى الرفيع يغزون أولاً ومن ثم يحكمون السكان الأصليين لكل بلاد يدخلونها.

التواريخ المقدمة لظهورهم الأولي في الشرق الأدنى مختلفة. فالبروفسور جيمس

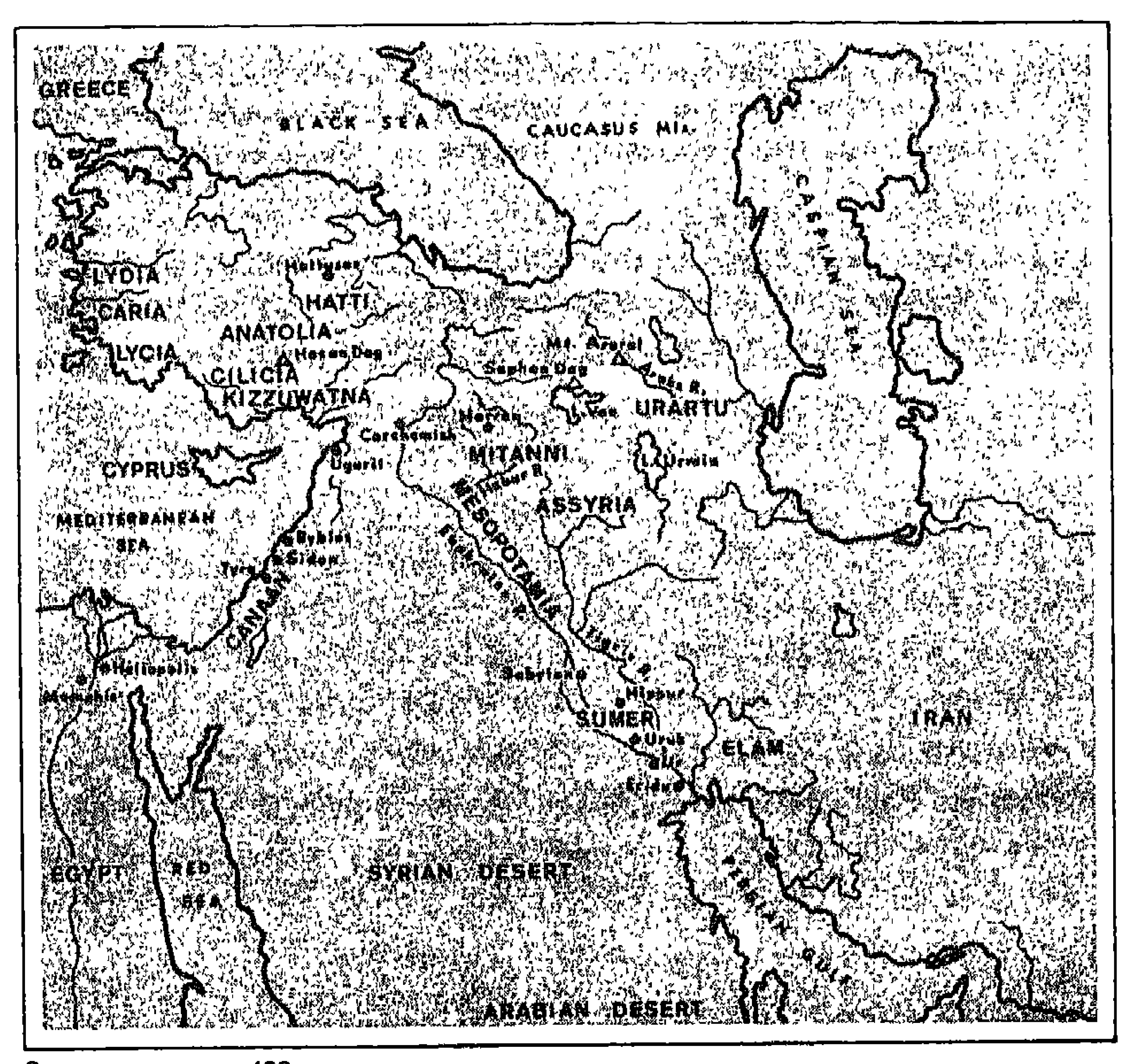
يرى أن الهندوأوروبيين تشكلوا في النجد الإيراني في الألف الرابع، والقيّمون على متحف متزوليم في كامبردج بانكلترا يؤرخون دخولهم إلى الأناضول في أواخر الألف الرابع أو أوائل الألف الثالث. ويرى البروفسور أولبرايت أن ظهورهم في الأناضول لايزيد عن اوائل الألف الثالث. بينما يكتب البروفسور سيتون ليود «قرابة عام ٢٣٠٠ قبل المسيح اجتاحت الأناضول موجة عظيمة من الشعوب الهندوأوروبية تتحدث لهجة عرفت باسم الليونية».

ويخبرنا البروفسور غوردون أن «الهندوأوروبيين ظهروا على مسرح الشرق الأدنى بعد عام ٢٠٠٠ قبل المسيح بقليل. وبينما ممثلوهم الرئيسيون هم الحثيون فإن الملوك والآلهة الميتانيين يحملون غالباً أسماء هندوأوروبية... والنجد الإيراني هو الأرض الكبرى المميزة للآريين «كما يمكن أن نسميه قطاع الهندوأوروبيين ويوضح غوردون أكثر من ذلك فيفسر بأن «تدفق الهجرات الهندوأوروبية إلى الشرق الأدنى أثناء الألف الثاني أحدث ثورة في فنّ الحرب. فالوافدون أدخلوا عربة الحرب التي يجرها الحصان مما منحهم قوة ضاربة سريعة لم تعرف حتى الآن في الشرق الأدنى... فنخبة ضباط العربات الذين يحملون الاسم الهندوأوروبي ماريانو سرعان ما صاروا ارستقراطية جديدة في كل المنطقة بما فيها مصر».

ومن الأناضول وإيران تابعت هذه القبائل اندفاعها جنوباً إلى مابين النهرين وكنعان. وطبقاً لما يقول البروفسور أولبرايت:

«ثمة دليل أركيولوجي ووثائقي معاً يشير إلى حركة هجرة عظيمة أو حركات من الشمال الشرقي إلى سوريا في القرن الثامن عشر قبل المسيح. ونتيجة لهذه الحركة اجتاحت القبائل الحورية الهندوإيرانية البلاد. وبحلول القرن الخامس عشر قبل المسيح نجد معظم سوريا الشرقية والشمالية قد احتلها الحوريون والهندوإيرانيون... مجدو وأورشليم وعسقلان (وكلها في كنعان) حكمها أمراء بأسماء أناضولية أو هندوإيرانية. وطراز الجمجمة في مجدو، الذي كان من قبل متوسطي السمة صار الآن جبلياً قصيراً». (المقصود بالمتوسطي النسبة إلى البحر المتوسط ـ المترجم).

وبما أن الغزوات كانت متفرقة فمن الصعب تتبعها ونحتاج إلى مجلد لكل منطقة يستغرق مرحلة طويلة من الزمن حتى نستوفي الشرح. ولكن الدليل التاريخي والميثولوجي والأركيولوجي يشيرإلى أن ذلك الشعب الشمالي هو الذي أحضر معه مفاهيم النور للخير والظلام للشر (من الممكن جداً أن يكون هذا رمزاً لمواقفهم العرقية



خريطة ٢ ـ تحديد المناطق التي ورد ذكرها في الفصل الرابع

من شعب المناطق الجنوبية الأغمق لوناً منهم). والإله الفائق، الذكر الفائق. فظهور الإله الذكر في أدبهم اللاحق، الذي يصف دائماً ويفسر تفوقه، والمركز الرفيع لطائفتهم الكهنوتية ربما أتاح المجال لأن تظهر هذه الغزوات كحروب صليبية دينية مثلما تظهر كغزوات أرضية.

وصول القبائل الهندوآرية وتشخيص آلهتهم الذكور على أنها متفوقة على الآلهات الإناث للسكان الأصليين في الأراضي التي غزوها والتداخل اللاحق لمجموعتين من المفاهيم اللاهوتية سجلته ميثولوجيا كل ثقافة من ثقافات المنطقة. ففي هذه الأساطير نشهد الأوضاع التي أدت إلى قمع عبادة الربة.

وكما تكتب شيلا كولنز «اللاهوت سياسي دائماً. فأسلوب المجتمعات البشرية في تقديس الفائق وتحديد أنواع الخير والشر يفعل الكثير لديناميكية سلطة الأنظمة الاجتماعية التي تخلق اللاهوت أكثر مما تكشف عفوياً عن الحقيقة في ميدان آخر».

وانطلاقاً من إنتاج الميثولوجيا الدينية للكتاب والكهنة الملكيين الذي عثر عليه في أرشيف قصور الأمم التي حكمها الهندوأوروبيون في الأحقاب التاريخية، والمكتوب عادة بلغة السكان الخاضعين، فإننا نظن أن الأهداف السياسية وليس الحمية الدينية هي المحرك. فسيادة الأساطير التي تشرح خلق الكون على يد إله ذكر أو قانون القرابة، عندما لم يكن شيء منها قد وجد من قبل فإن ثمة إشارات قوية إلى احتمال أن كثيراً من تلك الأساطير كتبها كهنة القبائل الغازية لتسويغ تفوق الآلهة الذكور الجدد وتبرير تنصيب ملك نتيجة علاقة ذلك الملك مع الإله الذكر.

الإله الذكر الهندوأوروبي لايشبه الابن /العاشق لدين الربة، كان غالباً مايصور كإله عاصفة، على قمة جبل شاهق يتوهج بضوء النار أو الصاعقة. ويشير هذا الرمز المتكرر أن أولئك الشماليين كانوا يعبدون في يوم ما البراكين كمظاهر لربهم، وهو عامل سوف أناقشه بمزيد من العمق في الفصل الخامس. كان هذا الإله في بعض الأمكنة ملحقاً بالربة كزوج مثل رب العاصفة تارو وربة أرينا سن أو مثل زيوس وهيرا. في بعض الليجندات ظهر رجلاً فتياً متمرداً يدمر ببطولة الإلاهة الأنثى الأقدم منه، في الأزمنة التي كانت فيها متفوقة تماماً في الوراثة الإلهية.

في كثير من هذه الأساطير يجري ترميز الإلاهة الأنثى بالأفعى أو التنين وأحياناً يبدو جنس التنين حيادياً أو حتى مذكراً (يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأمه أو زوجته التي هي الربة). لكن حبكة القصة وثيمتها الرمزية الكامنة متشابهة في كل أسطورة بحيث إذا اعتمدنا على القصص التي تستخدم اسم الإلاهة الأنثى، يحق لنا الظن أن الهوية المجازية للتنين أو الأفعى هي هوية دين الربة. الربة، الإلاهة الفائقة الأصيلة لشعب أخضعه وحكمه الهندوأوروبيون الغازون، لم تكن مجهولة كانت مشمولة رمزياً بطريقة تسمح لنا تلك الأساطير الدينية بتقصي عزلها التدريجي.

الإله الذكر هو البطل القوي للنور. وبقليل من التغيرات نجد الأسطورة موجودة في الأناضول الحثية، في معركة بين إله العاصفة والتنين اليوانكاس، وفي الهند بين أندرا رب الجبال والربة دانو وابنها فرترا، وفي شمال كنعان بين بعل (الذي يلعب دوراً مزدوجاً كرب جبل سافون وكذلك الأخ/ زوج الربة عنات) والأفعى لوثان أو لوياثان (في اللغة الكنعانية لات تعني ربة) وفي بابل زمن سيطرة الكاشيين في المرحلة الهندوأوروبية بين مردوخ والربة تيامات، وفي سيطرة الميتانيين الهندوأوروبيين على آشوريا يدّعي آشور لنفسه كل أفعال مردوخ، وفي اليونان الهندوأوروبية بين زيوس والأفعوان تيفون (ابن الربة غايا) وبين أبولو والأفعوان بيثون (وجاء في السجلات أنه

أيضاً ابن الربة غايا) وبين هرقل والأفعوان لادون الذي يحرس الشجرة المقدسة للربة هيرا (قيل أهدته لها غايا يوم زفت إلى زيوس) وتظهر الأسطورة في الكتابات العبرية القديمة (التي سوف ندرس بعمق ارتباطاتها بالهندوأوروبيين دراسة معمقة في الفصل الخامس) على شكل مهاجمة الإله العبري يهوه (جيهوفا) للأفعوان لوياثان (اسم كنعاني آخر للوثان). ويمكن أن نجدها حتى في ليجندات القديس جاورجيوس والتنين والقديس باتريك والأفاعي.

ويبدو أن الدين الأنثوي، وعلى الأخص بعد الغزوات المبكرة قد تمثل الآلهة الذكور في العبادة القديمة واستمرت الربة كديانة شعبية للناس لآلاف السنين بعد الغزوات الأولية. وفي زمن مردوخ وآشور في القرن السادس عشر قبل المسيح انحط وضعها كثيراً في مابين النهرين ولكن ظل الأمر هكذا حتى المذابح الأخيرة التي قام بها العبريون وبالتالي المسيحيون في القرن الأول بعد المسيح حيث قمع نهائياً ونسي تقريباً.

في هذه الوثائق التي بقيت من الشعب الهندوأوروبي يمكن أن نجد أصول كثير من أفكار العبريين الأوائل. مفهوم الإله على قمة الجبل ملتهباً بالنور، والثنائية بين النور والظلمة رمزاً للخير والشر وأسطورة دحر الإله الذكر للأفعوان وأيضاً قيادة طبقة حاكمة عليا وكلها مفاهيم سائدة في الدين الهندوأوروبي ومجتمعة، نجدها في المفاهيم العبرية الدينية والسياسية أيضاً. هذا التأثير أو هذا الارتباط مع الشعوب الهندوأوروبية يقدم تفسيراً للأوضاع الأبوية للعبريين التي سوف نناقشها بعمق في الفصل الخامس. ما إن نصبح مدركين للأنماط السياسية الهندوأوروبية والخيال الديني حتى نفهم فهماً أفضل مواقف وأفكار العبريين التي جرى تبنيها في المسيحية.

الهند ـ أصل الطوائف...

في الهند يوجد أوضح دليل للغزوات الهندوآرية وإخضاع الشعب الأصلي العابد للربة. فلغة الهندوأوروبيين في الهند كانت مانشير إليه اليوم باسم اللغة السنسكريتية. فلدى وصولهم لم تكن الشعوب الشمالية قد امتلكت طريقة للكتابة. لقد تبنوا أبجديتين، ربما من الأكاديين. وهكذا فإن معظم السجلات الشاملة للهندوآريين في الهند كانت في كتب عرفت باسم الفيدات كتبت مابين ١٥٠٠ و١٢٠٠ قبل المسيح في اللغة السنسكريتية الهندوأوروبية مستخدمين كتبة مستعارين.

في عام ١٩٦٣ كتب البروفسور أ. و. جيمس:

«يبدو أن أرباب السماء في البانثيون الفيدي القديم كانوا قد توطدوا بين القبائل الآرية عندما بدأوا هجراتهم في الألف الثاني قبل المسيح... وبوصولهم إلى الهند وجدوا عكس ماكانت تؤمن به الحفريات الأركيولوجية السابقة في وادي الهندوس وحوله عام ١٩٢٢، وجدوا ليس سكاناً بدائيين وإنما حضارة مدنية متطورة جداً ومتفوقة على أسلوبهم البسيط في الحياة كما جاء في الفيدا ر. غ» (بما أن الإشارة دائماً إلى هذا القسم من الفيدا فسوف نحذف الحرفين المميزين للقسم وهما ر. غ - المترجم).

وكتب غويسيبي سورماني عام ١٩٦٥ أيضاً يخبرنا أنّه «اتصل الآريون بأشكال متمدنة وقديمة لمجتمع مستقر، يكونون هم برابرة، إذا قورنوا به» كما يقول أيضاً «لقد مر عليهم زمن طويل منذ هجرهم النظام الأمومي وتبنيهم النظام الأبوي في الأسرة وأيضاً النظام الأبوي في الحكومة».

وطبقاً للترانيم الموجودة في الفيدا الهندوآرية، فإنه في بداية الزمن كانت توجد أسوراً فقط - القوة الحية. ثم انقسمت الأسورا إلى فئتين كونيتين. فئة هم أعداء الآريين عرفوا باسم الدانافيين أو الديتيين، الذين كانت أمهم الربة دانو أو ديتي، والفئة الأخرى هم أبطال الآريين الذين كانوا يعرفونهم باسم آ - ديتيا. وهذا اللقب يتنكر لحقيقة أن هذه البنية الميثولوجية خلقت كردة فعل لحضور عبدة الديتي إذ أن آ - ديتيا تعني حرفياً «اللاديتياس» ولاتعني شعب الديتي. وهذا يفترض بقوة أن تلك الترانيم الميثولوجية لم تكن مكتوبة وحسب بعد دخول الآريين في تماس مع شعب الربة، وإنما فهمت وركبت بعد ذلك الزمن أيضاً.

من أكبر أرباب الهندوآرية رب يعرف باسم اندرا، رب الجبال «الذي يدمر المدن» وبعد حصوله على وعد بالتسيد والتفوق إذا نجح في قتل الربة دانوا أو ابنها فرترا، يقوم بانجاز هذا العمل وبذلك يحقق الملوكية بين شعب آ - ديتياس. وفي ترنيمة إلى أندرا في الفيدا التي تصف الحادث وصفت دانو وابنها أولاً على أنهما إبليسان أفعوانان، وفيما بعد اضطجعا ميتين، ورمزا إليهما ببقرة وعجل. وكل من الصورتين للبقرة والأفعوان مرتبطتان بعبادة الربة كما اشتهرت في الشرقين الأدنى والأوسط. وبعد هذه الجرائم «تدفقت المياه الكونية وكانت حبلى». وهذه المياه ولدت الشمس. ويظهر هذا المفهوم عن انبثاق إله الشمس من المياه البدائية في أساطير هندوأوروبية أخرى وهو أيضاً مترافق مع غزوتين قبل التاريخ.

إن الموقف الهندوآري من النساء يتضح في جملتين تعزيان إلى اندرا في الفيدا. «عقل المرأة لايتحمل ثقافة». وزن ذهنها خفيف. قد نجد هذا التقرير مضحكاً في ضوء مستوى ثقافة الهندوآريين الأبوية العابدة للذكر إذا قيست بثقافة الشعب العابد للربة وذي التوجه الأنثوي، الذي أخضعوه بالقوة.

أيضاً تشير الفيدا إلى الإله الأب القديم المعروف باسم برجاباتي ودايوس بيتار. في الفيدا يظهر كما لو كان فكرة مجردة تقريباً. ومع ذلك فقد اشتهر دايوس بيتار في الكتابات البراهمية المتأخرة باعتباره «الأب الفائق للجميع». وهناك دليل على عبادة السلف الأب نجده في عدة ترانيم في الفيدا. والهندوآريون يتلون يومياً البترياجنا، أي عبادة الآباء الأسلاف. في هذا الطقس يمثل أبو الأسرة الكاهن الأعلى، وفيما بعد تنتقل هذه الطقوس إلى ابنه الأكبر. بيتار في السنسكريتية تعني الأب، ولكن باتي لها معان مختلفة. والارتباطات تؤكد لنا مكانة الرجال في تلك القبائل الشمالية. وكلمة باتي لها بدائل كثيرة في الترجمة: رب وحاكم وسيد ومالك وزوج.

إن انتشار الثقافة الهندوآرية جلب معه أصول الديانة الهندوسية ومفهوم أن الجلد الخفيف اللون أفضل من الجلد القاتم اللون. ويعتبر البراهميون، كهنة الهندوآريين الأكثر بياضاً، خلاصة للوراثة العرقية ويكتب سورماني أنّه:

«كرست دراسات كثيرة لأصل الطوائف الحقيقي ومعظم النظريات المعتمدة وجدت هذا الأصل في غزوات العصور القديمة. فالآريون أصحاب الجلد الأبيض لايرغبون في الاختلاط بالدرافيديين أصحاب الجلود القاتمة الذين كانوا السكان الأصليين للبلاد (كلمة طائفة في السنسكريتية هي فارنا وتعني اللون). الاجراءات الأولى تجاه تقسيم السكان إلى طوائف كانت عبارة عن قوانين تحرم الزواج المختلط بين الآرين والدرافيديين».

في براغفاد غيتا المتأخرة يتحدث البطل أرجونا عن خوفه من خنق «البنية الفعلية للمجتمع». وقلقه هو أنه قد تظهر «اللاقانونية» التي تعني عندئذ «فساد النساء» الذي سوف يؤدي بدوره إلى «الاختلاط الطائفي».

شخص يظهر في الميثولوجيا الهندوأوروبية عام ٤٠٠ قبل المسيح وإن كان معروفاً في ليجندة قبل هذا الزمن وهو راما، الذي يرمز إلى التقليد البراهمي. يصفه نورمان براون، بروفسور السنسكريتية في جامعة بنسلفانيا على النحو التالي:

«راما هو العامل الأسطوري لانتشار الثقافة الآرية (أي البراهمية أو السنسكريتية)

إلى جنوب الهند الذي كان وقتئذ غير آري، حيث حتى الثقافة الآن هي أساساً ملك للبراهميين الجاثمين على طبقة تتألف من الدرافيديين في معظمها... كان غزو راما بقوة السلاح... فهو بهذا يشخص بأنه جالب الثقافة والنور إلى السكان الأهليين الذين عندما يتشددون يسمون أبالسة وعندما يريدون الهداية يسمون قردة ودببة».

وهكذا يتأكد أن الغزاة الأبويين الذين رأوا النساء قاصرات مسؤولون عن نشاط المواقف العنصرية أيضاً.

النور بالنسبة للآريين قد يكون النور العشوائي للاندفاعات البركانية، الذي صار فيما بعد يرمز له بنور نارهم الجاهزة للأضاحي، نور الأجسام السماوية، وعلى الأخص الشمس، الصواعق النارية لإلههم، إله العاصفة، وربما بياض لون جلدهم بالمقارنة مع لون جلد المتوسطيين (سكان منطقة الشرق الأوسط ـ المترجم) و «مملكة النور الأبدي» حيث يعتقدون أن أرواح الموتى الآريين تستوطنها. فالآباء «المنعمون يسكنون النور المتوهج، النور البدائي». ويوصف براهما، الذي تحول اسمه بالتدريج ليكون ذلك الإله الفائق بأنه «هو الذي شكله النور في نور». وديف هي الكلمة السنسكريتية المستخدمة للرب وتعني حرفياً المشع أو المضيء. ميترا الإله الآخر الذي يظهر في الفيدا ويبدو فيما بعد في دور هام في الغسنا الإيرانية، هو دائماً يترافق مع النور بينما الفارونا، الذي هو اسم آخر لدايوس بيتار على مايدو، أخذ على عاتقه مهمة تنفيذ الأضاحي اليومية فيحملها إلى «الشمس الوهاجة» من «مكان عميق مظلم تحت الأرض».

ويكشف الدليل الأركيولوجي وعلى الأخص عمل السير جون مارشال أن السكان الأصليين في الهند قدسوا الربة قبل الغزوات الآرية. ويبدو أن الثقافات القديمة لوادي الهندوس كانت في تماس مع سومر وعيلام قرابة عام ٣٠٠٠ قبل المسيح. وقد توطد بثبات الموقف والمعتقدات الدينية في الأسرة والعادات الاجتماعية. فإذا كان القسم الأعظم من السكان قد آمن بالربة المقدسة فلايبدو من المدهش جداً أن نجد هذه المعتقدات وقد ازدهرت في الأزمنة التي كان من المأمون فيها القيام بها جهارة، مع أننا قد نجد الفترة الزمنية هي المدهشة.

في المراحل الأخيرة للتاريخ الهندي كما في مناطق أخرى كثيرة حيث فرضت عبادة الإله الذكر على الدين الأنثوي ظلت شعوب كثيرة، ربما تلك التي بقيت في المناطق الأشد عزلة، محتفظة بعبادة الربة. وحتى أواخر ٦٠٠ بعد المسيح ظلت عبادة الإلاهة الأنثى تظهر في الهند المرة بعد الأخرى. لقد ظهرت الربة عند البورانيين

والثانتريين بأسماء كثيرة لكن الاسم ديفي الذي يعني الربة، يجمعهم كلهم. ومع أن الاسم ديفي مأخوذ من كلمة ديف السنسكريتية إلا أن أسماءها الأخرى كدانو وديني قد نسيت.

يشرح البروفسور براون أن:

«السبب في أننا لانسمع بما هو يقيني عنها أن الأم العظمى ليست آرية الأصل وقد تأخرت حتى حصلت على الاعتراف البراهمي. إنها تختلف عن أي آلهات في الفيدا... فالربة الأم العظمى تعبد عبادة واسعة في الهند اليوم، في الدوائر غير الآرية فكل قرية في جنوب الهند لها مجموعة من الأمات أو الأمهات، وعبادتهن هي الممارسة الدينية الرئيسية في القرية... وكهنة هذه الآلهات (ولديهم كاهنات أيضاً) ليسوا براهميين... وإنما أعضاء في الطائفة الدنيا، وهذا يشير لي أن عبادة هذه الربات سابقة على الآريين أو على الأقل إنها عبادة غير أرية».

ويخبرنا براون أن الربة أخذت تدخل تدريجياً في الأدب البراهمي ولكنه يستنتج أن «مفهوم الأم العظمى مايزال في وضع مريب في الدوائر البراهمية».

إيران - بذور الشعوب الآرية....

توجد المعتقدات الهندوآرية أيضاً في كتابات إيران، وإن كان في مرحلة متأخرة كثيراً. فأقدم مادة كتابية من إيران يرجع تاريخها لسوء الحظ فقط إلى ٦٠٠ قبل المسيح، إلى الزندافستا، كتاب زارادشت. لكن هذه المادة الميثولوجية مستنيرة، إذ كما يشرح جيمس «كان الهنود والإيرانيون أيضاً، كما رأينا، آريين منحدرين من الأرومة العرقية الهندوأوروبية في النجد الإيراني منذ الألف الرابع قبل المسيح، ويتكلمون لهجة سنسكريتية فيدية بوضوح».

ويخبرنا أيضاً البروفسور درسدن أن «الكتلة الأساسية للدليل اللغوي والديني والاجتماعي يؤكد الافتراض أن حاملي الثقافتين، اللتين وجدتا تعبيرهما في الفيدا الهندية من جهة وفي أجزاء من الفستا الإيرانية من جهة ثانية، تشكلان وحدة».

ومع أنه لابد أن يكون هناك تغير هام من زمن الفيدا وحتى كتابة الفستا، فإننا نجد مفهوم الأب الكبير الذي يمثله النور قد اشتهر الآن باسم أهورا مزدا وقد تربّع قمة الخير، بينما شخصية تشبه الشيطان باسم اهريمان «تغرق في الظلمة». وفي احدى الوثائق يتجرأ اهريمان ويصعد إلى الحدود بينهما فيعميه نور أهورا. وإذ يرى شجاعته وسموه «على قوته» يفر هارباً إلى الظلمة. وفي النصوص الإيرانية قرابة عام

٢٠٠ قبل المسيح، كما في المانوية نجد ثانية الخير والشر يقتسمان النور والظلمة. وفي هذه التقارير نعلم أن «قضايا البشرية متسببة من اختلاط الاثنين». ويبدو ميثرا الذي يظهر في الفيدا أكثر بروزاً في الفكر الإيراني: الآن ميثرا هو الذي يدحر «أبالسة الظلام».

والأهم أن الشخصية الإيرانية المعروفة باسم غايو ماريتا هو الشخصية التي تكون أول الخلق. وقد كان غايو ماريتا في يوم ما الشخصية ذاتها في إيران مثلما كان اندرا في الهند. غايوي أو غافي في السنسكريتية تعني البقرة. ومريتيو في السنسكريتية تعني الموت أو القتل وقد بقي في اللغة الألمانية الهندوأوروبية باسم مورد يعني القاتل، وفي اللغة الانكليزية الهندوأوروبية تحت اسم Murder قاتل. وهكذا يظهر اسم غايو ماريتا باسم قاتل البقرة. وكما كانت دايو رمزاً للربة البقرة التي اشتهرت عبادتها في مصر، وقاتلها هو اندرا، هكذا احتل غايو ماريتا هذا المركز في إيران. وفي الكتب البهلوية قرابة ٤٠٠ قبل المسيح جاء «من غايوماريتا شكّل أهورا أسرة البلاد الآرية، وهي بذور الشعوب الآرية».

وفي إضافة أخيرة إلى الميثولوجيا الإيرانية كما نعرف يظهر مرة أخرى ليكون محيياً لدين الربة. وطبقاً للنصوص الإيرانية في القرن الرابع عشر بعد المسيح كانت الربة أناهيتا مسؤولة عن الكون. وتعلمنا هذه النصوص أن «أهورا مزدا قد منحها مهمة الاهتمام بكل الخلق».

الحوريون ـ طائفة حاكمة من الهندوأوروبيين...

ثمة مجموعة من الناس يحملون هوية وأنماط ثقافة الغزاة الشماليين اشتهروا باسم الحوريين. إن النسبة المئوية الكبرى في الشعب الحوري لم تكن من الهندوأوروبيين فهم على الأقل لم يستخدموا لغة هندوأوروبية. ولكنهم كانوا من منطقة شمال الأناضول أو شمال إيران وكانوا جماعة من صغيري الرؤوس (الجبليين) كما كان الهندوأوروبيون. وربما في تلك المنطقة كانوا أول من أخضعوا ومن ثم حُكموا من قبل الهندوأوروبيين.

يقول البروفسور ساغس «هؤلاء الناس الذين عرفوا في العهد القديم بالحوريين أو الحوريم تحدثوا لغة لاروابط لها إلا بالأراراتية المتأخرة. لابد أنهم وصلوا إلى الجبال شمال بلاد آشور، على الأرجح من أقليم القوقاز، في النصف الثاني من الألف الثالث قبل المسيح».

بحلول ٢٤٠٠ قبل المسيح كانت هناك مستوطنة حورية في أوركيش في وادي الخابور، غرب بلاد آشور. وفي هذا الزمن نفسه، في نوزي وتل برك، وسيصبحان فيمابعد من المراكز الهامة للمملكة الحورية، بدأت أسماء الحوريين تظهر. بعدهم وجدوا بعيداً في أقصى جنوب بابل، بينما في ٢٣٠٠ قبل المسيح ظهرت الأسماء الحورية في المدينة السومرية نابور التي تبعد عن أريك زهاء أربعين ميلاً.

كتب البروفسور أ. ر. غورني مجلده «الحثيون» عام ١٩٥٢ وهو يعتقد في هذا الكتاب أن الوطن الأصلي للحوريين كان إيران الشمالية. ويسجل أن «الحوريين انتشروا تدريجياً جنوباً وغرباً من وطنهم في الإقليم الجبلي جنوب بحر قزوين قرابة عام ٢٣٠٠ قبل المسيح ومابعد، وأصبحوا منظمين خلال الألف الثاني في عدة ممالك قوية... واستقروا قرب المياه العليا للفرات والخابور».

ومع أن معظم الحوريين لم يكونوا هندوأوروبيين فإن اهتمامنا بهم قائم على دليل أن ملوكهم وقوادهم كانوا هندوأوروبيين في أسمائهم. يقول ساغس أن «... ملوك ميتاني لايحملون أسماء حورية بل أسماء هندوأوروبية بينما كانوا يعبدون الآلهة الهندية القديمة: ميثرا وفارونا وأندرا... وكل هذا يشير إلى وجود طائفة آرية محاربة تحكم سكاناً غير آريين». فيوافق غورني أن الميتانيين «... حكمتهم أسرة من ملوك وأسماؤهم مشتقة لغوياً من الآرية، وكانت الآلهة الهندية من أمثال اندرا وفارونا بارزة في البانثيون. ويتضح من هذا أن سكاناً حوريين في ميتاني قد حكمتهم طائفة من الهندوآريين».

وقد تكون ليجندة اندرا مشهورة إذ أشير إليه في الألواح الحورية، ولكن لاتوجد سجلات حورية فعلية عثر عليها فيها هذه الليجندة. هناك أسطورة حورية انتشرت في النسخ الحثية، وإن لم تكن قصة تنين نموذجية، تدور حول الجهود المبذولة لتحطيم تيشوب، زوج الربة الأناضولية الهامة حيبات التي أعتبرتها بودو - حيبا ملكة الحثيين بمقام ربة أرينا سن. الشخصية الرئيسية هي الرب المعروف باسم كوماربي الذي صنف مركزه الديني في أوركيش المستوطنة الحورية القديمة. ويسمى في هذه الأسطورة «أبا الأرباب». وارتباطاته الآرية ظاهرة في اسمه فراج كومار في السنسكريتية تعني أمير. وقد منح كاماربي الولادة لطفل صنع من حجارة يسمى «أوليكومي» وهو اسم جبل في إقليم كيزواتنا في كيليكيا في جنوب وسط الأناضول، وربما كان الجبل البركاني المزدوج القمة الذي يعرف في هذه الأيام باسم حسان داغ. ووظيفة أوليكومي أن يدمر تيشوب. والنص طويل تماماً جداً ومشوش ومكسور في كثير من المقاطع الحيوية، لكن النقطة الرئيسية هي أن أوليكومي يؤمر بأن «دمّر مدينة كوميا» حتى «تضرب تيشوب»

و «تذروه كالتبن» و «اسحقه بقدمك مثل نملة». لايوجد شيء مؤكد ولكن قد تشير مدينة كوميا في الليجندة إلى مدينة كوماني التي كانت مركزاً رئيسياً كبيراً للربة حيبات.

فأصل معنى اسم حوري أو حوريتي أو حوريم قد يكون مرتبطاً بمعنى الكلمة الهندية حاراً وتعني الجبل. وقد تكون الكلمة باقية في الكلمة الألمانية هوهي (الهضبة) والكلمة هوهير (الأعلى) وقد تكون هي ذاتها بالانكليزية هاير (الأعلى) نفسها. وهذا يدل أنه قد يكون الحوريون سموا أنفسهم «الجبال» أو «الهضاب» وصفاً لموطنهم الأصلي.

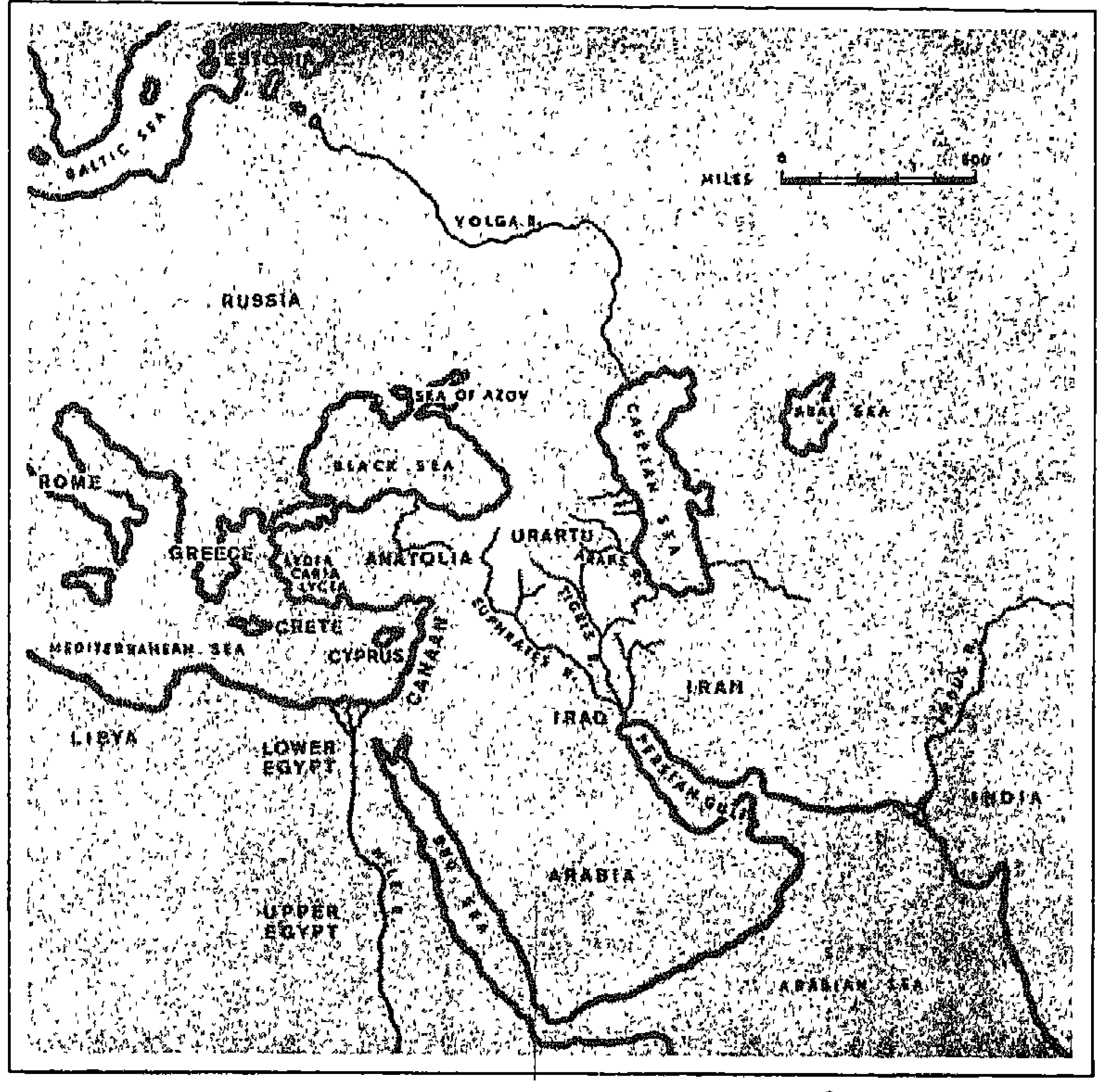
ومن الممكن أيضاً أن المصطلح ارتبط أصلاً بالكلمة السنسكريتية حوري وتعني الأصفر الذهبي. وهذه الكلمة مرتبطة أصلاً باندرا، رب الجبال، استخدمت لوصف قوسه وحصانه وصندله والممتلكات الرمزية الأخرى. ويمكن أن تشير حتى إلى ملكية الذهب التي يقال لها بالسنسكريتية حيران وصارت أخيراً أورو باللاتينية.

ولكن إذا ذهبنا أكثر فإن هاتين الفئتين من الكلمات قد تكونان مشتقتين من فكرة أقدم عن الجبل الذهبي مملكة النور الأبدي حيث يفترض أن أسلاف الآريين استوطنوها بعد الموت. هذه الصورة تبرز بأعظم وضوحها في آخر صورة لأهورا في وطنه المتوهج على قمة جبل حارا.

مرحلة عبيد - اريدو وأرارتو وأرارات وأراتا:

تمشياً مع هذه التجليات التاريخية المؤكدة للهندوأوروبيين من منتصف الألف الثالث ومابعد، فإن هناك اتجاهاً تأملياً أن الهندوأوروبيين، أو المجموعات المرتبطة بهم كأسلاف الحوريين قد يكونون دخلوا جنوب العراق باكراً في الألف الرابع قبل المسيح. مجموعة منهم عرفت بشعب ثقافة عبيد (هكذا سماها الأركيولوجيون بسبب الاسم الحديث للموقع الذي لاحظوا آثارهم الأولى فيه: العبيد) دخلوا منطقة دجلة - الفرات في هذا الزمن. والأغلب أن شعب عبيد هبط من مرتفعات إيران مع أن بعض الباحثين الآن بدأوا يعتقدون أنهم نزلوا من شمال العراق.

ومع أن هذا غير مؤكد، إذ لم يكن ثمة شكل للكتابة في ذلك الزمن، فإن بعض الكتاب يرون أن شعب عبيد قد أحضروا معهم اللغة السومرية. هذه اللغة التي ليست سامية وليست هندوأوروبية حيرت كثيراً خبراء اللغة. فالبروفسور صموئيل نوح كريمر الذي بذل جهداً كبيراً لحل الألواح السومرية، يرى أن السومرية هي «بقية إحدى لغات



خريطة ٣ ـ أهم الطرق المائية من استونيا حتى الخليج الفارسي

الأورال ألتيك المتوسعة». بعض المناطق التي لوحظت فيها هذه اللغات تقع تماماً في الشمال والغرب من بحر قزوين...

ومن أي الجهات كان مدخلهم فإن شعب عبيد وطدوا استيطانهم الكبير في المدينة التي عرفت مؤخراً باسم أريدو بالقرب تماماً من النقطة التي يجتمع فيها دجلة والفرات في الخليج الفارسي. هذا الشعب ذاته عرف بانتشاره عبر منطقة دجلة والفرات. ويخبرنا ميلارت أن ثقافة حلف نتيجة لذلك «تمزّقت» و«حدث في أرباشية (عربجية ـ المترجم) دمار ومذبحة». فقد امتد شعب عبيد بعيداً في الشمال حتى بحيرة أورميا وبحيرة فان، القريبة من التخوم الإيرانية ـ الروسية ربما المنطقة التي منها نشأوا كمجموعة بدوية كبيرة. هذا القطاع عرف مؤخراً باسم أرارات أو أرارتو وهو اسم قد يكون مشتقاً من أراتا. ويمكن أن يكون المقصود باسم أريدو تذكير شعبه باسم أراتا أو أرارتو (وقد عرف فيما بعد أن أورارتو قد استوطنها الحوريون وأحياناً يرون أنها موطنهم الأصلي).

قرابة ٤٠٠٠ قبل المسيح بنى شعب عبيد معبداً في أريدو. ومع أن معابد الربة قد شيدت في كثير من المدن النيوليثية والنحاسية على طول دجلة والفرات من عام ٧٠٠٠ قبل المسيح فيبدو أن هذا المعبد في أريدو هو أول بناء على منبسط مرتفع ألا يمكن أن تكون هذه محاولة لمحاكاة جبل حيث لايوجد جبل؟ وللغرابة أن الكلمة السومرية للجبل هي حور أو كور. وعلى غير عادة المجتمعات الأخرى الموجودة في العراق في ذلك الزمن فإنه لم يعثر في المعبد العبيدي في أريدو على تمثال صغير واحد للربة.

ويبدو أن الماغليموسيين والكونديين الذين أشرنا إليهم من قبل هم الأجداد الثقافيون للشعوب الهندوأوروبية استخدموا الزوارق المحفورة حتى في الأزمنة الميزوليثية. كانت هذه القوارب أصلاً عبارة عن جذوع بحفرات محروقة من أجل جلوس الركاب. في مراحل أبكر استقرت تلك الأقوام في الدانمرك وشمال أوروبا. زورقان، واحد في هولندا وواحد على شاطىء اسكوتلاندا ينسبان للشعب الماغليموسي. إن اهتمام الماغليموسيين بالمجاذيف وشباك الصيد ومصائد السمك دلّ أن هذه القوارب استخدمت لنشاطات الصيد البحري، وهو المظهر الأكبر في حياة الماغليموسيين الذين يظهر أنهم اهتموا اهتماماً استثنائياً بوسائل التحرك والنقل كما طوروا الزلاّجات والزلاّقات.

مع الأنهار والجداول التي تدفقت في أوروبا والشرق الأدنى وكان عددها كبيراً في الزمن القريب من جموديات العصر الجليدي والأمطار الغزيرة التي كانت ماتزال تهطل في عام ١٠٠٠٠ قبل المسيح ربما يكون بعض هؤلاء البحارة القدامى، والأرجح على مدى أجيال كثيرة، هم الذين شقوا طريقهم إلى مناخ أكثر دفئاً في أريدو. وهناك دليل عن الماغليموسيين عثر عليه أيضاً في استونيا يشير أنهم ربما ارتحلوا إلى الأسفل مع الفولغا الذي يصب في بحر قزوين. وربما يكون كثير منهم قد طافوا في روافد النهر الكثيرة على طول الطرف الغربي لقزوين في إقليم القوقاز. أحد الأنهار الكبيرة، حتى اليوم، الذي يجتمع مع بحر قزوين هو أراكس. بمتابعة الفرع الرئيسي للأراكس قاد بعضهم إلى مناطق بحيرة أورامبا وبحيرة فان، أي أرض أورارتو. وفي أورارتو تنضم فروع دجلة إلى الجدول الرئيسي لذلك النهر، المتجه مباشرة إلى الخليج الفارسي، حيث يلتقي دجلة والفرات.

تخبرنا هوكس أنه «على ضفاف الفرات كان رجال ثقافة عبيد أول بحارة نظاميين في النهر... وهو نموذج وجد في قبر عبيدي متأخر في أريدو يمثل أقدم قارب إبحار عرف في العالم قاطبة».

الإله الذي عبد في أريدو في الأزمنة التاريخية عرف باسم الرب أنكي. ويبدو أن إله هذا المعبد في مراحل ماقبل التاريخ كان سمكة أو رب مياه، وتقدمات من السمك كانت تحرق على مذبحه. ويعتقد أن أنكي في العصور التاريخية آمنوا به رباً للمياه، يوصف غالباً بأنه يركب قاربه أو سمي «هو الذي يركب». هذا المفهوم عن السمك أو رب المياه يشبه تماماً ما وجد في شذرة من لوح حثي هندوأوروبي يخبرنا عن إله الشمس الذي ينهض من الماء مع سمكة على رأسه. إنه أيضاً ذكرى إله الشمس الذي ولد من المياه الكونية التي يفترض أن يكون أندرا قد حررها بعد أن قتل دانو وفرترا. ومع أن أنكي لم يؤخذ كإله شمس فإنه في أسطورة مردوخ يسمى والد مردوخ، بينما يسمى مردوخ ابن الشمس.

يعتبر شعب أريدو أول من طور قنوات الري في أريدو. ومع أن هذه القنوات قد تملّحت فيما بعد من الخليج الفارسي، فإننا نرى مفهوم قنوات الري كأنها فكرة طبيعية للشعب الذي عاش حياته على الأنهار والجداول ثم استقر فيما بعد في مناطق اكثر جفافاً.

احتمال آخر يشير إلى هوية الشعب في مرحلة عبيد أريدو هو مؤسسة الملكية والإشارة إلى اسم علالو باعتباره أول ملك على سومر في قوائم أقدم جزء من الألف الثاني. وجاء أن مستقره كان في أريدو. وطبقاً لهذه الألواح التي يبدو أنها تعود إلى المراحل السابقة على التاريخ. فإنه من مدينة أريدو «نزلت الملكية من السماء». واسم علالو أيضاً موجود في الأسطورة الحورية عن كوماربي، التي أشرنا إليها من قبل. تبدأ الأسطورة الحورية «في السنوات السابقة عندما كان علالو ملكاً في السماء، عندما كان علالو جالساً على العرش...». ومع أن الأغلب أن استخدام الحوريين اسم علالو كان قائماً على الكتابات السومرية، التي هي أقدم، فمن الممكن أن الاسم ظل في ذاكرة أولئك العبيديين الذين أبحروا فيما بعد إلى منطقة بحيرة أورميا. وقد دل على وجودهم هناك مواقع اكتشفت متأخرة أكثر مما دلت على وجودهم أريدو القديمة. وربما بهذه الطريقة ازدهر الاسم في الأساطير الحورية لشعب عاش في تلك المنطقة.

سومر وبابل ـ شعب جديد وآلهة جدد وسجل فاضح عن قتل الربة:

في مكان ما بين ٣٤٠٠ و٣٢٠٠ قبل المسيح بدا أن مجموعة أخرى من الأقوام قد دخلت سومر. ويكتب البروفسور ساغس عن طريقة بناء معبد فيما عرف بمرحلة المنزلة الخامسة أوروك «مما يدل على قدوم عنصر جبلي يعرف تقنيات أعمال النحت» وفي

هذا العصر ذاته بدأت مناطق نيبور وكيش بتطوير المراكز المأهولة (تشير قوائم ملوك سومر إلى طوفان عظيم وتخبرأنه بعد الطوفان نزلت الملكية من السماء للمرة الثانية، وهذه المرة نزلت في كيش). وفي نيبور الأحقاب التاريخية اشتهر رب اسمه إنليل يبدو أنه انتزع الشهرة من أنكي. في الأساطير والمخطوطات التي قرأناها عن إنليل أنه «الجبل العظيم المشرق المحدّق» ووصف معبده على أنه بيت الجبل، على الرغم من حقيقة أن نيبور، والواقع معظم بلاد سومر، لاترتفع عن مستوى سطح البحر أكثر من ٦٠٠ قدم (زهاء ٢٠٠ م ـ المترجم). ودخوله مدينة نيبور ترافق ميثولوجياً مع اغتصاب ابنة الربة في نيبور واسمها ننبار شيغونو. وصار اسم الابنة عندئذ ننليل وفيما بعد جاء في وصفها أنها إنليل. واشتهر إنليل أيضاً أنه رب الهواء، وهو لقب شاركه فيه إله في مصر، حيث الشارة لكلمة هواء هي شراع. وفي الأساطير الحورية ترافق كوماربي مع مدينة نيبور، فقد زعموا أنها مدينة كوماربي.

في الألواح السومرية نرى الربة تحت أسماء كثيرة. في العصور القديمة ربما كل اسم من هذه الأسماء كان يبجل باعتباره جدة مقدسة لمجتمع خاص أو مدينة معينة. فننسيكيل كانت الربة الكبرى لدلمون، وهو فردوس السومريين ولكنه أيضاً أدرج في سجلات كثيرة باعتباره مكاناً فعلياً. واشتهرت نامو بأنها «هي التي تمنح الولادة للسماء والأرض» وأيضاً «أم كل الربات». وعبدت نينا باعتبارها «نبيّة الآلهات». ونانشي اللاغشية كانت هي «التي ترعى اليتيم وترعى الأرملة وتبحث عن العدالة للفقراء والملجأ للضعفاء» وفي رأس السنة الجديدة، حكمت كل الجنس البشري. نادادا الأريكية اشتهرت بأنها المتعلمة في كل الأبهاء المقدسة فهي التي تعلم القوانين وهي الكاتبة العظمى للسماء. شالا وهو لقب اينيني، وصفت نفسها بأنها «الربة الملكة القوية التي تعرف السماء والأرض من أنا».

ننغال أو نيكال (السيدة العظيمة) التي كانت في الأحقاب التاريخية تعرف كزوجة إله القمر المسمى نانار (سن في الآكادية) ربما عبدت في زمن ما على أنها الشمس. وفي الأناضول نجد عدة ملكات كاهنات رفيعات المقام لسن ربة أرينا قد جعلن اسم نيكال جزءاً من أسمائهن. وفي الأحقاب التاريخية قيل إنها أم أوتو الشمس الذي ابتكر مؤخراً. معبد في أور كان مذبحاً لننغال في الأحقاب القديمة، فتقاسمته مع زوجها. وفي حقبة الكاشيين في أور أبعدت كلياً عن المعبد الرئيسي ووضعت في ملحق صغير. وهنا قصيدة طويلة مرفوعة إليها على أنها «أم وملكة أور» وأشير إلى نانار على أنه كاهنها إيشيب.

وتبدو الربة ننهورساغ، المعروفة أيضاً باسم ننماه، إنها متماهية جداً مع عبادة أنكي، كزوجته وأخته، مع أنها في الليجندات الأقدم تلعب دوراً مهيمناً واسمها يسبق في الأغلب اسمي أنكي وإنليل. وتفسر إحدى الليجندات أنها بمساعدة نامو خلقت الأقوام الأولى. فالربة المعروفة بأريكتسيجال التي نسمع بها فيما بعد أنها ربة العالم السفلي، تحمل في إحدى الليجندات السومرية الأقدم إلى العالم السفلي كهدية - في الزمن الذي استولى فيه إنليل على الأرض. ولكن كما قرأنا حديثاً نراها حتى في العالم السفلي لاتعيش بسلام فقد أجبرت أن توافق على زوج يحكم إلى جانبها، وإليه أجبرت أن تقدم ألواح المصير.

يبدو اسم الربة إينانا أنه مشتق من إينين أو إينيني. ربما صارت ابنة ننغال في الزمن ذاته الذي صار فيه أوتو الشمس. وبمرور الزمن نلتقيها في مرحلة الليجندة المكتوبة (بعد ٢٠٠٠ قبل المسيح بقليل) ومع أنها ماتزال تلقى التبجيل إلا أنها فقدت ماكان لها سابقاً. ومع أن نامو خلقت السماء والأرض وننهورساغ أو ننتو أو ننماه أول الخلق، فإن هناك أسطورة تخبرنا أن أنكي أسس نظاماً عالمياً. وفي هذه الأسطورة نقرأ أنه خلق قنوات الري» وجعل دجلة والفرات يأكلان معاً». ثم نعلم فيما بعد أنه عين أرباباً شتى في مراكز معينة وأن أنكي نفسه أو الشخصية التي يعينها في وظيفة القنوات «طرد مثل ركبة أميرية سمينة من القصر». ومع أن هذا السطر غامض إلا أنه قد يشير إلى جريمة قتل أمير صغير في ذلك الزمن. وبعد ذلك بقليل نقرأ مرتين أن إينانا سلّمت صولجانها الملكي، الذي عنه سألت أنكي مرتين «أين سلطاتي الملكية؟». وكما لو كان يعزيها يخبرها أنها ماتزال في وظيفة «الكلمات التي ينطقها الفتى الصغير» الكلمات التي كانت قد أسستها وأن العصا والقضيب وعصا الراعي ماتزال لها. وكما لو أنه يقدم المزيد من التفسير لخسارتها سلطاتها نتيجة بناء القناة فإنه ينهي قوله بـ «ياإينانا أنت التي لاتعرفين الآبار العميقة ولا الحبال المربوطة فالغمر جاء والبلاد استقرت، لقد جاء غمر إنليل».

في هذه الليجندة نقرأ تفسيراً للسلطات المتقلصة وأوضاع الربة إثر وصول العبيديين إلى أريدو أو وصول المدافعين عن إنليل في نيبور الذي إليه يقدم أنكي الهدايا الكثيرة طبقاً لما جاء في الليجندة السومرية. وبما أن هذه الأسطورة لم تكتب إلا بعد عام ٢٠٠٠ قبل المسيح فمن الصعب القول إذا كانت هذه التغيرات وقعت أثناء وصول قوم إنكي أو زمن استيطان نيبور. وعلى الرغم من أن وضع المرأة وتفوق الربة فقدا بالتأكيد كل أساسهما عبر الحقبة التاريخي لسومر، فإن هذه التغيرات قد حصلت

خلال قرون، بل حتى آلاف السنوات. ومع ذلك فخلال الحقبة التاريخية نرى الربة ـ مثل إينانا ـ ماتزال تحظى بالتكريم وعلى الأخص في أريك، ويبدو أنها اعتبرت باستمرار كواحدة وهبت حقوق الرعي أو الملكية وجعلت الحقوق الأمومية للعرش الملكي تستمر في الوجود، وهو عامل سوف نناقشه بعمق في الفصل السادس.

قد يكون حصل ازدهار لدين لربة بين الحقبتين لأن هناك أسطورة تهتم بتحول المركز الثقافي من أريدو إلى أريك، فيزعم أنكي أن إينانا قد سرقت منه كل هبات الحضارة. وإلى جانب الدليل الأركيولوجي أن الكثير من هذه الـ «هبات الحضارة» قد تطورت في مجتمعات عبادة الربة في العصور النيوليثية، فمن المهم أن نلاحظ أن الكلمات التي استخدمها السومريون للدلالة على المزارع والمحراث والأخدود والحداد والنساج والدباغ والسلال والفاخوري والبناء لم تكن كلمات سومرية وإنما استعيرت من لغة أخرى ربما تكون أقدم منها.

وأدخل إله ذكر ثالث إلى سومر على الأرجح قبل بداية الألف الثاني، وهي الفترة التي عرفنا فيها بدخول الحوريين إلى المنطقة. وقد عرف باسم آن أو أنو، وهي بشكل عام كلمة سومرية للسماء. ومع ذلك فإن كلمة آن أو أون تظهر في عدة لغات هندوأوروبية بمعنى «جد» بينما في الألمانية تنحصر كلمة أورآهن بالجد الأول. ويظهر هذا اللقب في الاسم اليوناني الهندوأوروبي أورانوس بمعنى رب السماء. ويخبرنا البروفسور هوك أنه «في الحقبة السومرية المبكرة كان اسم آنو غامضاً نسبياً فاسمه لم يظهر في أي قائمة من القوائم الثماني عشرة التي تنتمي إلى تلك الحقبة...».

يظهر آنو كخلفية لعلالو في أسطورة كوماربي الحورية والحثية التي سبق وناقشناها. ولكن الأهم هو ظهوره في أسطورة مردوخ المتأخرة «ابن الشمس». هنا نعلم أن أنكي كان مطالباً بإخضاع الربة ـ الخالقة التي يسمونها تيامات، فلم يكن قادراً على ذلك لكنه دبّر أمر قتل زوجها أبسو، وهكذا أصبح رب ايزو (المياه البدائية) نفسه. عندئذ طولب آنو بإخضاعها وطبقاً للأسطورة أنه عندما واجهها أذله الخوف ورفض إكمال مهمته. أخيراً كان مردوخ، وهو ابن أنكي مصمماً، شريطة أن يصير في المركز المتفوق بين جميع الآلهة الآخرين إذا نجح. هذا الوعد الضامن يجعلنا نتذكر الوعد الذي طلبه أندرا قبل قتل دانو وابنها فرترا، وكلتا الأسطورتين يرجح أنهما كتبتا في الحقبة نفسها (١٦٠٠ ـ ١٤٠٠ قبل المسيح).

هذه الليجندة المشهورة باسم اينوما ايليش تشرح تفوق مردوخ، حددت بأنها بابلية ولذلك فهي سومرية وسامية. لكن آخر بحث يشير أنه مع أن مردوخ اشتهر في مرحلة حمورابي، فإن الأسطورة التي تعلن تفوقه لم تظهر فعلاً إلا بعد غزو الكاشيين لبابل وإخضاعها. ويستنتج البروفسور ساغس أنه «لاتوجد نصوص تشير إلى هذه الأسطورة أبكر من الألف الأول» وأنها «تشير إلى أن هذا الفعل لم يحدث إلا في الحقبة الكاشية وهي العصر الذي عرفنا الآن أنه كان عصر النشاط الأدبي الكبير». وكما أشرت من قبل فإن الكاشيين كانوا أيضاً محكومين من قبل الهندوأوربيين. ويخبرنا غورني أن «أسماء الآلهة الهندية وجدت لتشكل عنصراً في أسماء حكام بابل الكاشيين» مع أن القسم الأكبر من الأقوام الكاشية لم يكونوا هندوأوربيين.

قرابة عام ٢١٠٠ قبل المسيح أعلن ملك سومري اسمه أورنامو أنه سوف يوطد العدل في البلاد، وهذا يشبه نوعاً ما إصلاحات أوروكاجينا الذي سبقه. وقيل إنه قام بالواجبات الثقيلة والضرائب التي ترهق الشعب في ذلك الوقت و «حرر الأرض من البحارين الكبار الذين انتزعوا الثيران والأغنام والحمير».

في كثير من ليجندات سومر ومخطوطاتها يشار إلى شعب سومر بأنهم «شعب الرؤوس السوداء». هذا التحديد الذي نرجح أن يكون وصفاً للون شعر معظم سكان سومر في ذلك الوقت، مهم عندما يبدأ المرء بالتساؤل عن سبب استخدام هذه الجملة لأول مرة. إن هوية الأقوام تبرز عادة بما يميزها عمن يجاورهم. نحن لانشير إلى قوم إنهم «شعب بعينين» مالم يكن هناك شعب بعين واحدة أو بأكثر من عينين. هذا الوصف المنطبق عادة على شعب سومر في كتابات سومر نفسها، قد يجعل دلالة أخرى أن هؤلاء الذين صاغوا المصطلح واستخدموه كانوا هم أنفسهم أو على الأقل كانوا معروفين من قبل الآخرين أنهم لم يكونوا «شعب الرؤوس السوداء» بل كانوا شعباً بشعر ذي لون أفتح.

كل هذه الدلائل المترابطة عندما ننظر إليها جنباً إلى جنب تشير إلى أن أنكي وإنليل وآنو ومردوخ إنما دخلوا مع الهندوأوروبيين أو لهم علاقة وثيقة بالأقوام الشمالية التي دخلت في ثقافات الربة في مابين النهرين. ويبدو أن إنليل وأنكي وآنو تمثلهم بالتدريج العدد الضخم جداً لشعب عابد الربة. لكن الشكل الأخير لمردوخ، وعلى الأخص آشور الذي أعقبه في مركزه في آشور المسيطر عليها من قبل الحوريين عبد مع أشكاله الأخرى في مجتمعات كانت مكانة النساء قد فقدت أركانها بالتأكيد.

مصر - زورق في السماء؟

الاحتمال الآخر، وإن كان تأملياً أيضاً، هو أن ظهور غزاة الشمال أنفسهم قد يكون حصل قبل حقبة السلالات القديمة في مصر بمدة قصيرة. فقبل عام ٣٠٠٠ قبل المسيح تماماً ثمة دليل على وجود غزوة في مصر بعدها بفترة قصيرة، أسست الملكية. كما وقع في أريدو، فمصر العليا ومصر السفلى كانتا متحدتين لأول مرة تحت حكم ملك واحد. وحتى زمن الغزو يبدو أن الثقافات النيوليثية في مصر قد تبنت الربة الكوبرا من الشمال (وازيت) والربة الصقر من الجنوب (نيخبت) كإلهتين فائقتين مع أن هناك الكثير من الآلهة المحلية الأخرى التي عبدت في كل مجتمع من هذين المجتمعين. بعد الغزو انحطت مرتبتهما وإن استمرتا رمزاً للعرشين الملكيين في مصر العليا ومصر السفلى، وكلتاهما الآن توضعان على رأس الملك جنباً إلى جنب.

يكتب مالوان أن «الاستنتاج أنه يوجد بعض الاتصال بين مصر وسومر أحياناً يثبته ظهور أختام من نمط جمدة نصر في زمن إقامة نيبور ودخول إنليل». وينطلق مالوان من طرائق البناء والطراز فيرى أيضاً أن قبور السلالة الأولى قد استوحت معابد مابين النهرين.

وبمناقشة حقبة جمدة نصر يقرر ساغس أن «الدليل على تأثير مابين النهرين الثقافي نجده في هذا العصر في مصر. وكم هي هامة حقيقة أن الأختام الأسطوانية (وهي ابتكار خاص بما بين النهرين) التي حصلت هناك مع طرائق البناء بالآجر هي غريبة عن مصر بينما هي نموذجية في ثقافة جمدة نصر. وفي مصر أيضاً في هذا العصر ظهرت موتيفات وموضوعات مابين النهرين في الفن والمثال الواضح على ذلك هو قارب من النمط المابين نهري وجد محفوراً على قبضة سكين... بينما مبدأ الكتابة (وليس التكنيك) نقله المصريون من بلاد مابين النهرين».

ربما يكون الشعب ذاته الذي عرف في عبيد في سومر، وربما غادر أثناء حقبة جمدة نصر... عندما دخلت سومر مجموعات جديدة، فشقوا طريقهم إلى مصر في ذلك العصر. وتصور الرسوم في قبور السلالات القديمة نمط سلة مخروطية لمصيدة سمك، متفقة تقريباً مع سلال قوم الأبريبول في أوروبا الشمالية الذي انحدر مباشرة من الماغليموسيين. وفي مصر عرف الرب الذي أسند إليه دور الأب للجدة القديمة نوت باسم شو رب الهواء. وكما أشرت من قبل فإن شارة الهواء في مصر

هي الشراع بينما شارة الكلمة التي تدل على الأرباب هي سلسلة من الرايات أو الأقراط التي شوهدت على مجداف القوارب. فالإله الذكر لمصر، الذي وصل مع الغزاة صور على أنه إله شمس يركب قاربه، تماماً كما عرف عن إنكي بأنه «هو الذي يركب».

ينفق البروفسور ولتر إيمري خمسة وأربعين عاماً يحفر القبور القديمة والأهرامات في مصر. وفي مسألة وصول تلك الأقوام يكتب:

«هل هذه الغزوة اتخذت شكل التسلل التدريجي أو شكل الغزو الجماعي هو شيء غير مؤكد ولكن إقامة الدليل يأتينا أساساً من نقش على سكين عاجية في جبل الأراك ومن رسوم على جدران قبر من قبل السلالات في هيراكونوبوليس، مما يدل أن الاحتمال الثاني هو المؤكد. فنحن نرى على قبضة السكين طرازاً من الفن الذي قد يكون فن مابين النهرين أو حتى قد يكون أصله سوريا، ونرى مشهداً يمثل معركة في البحر ضد الغزاة وهو الموضوع الذي نجده بصورة بدائية في قبر هيراكونوبوليس. وفي كلا التشخيصين نحن أمام سفن وطنية نموذجية مصرية وسفن غربية بمجاديف طويلة ومقدمة هذه السفن تدل على أن أصلها بالتأكيد من مابين النهرين.

على أي حال فإنه في نهاية الألف الرابع قبل المسيح نجد قوماً يعرفون تقليدياً باسم «أتباع حورس» ومن الواضح أنهم يشكلون عرقاً أرستقراطياً أو سيداً حكموا كل مصر. فنظرية وجود هذ العرق السيد يدعمها اكتشاف تلك القبور في الحقبة المتأخرة قبل ظهور السلالات في القسم الشمالي أو مصر العليا، فقد عثر فيها على بقايا تدل على أناس جمجمتهم أكبر حجماً وأجسامهم أكبر من أجسام المواطنين، فالفرق واضح بحيث لايمكن أن يكون هؤلاء الناس منحدرين من أصل أقدم».

ويصف أيضاً مشهداً لرأس صولجان أحد الملوك القدماء يصوره يبني قنالاً بين حشد احتفالي عظيم ويضيف بأنه «يوجد دليل قوي يبين أن الغازي لشمال مصر سعى لجعل مركزه شرعياً باتخاذ أميرة شمالية زوجة له». لقدا شتهر غزاة هذه الحقبة عند المصريين باسم شمسو حور ـ أي شعب حور. وقبائل حور هي التي جعلت ممفيس عاصمة لهم بالتدريج. وإثر وصولهم أدخل الإله الذكر. وكان يسمى هوروير ـ أي حور العظيم. وقد كتب رودولف أنتيس أستاذ المصريات عن أصل شخصية حور في الميثولوجيا المصرية، فيشرح ذلك على النحو التالي: «كان الزمن في الألف الثالث قبل المسيح، أقدم فترة في توثيق التاريخ، وكانت الظروف تستدعي تأسيس الملكية في مصر».

صور إله الشمس حور - ويرى في عام ٢٩٠٠ قبل المسيح تظهره راكباً زورقه، زورق السماء. قد نجد هذا الخيال المفهومي لركوب إله الشمس في زورقه في السماء لايشبه الخيال الهندوأوروبي المتأخر في الهند واليونان حيث إله الشمس يركب عبر السماء عربة تجرها الخيول.

طبقاً للبروفسور إيمري فإن اسم أول ملك للسلالة الأولى المشهور باسم نارمير أو مينس في تاريخ مانيتو عام ٢٧٠ قبل المسيح هو بالفعل حور - آها. لكن اسم حور يبدو أنه قد تداخل مع الدين القديم للربة تحت لقب «الابن الذي يموت». وقد خلق هذا تشويشاً بين الحوريين، فأحدهما الرب الأكبر للنور وهو رب الغزاة والآخر هو ابن الربة إيزيس.

جاء وصف حور (اشتهر عند اليونان فيما بعد باسم حورس) في مختلف الكتابات على أنه يخوض معركة طقوسية مع إله ذكر آخر عرف باسم سيت. وسيت يبرز عموماً كعم أو أخ لحور. والقتال يرمز إلى تغلب حور على سيت وحور يرمز إلى النور والخير وسيت يمثل الظلام والشر. والدكتور واليس بدج يرى أن «القتال الذي شنه رب الشمس حورس ضد الليل والظلمة حصل أيضاً في فترة مبكرة تترافق مع فترة القتال بين حورس ابن إيزيس وأخيه سيت... وسيت أو سوت يمثل أصلاً الليل الطبيعي وكان خصماً لحورس».

كلمة سات في السنسكريتية تعني التدمير بالتمزيق إلى قطع. وفي أسطورة أوزيريس الذي هو حورس بعد وفاته (وإن كان في الوقت ذاته يعرف بأنه والد حورس) فإن سيت هو الذي قتل أوزيريس وقطع جسده إلى أربع عشرة قطعة. ولكن قد يكون مما هو أهم أن كلمة سيت في مصر تعني «ملكة» أو «أميرة». وأوسيت المشهور باسم إيزيس عند الإغريق تعرف بأنها «الملكة السابقة». وفي أسطورة صراع سيت تحاول إغراء حورس جنسياً وينظر إلى هذا على أنه إهانة. ولكن معظم الهوية البدائية لشخصية سيت، الذي هو أيضاً مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأفعوان الظلام المعروف باسم زيت، واعتاد الكتاب اليونانيون الكلاسيون أن يشيروا إليه باسم تيفون أفعوان الربة غايا الذي ربما كان أنثى أو كرمز إلى دين الربة، وربما كانت له علاقة بوازيت، الأفعوان بوازيت، الأفعوان العظيم، الربة الكوبرا في العصور النيوليثية.

إن أنصار حور الذين غزوا مصر النيوليثية أقاموا مؤسسة الملكية. كان يرمز إلى حور عادة بالصقر أو العقاب، والاسم الحورسي للملك دائماً يرسم بالصقر. في إيران

الهندوأوروبية تعني كلمة اكسفارناه السلطة الملكية الشرعية. وفي إحدى الأساطير الإيرانية يترك هذا الاكسفارناه مالكه ويطير منه ـ على شكل صقر.

لقد دخل شمسو حور في المراحل البعيدة لمصر ماقبل السلالات. والمعلومات عنها متبعثرة. ولكن هل يكون شمسو حور قد ارتبط في يوم ما بالأقوام الذين عرفناهم فيما بعد باسم الحوريين أو الحوريتيين، الذين أقاموا وطنهم أولاً في شمال إيران ثم بعد ذلك في سومر، قد أصبح بالتدريج شمسو حور مصر؟

قرابة عصر الأسرة الثانية أصبحت مدينة هليوبوليس (المعروفة للمصريين باسم آنو) التي تبعد عن ممفيس عشرة أميال شمالاً، موطن مدرسة من الكهنة الكتاب الذين عبدوا أيضاً إله الشمس الذي يركب زورقاً. في هذه المدينة استخدموا اسم رع. ورع بالسنسكريتية تعني الملكي أو الممجد في الأعالي. إن رع كمقطع يوضع في بداية الاسم موجود في السنسكريتية ليدل على الملك (راجا) والملكة (راني). وقد برز في الكلمة الألمانية راجن وتعني يرتفع وروا بالفرنسي وتعني الملك. وكذلك في الكلمات الانكليزية رويال (ملكي) ورين (يحكم) وريغال (نظامي).

في نصوص اهرامات الأسرة الخامسة (قرابة ٢٤٠٠ قبل المسيح) كان حورس مساوياً لرع. وكان كل من حورس ورع مرتبطين ارتباطاً وثيقاً، وأحياناً ارتباطاً تنافسياً، بحق الملكية. ومثل رع ـ حارختي، توحد رع مع حورس الأفق، وكلاهما يعني الشمس في شروقها. ورع أيضاً يصور شمساً تمخر أجواء السموات في زورقه المقدس. لماذا زورق في السماء؟ أليس بسبب الرجال الذين أدخلوا فكرة رب النور وقد وصلوا فعلاً بزوارقهم؟لقد قيل إن زورق رع انبثق من المياه البدائية، تماماً كما قيل إن إنكي ركب زورقه في أعماق مياه أبزو في أريدو، أو مثل إله الشمس الهندوآري الذي قيل إنه ظهر من المياه الكونية. وكما في الأسطورة الحثية الهندوأوروبية عن إله الشمس في الماء الذي يشرق من البحر وعلى رأسه سمكة، مثل رع تماماً الذي ينهض من الماء كل صباح.

كان رع كإله شمسي معروفاً بـ «الواحد المشرق» «الجد الأول للنور» «سيد النور». ومرة أخرى نجد أسطورة التنين كما جاء في الدين الآري. يومياً يقاتل رع أفعوان الظلام المعروف باسم زيت، والذي سمي فيما بعد أبوفيس. أما لماذا يجب أن تكون المهمة شاقة جداً حتى تشرق الشمس، وعلى الأخص في مناخ مصر، فأمر محير. ويمكن للمرء أن يفهم أفضل هذا النمط من التفكير بمعرفة أصله في أوروبا الشمالية.

لكن ظلام الليل كان يبدو كقوة لابد من محاربتهايومياً، تماماً كما كان على فارونا الهندوآري أن يقدم الضحايا اليومية لإخراج الشمس من مكانها المظلم تحت الأرض.

وكما تمثل دين الربة اسم حورس كابن إيزيس، فقد فرض كهنة ممفيس مفهوماً آخر عن الرب الآب العظيم. هذه المرة كان اسمه بتاح، وهو يشبه شبهاً غريباً كلمة بيتار السنسكريتية. والنصوص التي تهتم به تصف خلق كل الموجودات وتزعم أن بتاح كان في البداية. ونعلم هذه المرة أنه من خلال عملية الاستنماء جعل بتاح الآلهة الأخرى تظهر إلى الوجود، وبذلك أنهى كلياً الحاجة إلى جدة مقدسة.

ومع ذلك فعلى الرغم من غزوات الآلهة الذكور الذين حلوا محل الربات الكوبرا والربات الصقر اللواتي كن آلهات فائقات لمصر، نجد أن مفهوم الربة أبعد من أن ينسى. فالمصريون القدماء الذين اتقنوا إدخال الآلهة الجديدة في دينهم (أحياناً إلى درجة سيطرت فيها الأساطير التي تجمع أعداداً ضخمة من الأسماء المتداخلة) يبدو أنهم تمثلوا الآلهة الذكور التي جاء بها الغزاة، فجعلوا الدين يتخذ أشكالاً جديدة مختلفة. وانطلاقاً من احتفاظهم بأنماط السلالة الأمومية جيداً في المراحل التاريخية فقد تمثلوا الغزاة أنفسهم أيضاً، مع أنه بقي في البيت الملكي الشيء الكثير.

لقد جرى الاحتفاظ بطبيعة الربة الكوبرا وازيت في عدة آلهة أنثوية أخرى فيما بعد منهن الربة المعروفة باسم حاتحور، التي تعني حرفياً بيت حور. يرمز إليها بشكل عام ببقرة تضع الكوبرا فوق جبينها. لكن أحد النصوص يصفها بالأفعى البدائية التي خلقت العالم أول ماخلقت. أوسيت أيضاً التي تصور في شكل إنساني، ترتدي الكوبرا على جبينها. ويبدو أن اسم أوسيت قد أخذ من اسم وازيت.

والأهم من ذلك هو الربة المصرية المعروفة باسم ماعت. وترمز ماعت إلى نظام الكون وكل ما هو خير. واعتماداً على مكان النص فإنها اشتهرت باسم عين حورس أو عين رع أو عين بتاح. والعين بالمصرية هي يوزيت، وهي أيضاً كلمة قريبة الشبه جداً بوازيت. ولكن في اليونانية الهندوأوروبية فإن الكلمة المستخدمة للعين هي ماتي. (تقصد المؤلفة أن الكلمتين متشابهتان جداً ـ المترجم) كانت ماعت تجسيداً للكوبرا المقدسة القديمة. ويبدو أنه سمح لها أن تحتفظ بصفاتها وطبيعتها مادامت معينة لتكون ملك أحد الآلهة الذكور. يكتب البروفسور أنتيس «مادام الملك حياً فإن الأورايوس (الحية المقدسة ـ المترجم) كما تشير نصوص الأهرام محروسة سحرياً من قبل الملك. فإذا مات الملك فإن الأفعى السامة ستهرب ما لم توضع في السجن».

وهذا يدل على أن القانون والنظام كما يفهمهما أنصار حور أو رع أو بتاح، ممكنان فقط مادامت الربة الكوبرا تحت سيطرة الملك. إن الجمع الغريب للصفات التي نسبت للكوبرا السامة عرفت باسم ماعت ـ الحكمة المطلقة والخطورة وربما التمرد والكاوس ـ يشير إلى أن الكوبرا رمزت إلى ملوك مصر في مجتمع عبادة الربة الذي تمثله.

هناك مرجع في نصوص الإهرامات من الأسرة الخامسة قد حير طلاب الثقافة المصرية القديمة. وهي وثيقة تدل أن الرجال كانوا يقدمون ضحايا في قبر أوزيريس ـ وكانت الضحايا رجالاً بشعر أحمر. فإذا كان شمسوحور مرتبطاً بالقوم عرفنا فيما بعد أنهم الهندوأوروبيون أو الحوريون، فإن هذا المرجع يصبح قابلاً للفهم أكثر.

ومسألة ماإذا كانت جماعات مرحلة عبيد في أريدو أو الذين من جمدة نصر في نيبور أو الشمسوحور في مصر كانوا حقاً مجموعة من قدامى الهنوأوروبيين أو مرتبطين فعلاً بأقوام من مناطق القوقاز أو أرارات يحب أن تبقى في هذا الوقت مسألة تأملية افتراضية، على الأقل حتى يتوافر المزيد من الأبحاث المختصة. ما هو مؤكد أن تلك الأقوام أحضروا معهم عبادة الإله الذكر حالما دخلوا بلاد الشعب الذي يتمسك بالربة باعتبارها مقدسة، ويبدو أن كلاً من العبيديين والشمسوحوريين كانوا أول من أوجد مفهوم الملكية بينما الذين أبقوا عليها وأنعشوها هم أقوام جمدة نصر في نيبور وكيش.

الحثيون ـ خلق طائفة خاصة...

بالعودة إلى أكثر المراحل التاريخية بروزاً للغزوات الهندوأوروبية، يعتقد أن الحثيين دخلوا الأناضول من إقليم القوقاز قرابة عام ٢٠٠٠ قبل المسيح، وهناك أمثلة عن وصولات مبكرة لأعداد صغيرة من هذا الشعب.

يقول البروفسور غورني «يبين فحص الجماجم التي عثر عليها في عدة مواقع في الأناضول أن السكان في الألف الثالث قبل المسيح كانوا ذوي رؤوس طويلة قوية (نمط البحر المتوسط) مع خليط صغير فقط من الأنماط القصيرة الرأس (الجبلية). في الألف الثاني تزايدت نسبة الجماجم القصيرة بنسبة ٥٠ بالمئة».

إن أبناء ذلك الشعب الجبلي (الالبي) القصيري الرؤوس هم الذين عرفوا كطبقة حاكمة في الإمبراطورية الحثية. وقبل الوصول الثالث كان سكان البلاد يعرفون بالشعب الحاتي. وهذا الاسم الحاتي هو الذي قاد إلى تسمية أولئك الناس بالحثيين، وسماهم بذلك الدارسون القدامى الذين كانوا غير منتبهين إلى أن مملكة الحثيين كانت مؤلفة من مجموعتين متمايزتين تماماً من الناس. وقد زاد ذلك تعقيداً حقيقة

أن العديد من الملوك الحثيين اتخذوا اسم حيتوسيلي وسمى الغزاة العاصمة حاتوساس، ربما يوحدون بذلك أنفسهم كمنتمين إلى الشعب. لكن الآن بات واضحاً أن السكان الأصليين للبلاد صاروا خدماً أو طبقة خاضعة بينما الهندوأوروبيون الغزاة احتكروا القيام بأدوار الملكية والقيادة بالضبط كما فعل الشمسوحور في مصر، وكما فعل الآريون في الهند والميتانيون الحوريون مع الكاشيين وأخيراً في اليونان وروما.

يقول غورني «كانت الدولة الحثية خلقاً لطائفة خاصة تفرض هيمنتها على السكان الأصليين للبلاد... مجموعة من المهاجرين الهندوأوروبيين باتوا مسيطرين على العرق الأصلي للحاثيين». ويخبرنا البروفسور ساغس أنه «بعد فترة الفوضى التي نجمت عن غارة الغزاةالهندوأوربيين على إقليم الهالسيين أنشأ أمير منهم، وبالتحديد هو لابارناس، مملكة لنفسه التي، طبقاً لتقاليد الحثيين وسّعها بسرعة عن طريق الانتصارات العسكرية إلى أن جعل البحر حدوده». ويوافق ساغس على ماجاء به غورني فيقول إن «الحكومة في المملكة الحثية كانت في هذا الوقت محصورة بنبيل وظائفه محتكرة ومطبقة على السكان الأصليين، وهو وحده يهتم بالنشاطات العسكرية والإدارة المركزية للدولة».

إن الهندوأوروبيين بعرباتهم الحربية التي تجرها الخيول وبأسلحتهم الحديدية وأيضاً بحجمهم الجسدي الضخم (وحتى يؤكدوا ضخامتهم وضعوا قبعات مخروطية حتى يبلغ ارتفاعهم بين ١٨ - ٢٤ بوصة) فأحرزوا تفوقاً عسكرياً لامثيل له من قبل. إن العربة ذات العجلات دخلت في ثقافات عبدة الربة في فترة حلف، ولكن حتى وصول الحثيين والحوريين كانت العربات الكبيرة والصغيرة التي تجرها الحمير فقط مخصصة كوسائل نقل للناس والمنتجات. ولكن فقط بعد قدوم المحاربين الهندوأوروبيين (المايانو) استُخدم الحصان ودخلت عربات الخيول الحربية في الشرق الأدنى. وطبقاً لمواصفات الفيدا فإن تلك العربات كانت تجرها الخيول، حصانان يربطان معاً ويقوداهما راكبان. ويشار عموماً أن الحثيين خلال الألف الثاني قبل المسيح اكتشفوا التعدين وصهروا الحديد، مع أن المنقبين عثروا على خنجر حديدي في قبر يرجع تاريخه إلى مايقارب ٢٥٠٠ قبل المسيح. وبالمقارنة مع النحاس والذهب والبرونز في ثقافات الربة فإن الحديد قدّم أسلحة «فعالّة» جداً. وقد تكون كلمة حديد مرتبطة بالكلمة آريان لأنها ترافقت تماماً مع هؤلاء الأقوام الذين عزموا على جعل العملية سرية لقرون كثيرة بعد اكتشافها. وقد استخدم المصريون النيوليثيون الحديد النيزكي الذي فضلوه لأنه «معدن

من السماء» وربما كان ارتباط الحديد، وإن كان علمياً عبارة عن حديد ترابي، بالآريين هو الذي أدى إلى الليجندات التي زعمت بأن أصلهم سماوي، وإلى فكرة أن الملكية قد هبطت من السماء. ومن احتكار الأسلحة الحديدية والسرعة والقوة الصاعقة لعربات الحرب التي تجرها الخيول (والأرجح أيضاً التأثيرات المرعبة في شعب ريفي مسالم) أقام الغزاة الهندوأوروبيون قوة عسكرية لم يكن الشرق الأدنى يعرفها حتى وصولهم.

لابد أن الحاثيين المغلوبين على أمرهم قد انصاعوا بكل دقة خوفاً من هذه الطائفة الحربية المسلحة تماماً التي حكمت بلادهم. أحد القوانين الحثية ينص «إذا عارض أي شخص حكم الملك فسوف يصبح منزله خراباً، وإذا عارض أي شخص حكم صاحب المقام الرفيع فسوف يقطع رأسه».

قبل الغزوات لم يكن لدى الحثيين لغة مكتوبة متطورة، على الأقل لم تستخدم لغة لتسجيل الأساطير والأدب. (لقد ظهرت الهيروغليفية الحثية وهذا ماسوف أناقشه بتوسع ودقة فيما بعد). فبعد وصولهم واتصالهم بالأكاديين طفقوا يستخدمون الأبجدية الأكادية المسمارية، التي قامت على أساس كتابة السومريين. ومع أن الحثيين في كتابة الكثير من أساطيرهم استخدموا فعلاً اللغة الأكادية، فإن لغتهم الخاصة تحولت أيضاً إلى اتخاذ الطريقة الأكادية في الكتابة. وهذه اللغة الحثية هي التي ظهرت كشكل من أقدم الأشكال الكلامية الهندوأوروبية. ففي العصور التاريخية المبكرة ارتبطت هذه اللغة ارتباطاً وثيقاً بالسنسكريتية واللاتينية واليونانية. وفي الوقت ذاته نراها مرتبطة بالألمانية والفرنسية والانجليزية والدانمركية وبكل اللغات الأوروبية تقريباً.

ويخبرنا غورني أن «اكتشاف أن للحثيين روابط مع اللغات الهندوأوروبية يعود إلى باحث تشيكي هو هروزني وقد نشر في عام ١٩١٥ أبحاثه عن هذا الموضوع. فالزعم أن سكان آسيا الصغرى تكلموا بلغة هندوأوروبية في الألف الثاني قبل المسيح كان قلقاً بحيث تلقاه الناس بادىء الأمر بشكوك كبيرة». ويتابع كلامه فيقول إن هذا في هذه الأيام قد جرى إثباته من دون أدنى شك».

إن الحاثيين الأصليين الذين كانت لهم علاقة بشعب كاتال حيوك الأقدم الذي كان يعبد الربة، وتقع كاتال حيوك بعد ١٢٥ ميلاً جنوب العاصمة الحثية حاتوساس، كانت لهم على مايبدو ربة عبدت كإله أعلى. ربات من أمثال حناحنا وهيبتا وكوبابا

وربة الشمس العظمى في أرينا، ازدهرت عبادتهن منذ أقدم دين حاثي. كانت الربة تسمى في النصوص العرش، وهو اللقب الذي لازم إيزيس في مصر.

ومع أن ثمة دليلاً في نصوصهم أن الحثيين عبدوا اندرا وميثرا وفارونا، يبد أن الأساطير والسجلات الحثية لهذه الآلهة لم تكتشف بعد. فأرباب العاصفة الجبليون أدخلهم الحثيون، وفي كتابات الأناضول الحثية نجد بعض المواقف من تلك الآلهة الذكورية الجديدة. ففي مخطوطات الملك انيتا، وهو من أقدم ملوك الحثيين يشار إلى تارو رب العاصفة باعتباره إلهاً قائداً. ومع ذلك ففي مدينة أرينا بعد ذلك بقرون ويقال في يوم الرحيل عن حاتوساس ولكن قبل وجود مكان آخر للاستقرار، هناك قصة مختلفة. فغورني يلاحظ من دراسته لنصوص بوغاسكوي أنه «في أرينا كان الإله الأساسي هو الربة فورسيمو، ربة الشمس زوجها تارو رب الطقس الجوي يحتلان مكانة ثانوية وهناك ابنتان تسميان ميزولا وهولا، وتوجد حتى حفيدة تسمى زنتوهي».

بعض النصوص تصف الشعائر التي رعتها سلسلة من الملكات الحثيات من أجل ربة الشمس فيأرينا، فتكشف أن الملكة أيضاً تقوم بدور الكاهنة العليا للربة. وكما أشرت من قبل، فإن هذه العلاقة الوثيقة للملكات الحثيات مع ربة الشمس تشير إلى أن الغزاة الهندوأوروبيين حصلوا في وقت واحد على القبول الشعبي لهم وعلى شرعية العرش بالزواج من الملكات الحثيات اللواتي يكون لهن الحقوق بالعرش من خلال الذرية الأمومية. ويشرح غورني أن الملوك الآريين حافظوا على المعابد الحثية القديمة «... بينما في الوقت نفسه كانوا يستأثرون في شخصهم بمركز الكاهن الأعلى الرسمي للمملكة».

مرة أخرى نقابل هنا أسطورة دحر التنين. فقد كتب الملك مورسيلس الثاني على وجوب إقامة احتفالات رب العاصفة في عدة مدن. في هذه الرسالة ذاتها يشير إلى المهرجان الأكبر الذي من هذا النوع بأنه سيجري في العاصمة حاتوساس، عند ضريح الربة المعروفة باسم ليوانيس. وفي هذا المهرجان تتلى أو تمثل معركة شعائرية، ربما تشبه تلك التي جرت بين حور وسيت في مصر. هذه المعركة كانت بين رب العاصفة والتنين اليانكاس.

ويبدو أن موروسيليس كملك قد يكون له دور في الدراما، وربما كإله عاصفة. لكن الشكل الآخر الموجود في القصة هو عن شاب صغير اسمه هوبيساياس، الذي بعد نومه مع الربة التي تسمى أنارا يحصل على قوة تكفيه لمساعدة رب العاصفة في دحر التنين، ويبدو أنه دور يشبه الدور الملكي. فقصة حصول هوبيساياس على القوة

بمضاجعة الربة ربما تكون قد حصلت في الاتحاد الجنسي المقدس الذي يجري سنوياً، ويشبه تلك الاتحادات التي وصفتها النصوص السومرية والبابلية، والتي سوف نشرحها بمزيد من العمق في الفصل السادس. فالملك في هذه البلاد لعب دور الابن /العاشق مع الكاهنة العليا للربة التي تهبه عندئذ حقوق الملكية. فإن كان الأمر على هذا النحو فإن ذلك يشيرأيضاً إلى أن الملوك الهندوأوروبيين الأوائل قد لعبوا هذا الدور مع الكاهنات الحاثيات لجعل مركزهم شرعياً. واسم التنين اليانكاس قد تكون له علاقة مع الربة ليلوانيس. في الخاتمة يقتل التنين تماماً كما يحصل مع الربة تيامات التي ترمز إلى التنين والتي قتلها مردوخ. فهل بمحض الصدفة أن يجري المهرجان ليس في معبد ليلوانيس وإنما في ضريحها؟

اسم الرب الحثي تارو مرتبط بالكلمة الحثية ثار ومعناها القيام بالغزو. وكلمة ثورا السنسكريتية تعني القوي، بينما ثوراشاه اسم آخر لأندرا. وقد تكون هذه الكلمة باقية في كلمتي ثوروس وثورروس بمعنى ثور. ولكن ربما كان لهذه الكلمة علاقة أيضاً بالجبال كما في الكلمة حور وحر وحاراً. وإلى جانب حقيقة أن سلسلة من السلاسل الجبلية في الأناضول تسمى توروس (طوروس ـ المترجم) كما تسمى أعلى قممه باسم جبل طوروس، نجد في اللغة الكلتية الهندوأوروبية أن كلمة ثور تعني القمة الجبلية الصخرية، وكلمة ثورم الألمانية تعني البرج أو القمة وفي الانكليزية لدينا كلمة تاور بمعنى البرج أو القمة. وهذا الاسم يبدو كأنه مأخوذ من إله العاصفة الأتروسكاني تارشون، بل حتى قد يكون بطريقة ما قد صاحب رب العاصفة الفايكنغي ثور.

دائماً كان الحثيون في صدام مع الجيوش المصرية، وكلا الطرفين يحاولان السيطرة على كنعان (وهي منطقة تشكل اليوم جزءاً من سوريا ولبنان وفلسطين. ويمكن كنتيجة لهذه الصدامات، في جهود لتوطيد السلم أو التسلل، أن الأميرات الحثيات والحوريات والكاشيات كن يرسلن كزوجات إلى الملوك المصريين في الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٠ ـ ١٣٠٠ قبل المسيح) واستمر ذلك لأجيال عديدة. وكل من الملكتين تيي ونفرتيتي، الأم المبجلة والزوجة الموقرة للملك الثوري الديني أخناتون، يعتقد بعض الباحثين أنهما من ذرية حثية أو حورية. فإن صح هذا فإنه يفسر لنا الثورة الدينية قرابة عام ١٣٥٠ قبل المسيح التي جعلت أخناتون ينقل عاصمته إلى العمارنة، رافضاً كل الآلهة إلا رع باعتباره قرص الشمس الذي سماه أتون. إذا كانت هذه الزيجات محاولة للتسلل فقد نجحت الخطة لأن أخناتون الذي انساق وراء نشاطاته الدينية،

تجاهل مستعمراته وحلفاءه في كنعان، وهذا ماأتاح للحثيين والحوريين أن يطلقوا جيوشهم ويستولوا على كنعان.

مايزال ثمة حدث غريب آخر وهو استلام الملك الحثي بعد موت أخناتون وصهره توت عنخ آمون بزمن قصير جداً رسالة من مصر. ويدور سجال حول ماإذا كانت نفرتيتي أو ابنتها أنخيس آين آمون قد أرسلتها إليه. في الرسالة تعرف الكاتبة نفسها بأنها ملكة مصر. وتطلب من الملك الحثي أن يرسل إليها أحد أبنائه لتجعله زوجها.

كان الحثيون وأيضاً الأمم الحاكمة الأخرى من الهندوأوروبيين متورطين في حروب وسياسات عالمية. وفي ظل الملك مورسيلس غزا الحثيون بابل قرابة عام ١٦١٠ قبل المسيح، ومع أن مورسيلس اغتيل آنئذ فإن الكاشيين استولوا على مقاليد الحكم. والدولة الحورية في ميتاني سيطرت بدءاً من هذا التاريخ تقريباً على آشوريا لعدة قرون، بينما غزا الكاشيون المدينتين السومريتين القديمتين أور وأريك.

* * *

من القرن العشرين حتى القرن السادس عشر قبل الميلاد، تبين وظهر التمزق البدوي المستمر. ويعزى هذا عموماً إلى الحرب البدوية المحلية. لكن البروفسور أولبرايت الذي يصف دخول الهندوأوروبيين إلى أرض كنعان بأنه «حركة هجرة» يخبرنا أن «الأمراء والنبلاء الهندوآريين والحوريون في القرن الخامس عشر قبل المسيح كانوا قد وطدوا أنفسهم في كل مكان تقريباً. ونادراً ما يشار إلى هذا التمزق البدوي على أنه قد يكون نتيجة الغزوات الأصلية التي قامت بها تلك القبائل الهندوآرية والحورية إذ دخلت البلاد وخاضت المعارك إلى أن صارا مقبولين كحكام. يكتب فيونركيلر واصفاً الرسائل التي عثر عليها في أرشيفات أخناتون في العمارنة «مع أنها قد تكون سليمة تماماً فإن ثالثة هذه المراسلات الأميرية من كنعان ذات نسب هندوآري».

غالباً مايستخدم اسم بعل كاسم لزوج ذكر للربة في مدينة أوغاريت الكنعانية في القرن الرابع عشر قبل المسيح وزوج عشتاروت في الحقبة التوراتية في جنوب كنعان بعد موسى (قرابة عام ١٢٥٠ - ٥٨٦ قبل المسيح) وقد نجد أصولها أيضاً في اللغة الهندوأوروبية. فبحلول القرن الرابع عشر كانت النسبة المئوية الأكبر من السكان في مدينة أوغاريت لصالح الحوريين. وقد استخدمت النصوص الحثية والحورية الشارة نفسها لبعل كما فعل الأكاديون. ففي السنسكريتية كلمة بالا تعني تماماً ماتعنيه كلمة ثورا أي ثور وقوي أو شديد. لقد استخدم هذا الاسم مع الفصائل المسلحة. وقد يساعدنا هذا في

تفسير الدور المزدوج لبعل. فهو كرب عاصفة هندوأوروبية في أوغاريت يلعب دور رب جبل سافون، طالباً من عنات أن تبني له معبداً خاصاً به. وقد أشارت إلى جبل سافون أيضاً أسطورة كاماربي الحثية. وفي العصور الكلاسية اشتهر باسم جبل كاسيوس ووصف على أنه مكان المعركة التي دارت رحاها بين زيوس والأفعوان تيفون الذي طبقاً لليجندة اليونانية ولد في كهف جبلي في كيليكيا بالأناضول حيث هاجمه زيوس أول مرة. ومن المهم أن نعرف أن الجبل البركاني الواقع شمال بحيرة «فان» مايزال يعرف بجبل صوفان مع أن جبل سافون بعل يوصف عامة بأنه سافون القريب من أوغاريت (يعرف اليوم باسم الجبل الأقرع). وكما أصبح حور اسماً استخدم ليدل على ابن الربة إيزيس في مصر، فإن اسم بعل على مايدو قد استخدم ليحل محل اسم تموز كزوج للربة مع أن اسم تموز ظل يستخدم حتى عام ٦٢٠ قبل المسيح في أورشليم.

وقد اعتبر إله ذكري آخر لأوغاريب عرف باسم إيل زوجاً للربة المعروفة باسم أشيرا ويظن أنه جزء من ديانة الربة جاء من الأزمنة الموغلة في القدم. ومع ذلك نحن نشك مرة أخرى بطبيعة إيل في أوغاريت لأن النصوص هناك تشير باستمرار إليه باسم ثور - إيل مما يدل على روابطه مع إله العاصفة الهندوأوروبي أيضاً.

اللوفيانيون أو اللوفيشيون أو اللوفيتيون:

بالقرب من الأرض الحثية في الأناضول قامت مجموعة أخرى من الهندوأوروبيين عرفت باسم اللوفيانيين أو اللويانيين أو اللافيين أو اللاويين وذلك حسب الترجمة. عاش بعض اللوفيانيين جنوب الحثيين مباشرة في إقليم عرف باسم كيليكيا، القريبة من جبل طوروس. وكانت هذه المنطقة تشبه تماماً المنطقة التي فيها ازدهرت عبادة الربة في كاتال حيوك ذات مرة. ومنذ أمد طويل واللوفيانيون يعتبرون جزءاً من الأمة الحثية، ولكن في العقود القليلة الأخيرة فقط اتضح وجودهم باعتبارهم مجموعة منفصلة.

لم يعرف إلا القليل جداً عن هؤلاء الناس باستثناء أنهم كانوا المؤلفين لما يشار إليه منذ أمد طويل باسم الهيروغليفية الحثية، وهي كلمات تصويرية ظهرت في النصب الملكية وفي نصوص قليلة. وكان من الصعب جداً حل رموز هذه الهيروغليفية، فحتى اليوم مايزال بعضها سراً.

تقدم تواريخ مختلفة للدخول اللوفياني إلى الأناضول. فأولبرايت يكتب أن «اللوفيانيين احتلوا آسيا الصغرى الجنوبية ليس بعد بداية الألف الثالث قبل المسيح». وفي «تاريخ كمبردج القديم» يتخيل ساغس التاريخ بعد ذلك فيقول «الاستنتاج أن

اللوفيانيين تغلغلوا في الأناضول الغربية من عام ٢٣٠٠ قبل المسيح هو استنتاج غير محتمل بحد ذاته». ويتفق البروفسور لويد مع كورسلاند قائلاً «قرابة عام ٢٣٠٠ قبل المسيح اكتسحت الأناضول موجة كبيرة من الهندوأوروبيين الذين يتحدثون لهجة عرفت باسم اللوفيانية... وقد ترافق انتصارهم بالدمار الشامل...».

ويزعم بعض المؤلفين أن اللوفيانية تعتبر لغة مهجورة قياساً للحثية. وقد جاءنا اسم لوفيان من خلال النصوص الحثية التي أشارت إلى البلاد التي عاش فيها أولئك الناس باسم لوفيا واشارت إلى لغتهم باسم لوفيلي. وكما جرى مع الحثيين إذ سموا حثيين وكما جرى مع الحوريين فسموا حوريتيين كذلك قد يكونون سموا لويانيين أو لوفيانيين. ويشير إليهم الأركيولوجيون الفرنسيون باسم اللوفيتيين. ويسميهم الألمان لوفيشن. وقد يكون اسمهم الحقيقي عاملاً هاماً، كما سوف أشرح في الفصل التالي.

خبراء اللغات يصفون اللوفيلية بأنها لغة هندوأوروبية، مرتبطة كثيراً بالحثية. إنها مثل هيروغليفية تلك الشعوب التي ترجمت ترجمة تدريجية حتى صرنا نعرف القليل عنها. كتب البروفسور هانزغوتربوك، المختص بالحثيات في عام ١٩٦١ «علينا أن نفترض أن اللوفيانيين خلقوا شعباً يتكلم لغة أخرىولكن هذه اللغة ظلت غير معروفة وغير مسماة. واللغة المكتوبة بما يسمى الهيروغليفية الحثية ليست شيئاً سوى لهجة لوفيانية».

بسبب مشكلات حل الهيروغليفية والوضع البائس لما اكتشف منذ أمد طويل ومحدودية المادة نفسها فإنه لم يعرف إلا القليل عن الديانة الليوفيانية. نعرف أن الإله الأكبر كان رب العاصفة الذي يشبه اسمه اسم الرب الحثي ثارو. في اللوفيانية سمي تاهوند أو تارهوننا أو ثارهويس. ويخبرنا غوتربوك أنه لم يتم العثور على مادة ميثولوجية في الهيروغليفية وأنها في معظمها ذات سمة صوتية. وهذا مايشير إليه بأنه «النمط السحري» وهو «رقي وتعاويذ تدخل في النصوص الطقسية». هذه السيطرة للمادة الدينية في هيرغليفيتهم المهجورة، بينما رسائلهم الأخرى في الكتابة كانت متاحة، يشير إلى أن اللوفيانيين قد يكون لديهم طائفة كهنوتية مثل البراهميين في الهند أو كتبة الكهان عند رع في آنو مصر. وهناك دلالات أخرى تؤكد هذا الاحتمال بما فيها حقيقة أن المدارس الكتابية أنتجت الأساطير بالحورية والحثية والأكادية التي يبدو أنها استقرت في الديار اللوفيانية في كيزواتنا.

ويرى غوتربوك أن «كيزواتنا، الإقليم الموجود في الجنوب الشرقي، بما فيه سهل كيليكيا، كان المقاطعة الحثية التي لابد أن تكون المدارس الكتابية الحورية قد ازدهرت فيها ازدهاراً كبيراً. وهو يزعم هذا على أساس حقيقة وجود الكثير من الكلمات اللوفيانية الدخيلة في نصوص كتبت باللغة الحثية ولكنها تعالج أساطير حورية. ولكن بالمقابل يحتمل أيضاً أن يكون اللوفيانيون هم أنفسهم الذين قاموا بهذه الترجمات.

ليس هناك إلا القليل عن اللوفيانيين مالم يظهر المزيد من تفسيرات الهيروغليفية أو يظهر الكثير من المكتشفات. إلا أن دورهم في التاريخ الديني قد يكون فائقاً كما سوف أشرح ذلك في الفصل التالي الذي يتابع اختبارنا للثقافات الأبوية التي دمرت تدريجياً ديانة الربة.

الفصل الخامس

واحد من عرقهم

على غير ماقد يتراءى، فإن المجموعة التالية من الناس الذين سوف ندرس ارتباطهم بالهندوأوروبيين هم العبريون. وكما يقول جورج مندنهال «لايمكن أن تعامل إسرائيل القديمة كموضوع مستقل منعزل في الدراسة، لأن تاريخها مرتبط ارتباطاً لاينفصم بالتاريخ الشرقي القديم سواء ما تعلق بالدين أو التاريخ السياسي أو الثقافة».

كما يعلق مندنهال أن «الفرضيات قائمة على بحث سليم وعلى معالم عملية بارزة، فهي مبنية لاكبديل عن الوقائع وإنما لتضع الاحتمالات وترشد الدراسة المستقبلية. ومن روح هذا الموقف آمل أن يفهم ماسوف أقوله.

إبراهيم (اللفظ الأصلي ابراهام ـ المترجم) أبو القبائل العبرية والنبي الأول للرب العبري يهوه، إما أن يكون مرتبطاً بمجمع الهندوأوروبيين الذين عاشوا في مدينة أقربائه حران، أو أن يكون قد تأثر بهم. ومن المحتمل أن اسم الرب اليهودي/ المسيحي، المعروف في العهد القديم باسم يهوه وإن كان الآلف لنا هو اسم يهوفا، اشتق أصلاً من الكلمة السنسكريتية ياهفا وتعني المتدفق أبداً. وقد يكون اسم إبراهيم نفسه مرتبطاً باسم الطائفة الكهنوتية الآرية في الهند وهي البراهمية، والمواقف الأبوية للعبريين تشكلت، ليس من فراغ ثقافي كما هو شائع، وإنما من ارتباطاتهم بالغزاة الشماليين أصحاب الاتجاه الذكوري.

بالتأكيد لم يفكر أحد مطلقاً أن العبريين هندوأوروبيون، ومع الزمن استقروا في كنعان بعد إقامتهم في مصر، وقد تكون أغلبيتهم سامية. ومع ذلك هناك مجموعة بعيدة عن العبريين تحسب كقبيلة من قبائلهم. هذه المجموعة هي اللاويون الكهنة. وهذه بالتأكيد أعظم فرضية مناقضة يمكن أن تطرح، ولكن على مسؤولية ردود الفعل الدينية والعاطفية والأكاديمية السائدة سوف أطرح أن اللاويين قد يكونون بطريقة ما مرتبطين بالهندوأوروبيين وعلى الأخص باللوفيانيين أو الليوفياتيين أو اللوفينيين أو الليفيتيين حسب الترجمات التي تنقل الاسم. وعلى الرغم من الاعتقاد المقبول عالمياً

تقريباً أن العبريين كانوا دائماً شعباً سامياً بمجموعه، فإن ثمة من الأدلة المثيرة تدل أن ارتباطاتهم بالهندوأوروبيين يجب على الأقل أن تدرس في هذا المسار.

من المهم قبل أن نقطع شوطاً بعيداً أن نتحقق أن أقدم نصوص العهد القديم بالعبرية هي النصوص التي عثروا عليها في قمران، ويرجع تاريخها إلى قرنين أو ثلاثة قبل المسيح. وأقدم نسخة قبل هذه المكتشفات هي الترجمة اليونانية التي تعود إلى هذه الفترة ذاتها. وأقدم نصر عبري متاح قبل مكتشفات قمران كان قرابة القرن العاشر بعد المسيح. واستقراء للمفردات والبنية اللغوية وأسماء الأمكنة والناس يعتقد عموماً أن ذلك الجزء من العهد القديم المعروف بالتاريخ اليهوي كتب قرابة عام ١٠٠٠ قبل المسيح، بينما بقية الأقسام المعروفة باسم الكهنوتي كتبت قرابة عام ٦٠٠ قبل المسيح.

ولابد لنا من أن نأخذ بالحسبان أن التوراة كما نعرفها هي نتيجة كثير من التغيرات عبر القرون، وهذا عامل يظهر الدليل عليه من المقاطع المتناقضة. ويلاحظ البروفسور أدوارد شيرا:

«في مسألة التوراة، إلى جانب عملية التوسع هذه التي ترتبط بكل النتاج الأدبي للآثار القديمة، هناك مسألة أخرى واتجاه آخر مناقض وهو بالتحديد الرقابة الغيورة من قبل الكاهن الذي لايريد أن يشتمل الكتاب على موضوعات أو شروحات لاتتفق مع مفهومه الخاص إما عن الله وإما عما يلائم تاريخ مؤسسي العرق، والذي بكل تقوى ولكن بقسوة لا رحمة فيها يجتث ما لا يستحسنه».

أيضاً يكتب جورج ودنغرين بروفسور اللغات الشرقية في جامعة ابسالا في السويد أننا «يجب ألا نغض الطرف عن حقيقة أن العهد القديم كما وصل إلينا في الشريعة اليهودية هو عبارة عن جزء واحد فقط ـ ولا نعرف حتى إذا كان الجزء الأعظم ـ من أدب إسرائيل القومي. وعلاوة على ذلك فإن هذا الجزء الباقي كما يبدو واضحاً قد تعرضت مقاطع كثيرة فيه للرقابة وطهّرت حسب المقتضى».

الهندوأوروبيون في سفر التكوين:

الباحثون في التوراة يتفقون على أن تاريخ إبراهيم يرجع إلى ١٨٠٠ ـ ١٧٠٠ قبل الميلاد. ولكن الكثيرين من هؤلاء الباحثين أنفسهم يحددون تاريخ موسى قرابة عام ١٣٠٠ أو ١٢٥٠ قبل المسيح. ولو تقصينا بدقة الأجيال كما وصفت في التوراة لوجدنا أن هناك سبعة أجيال بينهم هذان الشخصان الأبويان. أو حتى أربعمائة سنة تبدو زمناً طويلاً لسبعة أجيال. وبما أن تاريخ موسى قائم على دليل تاريخي ويفضي

بصورة مباشرة إلى مزيد من السجلات التاريخية لشاول وداود وسليمان فإني سأضع إبراهيم قرابة عام ١٣٥٠ قبل المسيح. وبوضع موسى في عام ١٣٠٠ قبل المسيح فإن الزمن يسمح لنا بأكثر من أربعين سنة بين كل جيل، وباستخدام القوائم التوراتية ذاتها للأجيال، إلا إذا افترضنا أن هناك أسماء محذوفة، وبتخصيص خمس وثلاثين أو أربعين سنة لكل جيل، نجد أنه حتى الشخصية الأولية لنوح الذي هو الجيل العاشر قبل إبراهيم سيكون تاريخه قرابة عام ٢٠٠٠ ـ ١٩٠٠ قبل المسيح، وهذا تاريخ يتفق مع زمن وصول الهندوأوروبيين إلى الشرق الأدنى.

يخبرنا العهد القديم أن إبراهيم عاش في أور الكلدانيين. وهناك اتفاق عام على أنها مدينة أور في سومر التي تبعد خمسة أميال تقريباً عن أريدو. وبعد الإشارة الأولى إلى أور يشار باستمرار إلى حرّان باعتبارها بلاد إبراهيم، بلاد عشيرته وبيت أبيه. وتقول التوراة بعد أن يترك أور «فأتوا حران وأقاموا هناك» (تكوين ١١: ٣٢) ولكن في حران «قال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك» (١٢: ١). بعض باحثي التوراة يرون أنه مادام هناك مدن في ذلك الوقت تسمى أوركيش وأوروك وأورا وأورفا وأسماء أخرى (أور تعني قديم أو عظيم) فلابد أن تكون واحدة من هذه المدن هي أور التوراتية. وبما أن حران لاتبدو وطنه الفعلي ومدينة عشيرته، ويبدو هذا الربط أوضح في قصتي اسحق ويعقوب، فقد نظن حتى أن إبراهيم أو أسرته انتقلت من حران إلى أور في زمن قديم نوعاً ما. ونحن نعلم أنه كان هناك حوريون في نيبور قرابة عام ٢٣٠٠ قبل المسيح. وفي كل الأحوال فإن التوراة تشير إلى أن إبراهيم انتقل من أور إلى حران مع زوجته وأسرته.

إن المعلومات عن الغزوات الهندوأوروبية جعلت من الواضح أنه حتى عام ١٨٠٠ قبل المسيح انتقل كثير من الحوريين إلى المنطقة التي عرفت تدريجياً باسم ميتاني. كانت حران قائمة في وسط المملكة. فاسم المدينة نفسه ناتج من موقعها في الديار الحورية، فهي ليست بعيدة عن الاستيطان الحوري القديم في أوريك، الذي يرجع تاريخه إلى عام ٢٤٠٠ قبل المسيح. فعلاقة إبراهيم بهذه المدينة قد يكون مشاراً إليها في أسماء أقربائه. فجده وأحد إخوته كلاهما سمي ناحور. واسم أخيه الثاني حاران.

وخلال التوراة، وبالأخص في سفر التكوين، توجد إشارات إلى الحثيين والشعب الحوري، وهم من المرتبطين جداً بأسرة إبراهيم. فنحن نقرأفي سفر التكوين ٢٣: ٦ أنه فيما بعد كان إبراهيم في كنعان، فاحتاج إلى مكان يدفن فيه زوجته سارة. والآن عندما يدفن الناس موتاهم فإنهم يسعون عموماً للعثور على أرض مخصصة أو على

الأقل مألوفة. لذلك من الغريب أن الإنسان الذي تقدم منه إبراهيم لاستخدام أرضه لدفن سارة كان عفرون الحثي. والأغرب من ذلك كان جواب عفرون عندما دفع له إبراهيم ثمن الأرض. قال الحثي لإبراهيم «اسمعنا ياسيدي أنت رئيس من الله بيننا. في أفضل قبورنا أدفن ميتتك» (تكوين ٢٣: ٦). والقصة نفسها عن الأرض في الديار الحثية استخدمت مرة ثانية عندما مات إبراهيم. وحتى حفيده يعقوب قبل أن يموت في مصر طلب من أبنائه أن يحملوا جسده ويعودوا به إلى كنعان لدفنه في الأرض التي اشتراها إبراهيم من عفرون الحثي.

كان اسحق ابناً لإبراهيم. وكان لاسحق ابنان يعقوب وعيسو. وعندما حل أوان اختيار زوجة لاسحق أرسل إبراهيم خادمه إلى حران للبحث عن ناحور ابنة أخي إبراهيم. وكذلك مرة أخرى عندما تزوج يعقوب كانت حفيدة ناحور هي التي اختيرت، وأيضاً من حران. وقد تزوج زوجتين. الأولى كان ابنة ايلون الحثي والأخرى ابنة زيبيون الحوري. ثم انتقل عيسو مع أسرته إلى منطقة في كنعان عرفت في التوراة بـ «بلاد سعير الجبلية، أرض الحوريين». في قائمة الأجيال (السلالات) الكثيرة في الكتابات التوراتية نقف على قائمة أنساب عيسو، ولكن الغريب جداً أننا نتعاطى قائمة عن أنساب سعير الحوري، جد زوجة عيسو.

معظم هذه الروابط مع الحثيين والحوريين حصلت في سفر التكوين، السفر الأول في التوراة. فيما بعد، في سفر حزقيال نقرأ مرتين توبيخاً لبني إسرائيل عندما يقول حزقيال «كان أبوكم عمورياً وكانت أمكم حثية». وهذا يدل أن سارة هي التي كانت هندوأوروبية أو حتى أم إبراهيم التي لوحظ غيابها خلال سفر التكوين. ولا شك أنه لايوجد دليل استنتاجي عن الروابط الدقيقة لكن الاشتراك المتكرر لأسرة إبراهيم مع الشعب والأمكنة التي نعرف أنها مرتبطة بالمماليك الهندوأوروبية، في الوقت الذي وجدت فيه تماماً، يجب أن يؤخذ في الحسبان من دون شك.

بعض الروابط:

ومشابهة غريبة أخرى هي العادة العبرية في الزواج السلفي (زواج الأرملة من سلفها، أي شقيق زوجها ـ المترجم) أي القانون الذي يفرض على أرملة الرجل أن تتزوج من شقيق زوجها، فإن لم يوجد فمن حميها. يكتب البروفسور غوردون «بما أن هذا ظاهر جداً في الهند القديمة وظهرت فجأة في الشرق الأدنى فقط في بداية الغزوات الهندوأوروبية، فمن الواضح أنها أدخلت، أو على الأقل صارت عادة شعبية

على يد الهندوأوروبيين». ويناقش البروفسور غورني أيضاً هذه العادة من الزواج السلفي بين الحثيين ويعلق قائلاً «القانون يشبه شبهاً ملحوظاً قانون العبريين في الزواج السلفي». إن شيئاً وثيق الصلة بالبيت كالزواج السلفي لم يكن عادة هكذا تتبنى بكل بساطة وإنما هي عادة تضرب بجذورها في أعماق المجتمعات التي تمارس فيها.

ومنذ أمد طويل استنتج البروفسور غوردون العلاقة الوثيقة بين الهندوأوروبيين والعبريين في ميدان الأدب واللغويات والعادات. ومع أنه لم يقدم علاقة وثيقة كما قدمت أنا آنفاً فإنه يقول «نستطيع الآن أن نعرف لماذا كان العبريون والإغريق هم الذين برزوا كأول مؤرخين في الغرب. كلاهما بدأسيرته التاريخية على أساس حثي». كما يشير روبرت كريفز أيضاً إلى علاقة وثيقة بين العبريين والمفاهيم والآداب الإغريقية الهندوأوروبية حتى أنه يدافع عن موقفه بالتعليق أنه ليس «إسرائيلياً بريطانياً».

كما أشرت من قبل فإن العبريين احتفظوا بذكر أسطورة المعركة بين يهوه واللوياثان، مع أن القسم الأعظم قد نحي فيما بعد، والأرجح أنه نحي في زمن إضافة ليجندة آدم وحواء، في سفر أيوب ٣٦: ١٣ وفي المزمور ١٠٤ مانزال نقرأ أن يهوه دمّر الحية البدائية. في المزمور ٧٤ أيضاً نجد: « أنت شققت وحش البحر إلى شقين (كما فعل مردوخ) وحطمت رأس حية البحر فوق المياه. وسحقت اللوياثان المتعدد الرؤوس» (جاء في المزمور ٧٤: ١٣ ـ ١٤نقلاً عن الترجمة العربية: أنت شققت البحر بقوتك. كسرت رؤوس التنانين على المياه. أنت رضضت رؤوس لوياثان ـ المترجم). في هذا العصر أيضاً ظهر هذا الأفعوان اللوياثان في نصوص أوغاريت شمال كنعان باعتباره عدو بعل رب العاصفة. ومع أننا لانعرف بعد إذا كان حكام أوغاريت، التي تبعد بضعة أميال جنوب أرض الحثيين واللوفيانيين، هم من الهندوأوروبيين، إلا أنهم كانوا في علاقة صداقة حميمية جداً مع ملوك الحثيين. ولا نعرف إذا كان في أوغاريت عدد كبير من الحوريين في الزمن الذي كتبت فيه النصوص، قرابة القرن الرابع عشر قبل المسيح. والد بعل في أوغاريت هو داغون. وداغ ماتزال كلمة مستخدمة في تركيا لتعني الجبل. إن نصوص أوغاريت تصف اخضاع بعل للتنين لوتان أو لاوتان أو اللوياثان. وكما أشرت من قبل فإن لات أو إيلات بالكنعانية تعني الربة. ويظهر الاسم مرة ثانية في الأسطورة اليونانية الهندوأوروبية عن هرقل الذي يقتل الأفعوان لادون، الذي قيل إنه يحرس الشجرة المقدسة للربة.

إن الأوصاف التوراتية لإخضاع يهوه للحية البدائية قد يكون بكل بساطة نسخة أخرى للقصة الشائعة الآن عن الإله الذكر الهندوأوروبي وهو يدحر حية الظلام، الربة.

وبعد عصر موسى حتى سقوط الدولتين العبريتين يبدو أنّ العبريين الذين احتقروا اسم بعل باعتباره اسماً لرب العاصفة تمثلوه في ديانة الربة في دور تموز الابن/ العاشق. في اللغة الأكادية كلمة بعل تعني السيد كما أن بعلة تعني السيدة. وقرابة عام ١٠٠٠ قبل المسيح ارتبط بعل ارتباطاً وثيقاً بعشتوريت (عشتاروت ـ المترجم) باعتباره زوجها. ولكن في عصر الدخول الأول لاسم بعل في أوغاريت (من الممكن أن يكون أصله بالا بالسنسكريتية التي تعني الجبار) عصر لم يكن قد اتخذ لنفسه معبده الخاص، كان هو ويهوه إلهاً واحداً. نقرأ في النصوص الأوغاريتية «يابعل ها هم أعداؤك هاهم أعداؤك الذين سوف تسحقهم». وفي المزمور التوراتي ٩٢ نجد «لأنه هوذا أعداؤك يارب لأنه هوذا أعداؤك يبيدون». وفي أوغاريت كان يشار إلى بعل على أنه ممتطي الغيوم. وفي المزمور ١٠٤: ٣ يوصف يهوه بأنه يستخدم الغيوم لمركبته.

ومايزال هناك مقطع ملغز آخر في التوراة قد يكشف عن نفسه كمرجع للارتباطات الهندوأوروبية المبكرة. فإذا انتبه المرء أن الآريين نظروا إلى أنفسهم على أنهم عرق متفوق على الناس الذين أخضعوهم وحكموهم، فربما يفهم المقطع انعكاساً لهذا الموقف. ففي القسم الأول من التوراة (التكوين ٦: ٢ ـ ٤) كتب: «حدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا... في تلك الأيام وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء هم النفليم (الجبابرة) الذين منذ الدهر ذوو اسم».

هذا المقطع الذي برز جداً في التدفق الجاري للأسفار يدل أن رجال فضاء هبطوا ليكونوا مسؤولين عن تطور الثقافة البشرية، فيشير إلى صورة الآريين أنفسهم باعتبارهم أضخم أبداناً، وباعتبارهم في ذلك الوقت العابدين الوحيدين لرب النور على قمة الجبل، بالمقارنة مع سكان المتوسط الصغار عابدي الربة. هذا التهجين الذي نعلم أنه كان يقابل بالاحتقار من قبل الكهنة الآريين، يبدو السبب الخفي للطوفان العظيم الذي لم ينج منه سوى نوح وما حمل في فلكه من أقاربه.

ويظهر الأدب الإيراني بعد أربعة قرون من المرحلة التي سميت الأقسام اليهوية في العهد القديم مترافقة في آن مع الأقسام الكهنوتية. والتشابهات بين الأساطير العبرية والأساطير الإيرانية قد يكون نتيجة التواصلات في تلك الفترة (قرابة ٦٠٠ قبل المسيح) مع أنه من الصعب تقرير أي ثقافة هي الأصلية. لكن هناك احتمالاً وهو أن كلتا الثقافتين انحدرتا من الفكر الديني الهندوأوروبي. في نصوص بهلوية لعام ٤٠٠ قبل

المسيح، القائمة على الآفستا ٦٠٠ قبل المسيح يوصف خلق الكون بأنه جرى في سبعة أيام. وهذا يتفق اتفاقاً غريباً مع السجل العبري. أولاً السماء ثانياً الماء ثالثاً الأرض رابعاً النبات خامساً القطعان سادساً الإنسان وفي اليوم السابع كان أوهرمازد (أهورامزدا) نفسه. فالسجل مشابه تماماً، وحتى في حال اختلف فإن المرء يفترض أنه لم يكن أخذاً مباشر بل هذا الاختلاف كان نتيجة خطين من التطور انبثقا أصلاً من المصدر الأقدم ذاته.

وهناك نص آخر في الأسفار البهلوية يعالج النظرة الهندوإيرانية للمرأة الأولى، عرفت باسم جيه «ملكة الأبالسة البغايا». وتتبنى القصة خصائص ليجندة آدم وحواء من حيث أنها جعلت جيه تظهر في الخلق بصحبة الشيطان (اهرمان). في هذه الرواية للقصة لانجدها تحادثه وإنما تتواصل معه جنسياً كبديل عن الكلام. ثم تسرد القصة عنها أنها انضمت إلى الشيطان إلى درجة أنها دنست بعد ذلك كل النساء، اللواتي بدورهن سوف يدنسن كل الرجال. ثم تخبرنا القصة «بما أن النساء خاضعات للشيطان فإنهن سبب الدنس في الرجال». لاشك أنها ليست القصة ذاتها ولكن لاشك أن الفكرة الكامنة هي ذاتها والموقف هو ذاته. وفوق ذلك يمكن أن نسأل لماذا يجب أن تكون قصص العبريين تسير جنباً إلى جنب مع قصص الإيرانيين الهندوأوربيين.

وهناك قصة ذات مقابل توراتي هي قصة رجل إيراني يسمى ييما. يحذره أهورا أن دماراً سوف يحل على العالم بشكل طوفان، لأن الشعب قد أخطأ. ويعلمه أن يبني فارا، وقد ترجمت كلمة فارا بكلمة قلعة. وطلب منه أن يحضر إلى هذه الفارا ناراً وطعاماً وحيواناً وبشراً - زوجاً من كل نوع. على أن الليجندة القديمة لطوفان عظيم لم تبرز فقط في الأدبين الإيراني والعبري بل برزت أيضاً في ليجندة سومرية قديمة. والشائع هو افتراض أن العبريين استعاروا الليجندة من السومريين. ولكن سجل الطوفان قد عرفه «العرق الجبلي» الذي وصل قبل مرحلة جمدة نصر في سومر بقليل، وربما رويت اللجندة كذاكرة أسطورية لوصول أجدادهم إلى الأرض الجبلية في آراتا. وقد تكون ترافقت فيما بعد بوصولهم الخاص إلى سومر، وربما أدى وصف هطول المطر الغزير على تلك المنطقة في ذلك الزمن إلى البيت: «إن غمر إنليل قد حلّو الأرض قد تجددت». ومع ظهوره في الأساطير السومرية ربما يكون قد ظل في ذاكرة أولئك الذين أقاموا فيما بعد في أراتا (أرارات؟) وتواصلوا تدريجياً بنوح جد إبراهيم وأيضاً بالإيراني ييما.

ويزداد الشبه كثيراً عندما نتحقق أن سومر لاتملك مرتفعات عالية، فلا جبل تستقر عليه السفينة (وهو ما ادعاه السومريون). فالرواية العبرية تصف استقرار السفينة في أرارات نفسه. وجبل أرارات معروف بالاسم حتى هذا اليوم. إن ذراه ترتفع فوق كل الجبال تقريباً، فتصل إلى ارتفاع يقدر بـ ١٧٠٠٠ قدم تقريباً. ومكانه في أقصى القمة الشرقية لتركيا بالقرب من الحدود الإيرانية الروسية، في أرض كانت تعرف باسم أراراتو التي هي الاسم ذاته أرارات. والحقيقة أنه يحازي نهر الأراكس الذي يصب في بحر قزوين. وقد نجد من المهم أيضاً أن العبريين يزعمون أن نوحاً، الجد الأول للعبريين، انطلق من المنطقة نفسها تماماً بعد الطوفان، التي اتضح تاريخياً أن الهندوأوروبيين انطلقوا منها ودخلوا الأناضول.

تشابه آخر بين ليجندات التوراة وليجندات سومر فيما يتعلق بقنوات الري. وتسجل التوراة أنه بعد أن خلق يهوه العالم لم تكن هناك نباتات لأنه لم تكن هناك مياه. ونقرأ في سفر التكوين ٢: ٦ «ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض». في ليجندة ديلمون، الفردوس السومري، كان هناك نقص في المياه، فلم تظهر نباتات. عندئذ أمر أنكي رب أريدو أن تصعد المياه من الأرض وتسقي التربة. وفي أسطورة توطيد أنكي للنظام العالمي نقرأ أيضاً عن نشاطات أنكي في بناء القنوات. كل هذه القصص تصف أرضاً لايوجد فيها إلا القليل من الأمطار أو لاينزل فيها مطر. يجب أن تخرج المياه من الأرض. وهذا هو بالضبط الوضع في أريدو العبيدية، حيث كانت أول مكان تتطور فيه قنوات الري ـ وروايات هذه الفترة ظلت تروي لمدة ألفي سنة، في بداية الألف الثاني في سومر. وأيضاً يمكن أن نخمن أنهم شقوا طريقهم خلفاً إلى أراتا، مهتمين بالتواصل الدائم بين المكانين.

وارتباطات موسى ويوسف وإبراهيم مع الملكية المصرية تعتبر عاملاً هاماً في العلاقة بين العبريين والهندوأوروبيين. وكما أشرت من قبل، خلال فترة الأسرة الثامنة عشرة كلها (قرابة ١٥٧٠ ـ ١٣٠٠ قبل المسيح) توجد سجلات عن الأميرات الحثيات والحوريات اللواتي أرسلن إلى الملوك المصريين كزوجات لاشك للتغلغل في أنماط السلالة الأمومية. وأثناء هذه الفترة ذاتها لانجد كاهنات في المعابد المصرية، وكلمة بارو (فرعون) طبقت فقط على الملك أكثر مما طبقت على البيت الملكي. وأيضاً أثناء هذه الفترة حدثت ثورة أخناتون الدينية فأتاحت للجيوش الحثية والحورية أن تبسط سيطرة أعظم في كنعان، وثالثة الرسائل التي وجدت في أرشيف قصر أخناتون كانت من أمراء بأسماء هندوإيرانية معروفة.

وبذا نجد أن من المهم، وفقاً للتوراة، أن «تتبنى» ابنة فرعون موسى، وقد قيل إنها وجدته طفلاً. ونقرأ في سفر الخروج ٢: ٥ - ١٠ أن ابنة فرعون هي أول من عثر عليه وقدمته لامرأة قيل إنها أمه الحقيقية لتعتني به كما تعتني الأمهات بالأطفال «ولما شب الطفل احضرته إلى ابنة فرعون التي تبنته وسمته موسى». كثير من فراعنة الأسر السابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة لهم أسماء كهذا الاسم مثل كاموس واموس وتوتموس ورامسيس. إنه لشيء غريب أن ابنة فرعون أعطت هذا الطفل «اللقيط» اسماً ملكياً.

ولكن حتى قبل موسى هناك يوسف، وهو ابن آخر اتصل اتصالاً وثيقاً بالملكية المصرية. قيل إنه حصل على مركزه بسبب قدرته على تفسير الأحلام. ونقرأ في سفر التكوين ٤١: ٤١ «ثم قال فرعون ليوسف انظر قد جعلتك على كل أرض مصر».

وحتى إبراهيم قبلهما يبدو أنه كان وثيق الصلة بالملكية المصرية. في سفر التكوين ١٢: ١٠ - ٢٠ أيضاً يجد إبراهيم وساره نفسهما في مصر والسبب كما قيل وجود مجاعة في أرض كنعان. لكننا نعلم هذه المرة أن إبراهيم طلب من سارة أن تدعي أنها أخته. والأرجح بسبب جمالها فأخذت إلى قصر فرعون كزوجة له.

وأيضاً لايوجد لدينا دليل حاسم مادامت التوراة لاتشير إلى الفراعنة بأسمائهم الخاصة. ولكن مرحلة إبراهيم ويوسف قد تكون أثناء عصر الأسرة الثامنة عشرة، بينما مرحلة موسى لابد أن تكون بعد ذلك بقليل. أيضاً ربما نسأل إذا كان هناك اتصال محتمل هذه المرة بين الأميرات الهندوأوروبيات وأولئك الذين صحبوهن والسجلات التوراتية لإبراهيم ويوسف وموسى كلها متعلقة بفراعنة مصر في تلك الفترة الخاصة.

الآلهة والجبال المتقدة:

شيء محير آخر ربما كان الأهم ويكشف الارتباط بين الهندوأوروبيين والعبريين وهو رمزية الجبل وعلى الأخص النور العظيم المتقد على الجبل. فالهندوأوروبيون عبدوا آباءهم القدماء «الذين يحلقون في ممالك النور الأبدي». كان اندرا رب الجبال وتوصف ممتلكاته بأنها ذهبية. ويقال إن اهورا الهندوأوروبي كان يتقد ويتوهج جالساً على قمة جبل حورا. وكما أشرت من قبل فإن كلمة حارا تعني بالإيرانية الهندوأوروبية الجبل.

قصة موسى في النصوص العبرية مترافقة دائماً مع جبل سيناء الموجود في الطرف

الجنوبي لشبه جزيرة سيناء. ولكن في كثير من الإشارات التوراتية إلى الجبل الذي عليه كلم موسى يهوه تشير إلى أن الجبل هو جبل حوريب. وقبل أن يقود موسى العبريين خارج مصر وجد هذا الجبل. فنحن نقرأ في سفر الخروج ٣: ١ أن موسى عندما كان وحده في الصحراء قبل زمن الخروج «جاء إلي حوريب، جبل الله». وبعد الخروج والصعود المألوف لموسى في جبل سيناء نقرأأيضاً «فلا تنس اليوم الذي وقفت فيه أمام الرب إلهك في حوريب» (تثنية ٤: ١٠) وفي تثنية ٤: ١٥ «يوم كلمكم الرب في حوريب من وسط النار».

وارتباط يهوه بالجبل أو باعتباره جبلاً يتضح في كل سفر المزامير، وهو من أقدم أسفار التوراة. وفي المزامير ٣١ و٦٢ و٧١ و٨٩ و٦٤ يشار إلى يهوه على أنه «صخرة حصن» وفي المزمور ٦٢ هو «صخرة خلاص» وفي المزمور ١٨ «صخرتي به احتمي» وفي المزمور ١٩ «صخرتي ووليي». ونقرأفي المزمور ٢٨ «ياصخرتي» وفي المزمور ٤٢ «الرب صخرتي» وفي المزمور ٧٨ جاء «وأدخلهم في تخوم قدسه هذا الجبل الذي اقتنته يمينه». وفي المزمور ٤٨ نعلم أن يهوه «على جبل قدسه». وفي المزمور ٩٩ يخبر كاتبه القارىء «اسجدوا في جبل قدسه». وفي المزمور ٩٢ جاء «الرب صخرتي». فإن لم يكن ثمة الكثير من الإشارات إلى الجبل فإننا نرى في هذا رمزاً ثابتاً، ولكننا نقرأ أيضاً عن الارتباطات الوثيقة والأهمية الكبيرة للجبل نفسه وليس كرمز.

في الخروج ٢٤: ١٧ لايوصف ظهور يهوه بأنه على قمة جبل بل على ذروة تشتعل ناراً. «وبدا وجه الرب للإسرائيليين مثل نار صاعدة على قمة جبل». وفي تثنية ٥: ٤ «وجهاً لوجه تكلم الرب معنا في الجبل من وسط النار». وفي المزمور ١٤٤ يطلب من يهوه «ابرق بروقاً وبددهم» وفي المزمور ١٠٤ يوصف يهوه بأنه «اللابس النور».

ونجد زيوس الهندوأوروبي ببرقه وصواعقه على قمة جبل الأولب. وبعل برمز البرق ذاته يستقر على قمة جبل سافون. ويصور أرباب الحثيين والحوريين دائماً بصواعق نارية في يدهم، ويقفون فوق جبل أو حتى جبلين. وأهورا يسكن بيته المتقد على قمة جبل حارا. فهل يهوه العبري الذي تكلم من خلال النار في جبل حوريب يعتبر صورة مختلفة ومفهوماً مغايراً لتلك الأرباب الهندوأوروبية؟ أم يعتبر مثل الأب الإيراني «الذي يسكن في النور المتوهج» كما صورته الفيدا؟ أليس غريباً أن الكلمة العبرية للجبل هي حار؟.

اللوفيتيون واللافيتيون:

مع أننا لاحظنا ارتباطات العبريين مع المجموعات الهندوأوروبية عامة، فمن الارجح أن يكون اللوفيانيون هم الذين ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بظهور الدين العبري. وهناك دليل أكثر يشير إلى أن اللوفياتيين (أو اللوفيتيون) هم أصل كهنة اللاويين عند العبريين.

النصوص اللوفيانية ماتزال غير مفسرة. وكما أشرت من قبل كان اللوفيانيون على صلة وثيقة بكل من الحوريين والحثيين وظل الأركيولوجيون زمناً طويلاً يعتبرونهم حثيين. وبدراسة النصوص النذرية والطقسية والتعويذية التي تعزى إليهم فإن اللوفيانيين كانوا طائفة منفصلة من الهندوأوروبيين، تشبه البراهميين في الهند. ويحق لنا أن نسأل لماذا استمروا في استخدام لغة هيروغليفية أقل مرونة في حين كانت الكتابات الأخرى متاحة ومستخدمة من قبل بقية الهندوأوروبيين، ولماذا استخدمت الهيروغليفية حصراً للطقوس النذرية وللكتابة على النصب الملكية. ويبدو أن كثيراً من المدارس الكتابية استقرت في ديارهم مما يشير إلى أن اللوفيانيين الذين استخدموا اللغات الحورية والحثية والأكادية للتعبير عن أفكارهم احتفظوا في الوقت نفسه باللغة الهيروغليفية القديمة باعتبارها طريقتهم في الكتابة الأكثر سرّانية (كما فعل العبريون بعد عصور طويلة باللغة العبرية).

وبين الهندوآريين هناك طائفة كهنوتية عرفت باسم البراهميين جعلت الأضاحي النارية أهم ركن من أركان دينها. ويكتب البروفسور نورمان براون عن البراهميين في القرن الرابع قبل المسيح، فيصفهم أنهم «... قوة مهيمنة للأضحية الفيدية التي يقدمها البراهميون طبقاً لطقوس شديدة التعقيد وتفرض سلطة لاتجارى». ويخبرنا أن «الإبراهيميين ضمنوا لأنفسهم كقيّمين وكموظفين رسميين لكل الطقوس الهامة، مركزاً متفوقاً أخلاقياً واجتماعياً على كل من العسكرية القديمة والأرستقراطية الحاكمة...».

ويكتب غوزيب سورماني أنه في الياجورفيدا السنسكريتية القديمة مجموعة من صيغ الأضاحي والصلوات الطقسية ترجع إلى مابعد الفيدا بقليل «فالكهنة يحكمون المجتمع وهم الأسياد حتى على الأرباب، الذين ينحنون لإرادتهم عن طريق الطقوس. والسلطة الكهنوتية للبراهميين كانت واضحة من قبل في هذه الفيدا».

ويمكن تطبيق هذه الأوصاف أيضاً على اللاويين العبريين كما تطبق على البراهميين. فإذا كان اللوفيانيون طائفة كهنوتية شبيهة بالبراهميين، ومجموعة منهم

عرفت فيما بعد باسم الطائفة الكهنوتية اللاوية للعبريين فإن هذه الرابطة تفسر المركز الفائق الذي حققه اللاويون بين القبائل العبرية.

وفقاً لأسفار التوراة المعروفة باسم الخروج واللاويين والعدد والتثنية، أي الأسفار الأربعة الأخيرة من الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، نرى أن اللاويين ظلوا مجموعة خاصة جداً. ويوصف موسى بأنه لاوي الأب والأم وكذلك أخوه هرون. في سفر العدد ٨: ١٤ نقرأ كلمات يهوه: «وتفرز اللاويين من بين بني إسرائيل فيكون اللاويون لي». وفي سفر العدد ذاته ١٨: ٢ يقول يهوه لهرون «وأيضاً أخوتك سبط لاوي سبط أبيك قربهم معك... وأنت وبنوك قدام خيمة الشهادة».

اللاويون فقط يقبلون أعضاء في كهنوت يهوه. موسى وهرون وأبناء هرون هم الكهنة الأعلون. والكاهن اللاوي الأعلى كان محظوراً عليه أن يتزوج امرأة أجنبية بل حتى امرأة من أي قبيلة عبرية. وحتى داخل قبيلته الخاصة لم يكن يتزوج أرملة أو مطلقة، والحقيقة أنه لم يكن يتزوج أي امرأة لها علاقة جنسية مع رجل آخر.

لم يكن يسمح لأحد سوى اللاوي أن يدخل خيمة الاجتماع حيث تقام عبادة يهوه. والشريعة تحذر بأن من يفعل ذلك يعرض حياته للخطر ويغامر بها. وعندما اجتاز العبريون صحارى سيناء قادهم اللاويون فظلوا طيلة رحلة النهار على رجسهم ليقرروا أين يكون المخيم التالي. ومع أنه في البدء قيل إن موسى عمل قاضياً أوحد يفصل في كل النزاعات فإنه راح يعين بالتدريج موظفين كل موظف يقوم بمهمته في وحدات متميزة. وقد وزع هؤلاء على أعداد تتألف من عشرة وخمسين ومئة وألف مثلما يجري التنظيم في الجيش، وكل مجموعة عليها موظف مراقب. لقد كان اللاويون قضاة شريعة المجتمع. «لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة وضربة» (التثنية ٢١: ٦).

اللاويون وحدهم لهم حق امتلاك واستخدام بوقين فضيين يستخدمان لدعوة المجموعة ونصب المخيم. فالنفخ في بوق واحد كان دعوة لزعماء القبائل الأخرى لتمثل أمام خيمة الاجتماع، مما يدل بوضوح أن سلطتهم كانت مفروضة على زعماء القبائل الأخرى. أما النفخ ببوقين فكان دعوة لجميع بني إسرائيل. ولم يكن يسمح باستخدام البوقين إلا للكهنة الهرونيين، كما كانوا أيضاً ينفخون بها أثناء المعركة لتجميع الإسرائيليين، والأرجح أن تكون القيادة الاستراتيجية العسكرية كما ورد في لفائف قمران.

وبينما كانوا في الصحراء، ونرجح أنهم كانوا يستعدون للمعركة التي سيخوضونها حال دخولهم بلاد كنعان، راحوا يحصون أو يعدون القبائل التي كانت في إمرتهم. في البداية كان هذا مخصصاً للقبائل الإحدى عشرة الأخرى. وكل رجل بلغ الحادية والعشرين ومافوق بات صالحاً للخدمة العسكرية كان يدخل ضمن التعداد. وفيما بعد عندما أحصي اللاويون ووضعت قوائم بكل الذكور الذين فوق الشهر، وجدوا أنهم ليسوا بحاجة إلى تأهيل عسكري. في سفر العدد ١٣: ١ - ١٥ تشكل فريق تجسس لاستجلاء الموقف لدى دخول كنعان: ومع أن كل قبيلة مثلها رجل منها فإن اللاويين لم يدرجوا في القائمة.

أحياناً كان يشار إلى تمرد بين القبائل الأخرى الذين شكَوا من نقص الطعام وفقدان الرفاهيات التي عرفوها في مصر، مع أنهم يزعمون أنهم عوملوا معاملة سيئة كخدم وعبيد. بيد أن عقوبات تطبيق قانون اللاويين كانت شديدة. ويخبرنا سفر اللاويين ٢٤: ١٦ عن رجل رجم حتى الموت لأنه جدف على يهوه. وقدم لنا سفر العدد ١٥: ٣٢ قصة رجل وجد يجمع الحطب في يوم سبت وهذا ماحرمه اللاويون «ولما كان بنو إسرائيل في البرية وجدوا رجلاً يحتطب حطباً في يوم السبت فقدّمه الذين وجدوه يحتطب حطباً إلى موسى وهرون وكل الجماعة فوضعوه في المحرس لأنه لم يعلن ماذا يفعل فقال الرب لموسى قتلاً يقتل الرجل يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات كما أمر الرب موسى». وعندما استلم يشوع القيادة من موسى قدم الرجال له وعدهم «كل ما أمرتنا به نعمله وحيثما ترسلنا نذهب حسب كل ماسمعنا لموسى نسمع لك إنما الرب إلهك يكون معك كما كان مع موسى وكل إنسان يعصي قولك ولا يسمع كلامك في كل ما تأمره يقتل» (يشوع ١: ١٦ - ١٨).

وكانت الأضاحي النارية ركناً هاماً وكبيراً من أركان طقوس اللاويين وهي تشبه تماماً تلك التي يقدمها البراهميون في البدء. الإصحاحات العشرة الأولى من سفر اللاويين تهتم كلها بالأضاحي النارية. في هذه الإصحاحات كما في كل من سفريْ العدد والتثنية، التي تصف قوانين اللاويين وطقوسهم، نعلم أن الأضاحي النارية يجب أن تقدم مرتين في اليوم، وكذلك تقدم في يوم السبت في الانقلابات الفصلية للخلاص من الدنس والذنب والخطيئة.

لقد حصر اللاويون بأنفسهم حق أكل طعام التقدمات التي تجلب إلى خيمة الاجتماع، وهي كل الأضاحي التي أشرنا إليها أعلاه. وبهذه الطريقة صار الإسرائيليون

الآخرون يمدونهم بالقطيع والأغنام والكباش والحمام والحبوب والدقيق والخبز والزيت والخمر. إن حق اللاويين هذا وحق أسرهم (وإن كانوا كلهم من الذكور) أشار إليه العهد القديم مراراً وتكراراً حتى أني ترددت في أن آتي بهذه القوانين هنا. وأعتقد أن مقطعاً واحداً وردت فيه هذه الأحكام يكفي لشرح الوضع بكامله.

بالنسبة إلى كل الأضاحي النارية بشتى صنوفها يشار إليها على أنها «تقدمات محرقة» حسب القائمة التي أشرنا إليها أعلاه، كلها تحضر إلى الكهنة في الخيمة. والقانون ينص على:

«لايكون للكهنة اللاويين كل سبط لاوي قسم ولا نصيب مع إسرائيل يأكلون وقائد الرب ونصيبه فلا يكون له نصيب في وسط إخوته. الرب هو نصيبه كما قال له. وهذا يكون حق الكهنة من الشعب الذين يذبحون الذبائح بقراً كانت أو غنماً. يعطون الكاهن الساعد والفكين والكرش وتعطيه أول حنطتك وخمرك وزيتك وأول جزاز غنمك لأن الرب إلهك اختاره من جميع أسباطك لكي يقف ليخدم باسم الرب هو وبنوه كل الأيام» (التثنية ١٨: ١ - ١٥).

وكذلك يقدمون العطايا للأويين من فضة وذهب وملكية إنما هي بناء على أمر يهوه الذي يتكرر باستمرار. فعلى كل رجل فوق العشرين أن يقدم نصف شاقل فدية عن حياته. وهناك أيضاً فدية أخرى عن طريقة الحياة وهي ٣٦٥، ١ شاقل من الفضة تقدم للاويين كما جاء في سفر العدد. «وتعطي الفضة لهرون وبنيه» (عدد ٣: ٤٨).

واللاويون الذين يبيعون بيوتهم لهم دائماً حق التحرير فإذا لم يدفعوا لتحرير البيت فإنه يعود إليهم أوتوماتيكياً بعد يوبيل السنوات السبع. وإذا اختار رجل من قبيلة أخرى أن يبيع بيته للاوي فإن لهذا اللاوي وحده حق تقرير الثمن. فإذا أراد الرجل أن يسترد بيته ويشتريه ثانية فعليه أن يتوقع دفع ٢٠ بالمائة زيادة عن القيمة.

وهناك تقدمة أخرى تشتمل على ست عجلات مغطاة واثني عشر ثوراً: «خذها منهم واعطها للاويين» (عدد ٧: ٥) وفي إصحاح آخر نقرأ أن أطباقاً من الفضة ثمنها ٢٤٠٠ شاقل ومن الذهب وثمنها ١٢٠ شاقل و٣٦ ثوراً و٧٢ كبشاً مسمناً و٧٢ من ذكور الماعز و٧٢ كبشاً في كل عام هي تقدمات مهداة للخيمة (عدد ٧: ٨٤ - ٨٨). وفي سفر العدد ١٨: ٨ «وقال الرب لهرون وهأنذا قد أعطيتك حراسة رفائعي مع جميع أقداس بني إسرائيل لك أعطيتها حق المسحة ولبنيك فريضة دهرية» ونقرأ في سفر العدد ٢١ «وأما بنو لاوي فقد أعطيتهم كل عشر في إسرائيل».

وكما قرأنا أعلاه لم يكن اللاويون يملكون أي وقف، وهو عادة يعطى حتى لايأخذوا غيره. ولكن في سفر العدد ٣٥: ٢ - ٦ نقرأ «أوص بني إسرائيل أن يعطوا اللاويين من نصيب ملكهم مدناً للسكن ومسارح للمدن حواليها تعطون اللاويين» فأعطيت لهم ثمان وأربعون مدينة.

تعليمات متشددة جداً للباس اللاويين، فثيابهم يجب أن تكون من المخمل والقماش الأرجواني والكتان الرفيع بذهب وأحجار ثمينة، كما وصفت في سفر الخروج ٢٨. وكان أبناء هرون إلى جانب أروابهم يتلقون أيضاً أغطية رأس «رفيعة وعظيمة» ربما ذكرى القبعات الطويلة للحثّيين. وحتى العطر كان يقدم لهرون وأبنائه. فإن تجرأأحد وارتداها فلابد من أن «يطرد من قبيلة أبيه».

ويذكرون القبائل الأخرى «واللاوي الذي في أبوابك لاتتركه» (تثنية ١٤: ٢٧) و«احترز من أن تترك اللاوي كل أيامك على أرضك» (تثنية ١٢: ١٩ وتترك هنا بمعنى تنسى أو تهمل وليس بمعنى تدع - المترجم).

وفي سفر التثنية ٣١: ٢٤ نقرأ فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها أمر موسى اللاويين «... خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه إلى جانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم». وهكذا فإن هذه القوانين (التوراة) كتبها أولاً اللاويون وأودعت في يد أصحاب الملكية الوحيدة وهم اللاويون الذين كانوا الوحيدين الذين يقتربون منها، كانوا الوحيدين الذين يفسرونها ويراقبونها أو يغيرون منها بالطريقة التي يرونها مناسبة.

إن الصورة العامة لاتشير أبداً إلى صورة كهنة البدو أو المرشدين الآسيويين وإنما تشير إلى أرستقراطية غندورة اللباس دسمة المطعم فاخرة البيوت يستخفها الطرب وتتضمخ بالعطور، حكمت بموجب سلطة فائقة على بقية الشعب العبري.

وبقراءتنا القوانين المتعلقة باللاويين نجد أن مركزهم فائق جداً إذا قيس ببقية بني إسرائيل. فاللاويون، وفقاً لما جاء في التوراة التي نعرفها، هم على مايقال من سلالة لاوي (بغير العربية تلفظ ليفي - المترجم) أحد أبناء يعقوب الإثني عشر وأيضاً لو تتبعنا السلالات فإن موسى سيكون الحفيد الأعظم للاوي. وهذا ليس بالضبط سجلاً بأعداد الذكور الذين أحصوا بعد الخروج من مصر بوقت قصير. ومع أن هناك شيئاً من المبالغة الاحصائية فإن اللاويين يزعمون أنه كان بينهم ٢٢٠٠٠ من الذكور، وهي تماماً أسرة من ثلاثة أجيال.

إن وضعهم كطبقة حاكمة للشعب العبري لاشك أنه نموذج هندوأوروبي، يدل أنهم حصروا هذا التراث ليبرروا علاقتهم بالقبائل الأخرى. على أي حال فإن قصص ابراهيم واسحق ويعقوب وعيسو هي القصص الأوثق صلة بالحثيين والحوريين وتشير بقوة إلى أن يعقوب وابراهيم قد يكونان حقاً أجداد موسى وأخيه هرون اللذين كانا زعيمي اللاويين، بينما بقية اللاويين وكذلك أبناء القبائل الإحدى عشرة الأخرى فإنهم فهموا بأن هذه السلالة الجدودية إنما كانت رمزية ولم تكن بيولوجية. فانطلاقاً من عددهم فإن القبائل الأخرى ربما تجمعت معاً تحت الرمز ذاته، الذي بدوره يفسر لماذا يعقوب، الذي يفترض أنه والد الأبناء الإثني عشر الذين انسلوا القبائل الإثنتي عشرة للعبريين، كان يسمى حقاً إسرائيل، فهو الذي يعتبر الأب الأول للشعب العبري أكثر مما يعتبر ابراهيم.

والافتراض أن العبريين الأصليين لم يكونوا عرقاً واحداً نجده موجوداً ومؤكداً في المزامير. في المزمور ١٠٧ نجد «ليقل مفديو الرب الذين فداهم من يد العدو ومن البلدان جمعهم من المشرق ومن المغرب من الشمال ومن البحر...» كذلك نقرأ أيضاً في المزمور ٨٧ إن صهيون، وهي اسم آخر لبني إسرائيل «ستدعى الأم التي منها يولد الناس من كل عرق». ويعني هذا أن إسرائيل في زمن كتابة هذه المزامير كانت ترى نفسها مجموعة من العروق، كل عرق تجمع مع الآخر تحت شعار إسرائيل، ربما كان منهم شعب الصحراء السامي والمصريون والكنعانيون وآخرون، وكل من يريد أن ينظم تحت قيادة اللاويين.

ولايزال ثمة مقطع غريب آخر فيما يتعلق باللاويين باعتبارهم مجموعة هندوأوروبية نجده في سفر التثنية ١٨: ١٤ ـ ٢٢. هنا نجد تصويراً ليهوه وهو يكلم موسى على قمة الجبل. فيهبط موسى ويشرح للإسرائيليين الآخرين أن يهوه أخبره قائلاً «أقيم نبياً من وسط أخوتهم مثلك، واحداً من عرقهم».

لاوي وليفي، الاسم العبري لكهنتهم، هما كلمة واحدة كما تدل على ذلك الترجمات الانكليزية والألمانية والفرنسية. وأعتقد أن هذا الاسم أو الاسم الذي جاء من اللوفيانيين مشتقان من مادة الاندلاعات البركانية وكتلة المهل الملتهب المتدفق من قمة جبل.

لافا باللاتينية تعني الاغتسال في جدول متدفق، بينما لافيت تعني يسكب. وفي الحثية لاهو أيضاً يسكب. ونجد هذه الكلمة تعيش في الكلمة الفرنسية لافي ومعناها

يغسل. والآن إن هذا يفترض أن الكلمة ترافقت من حيث الأساس مع السوائل. ولكن أيضاً نجد في الألمانية كلمة لافين تعني الكتلة الضخمة من الثلج، وكلمة لافيش الانكليزية تعني التدفق بغزارة. وهكذا تبدو الكلمات مرتبطة بأي كتلة متحركة أو متدفقة.

وسلسلة كلمات مشابهة أيضاً ترتبط بالنور الملتهب. ليفو باللاتينية تعني يصعد وعلى الأخص المترافق مع شروق الشمس. وفي السنسكريتية تعني لوها الحمرة المتوهجة، بينما البرق يدعى لوهلا. بينما نجد في الألمانية كلمة لوهي تعني يتوهج أو يلتهب أما في الدانمركية فكلمة لو تعني الدخول في اللهب. ولكن كلمة لافا في الانكليزية والألمانية والكلمة الفرنسية لافي، كل واحدة تعني الكتلة المنصهرة الملتهبة التي تتدفق من جبل بركاني، ذلك أننا قد نجد مفتاحاً لهذين المفهومين، وهما النور واللهب، وهو أنهما في الوقت نفسه يسكبان.

إن صورة الرب على الجبل الملتهب، الصورة الهندوأوروبية لالههم الذكر، التي تظهر أيضاً في التصور العبري لقصص جبل حوريب، ربما تشير إلى ارتباطهم ارتباطاً بعيداً في زمن من الأزمان كمتعبدين للجبال البركانية. وفي حديث سفر الخروج عن «جبل الرب» نقرأ هذه الأوصاف: «وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جداً، فارتعد كل الشعب الذي في المحلة» (خروج ١٩: ١٦). وفي سفر الخروج ٢٠: ١٨ - ٢١: «وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن. ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد. وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت. فقال موسى للشعب لاتخافوا لأن الله إنما جاء لكي يمتحنكم ولكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لاتخطئوا. فوقف الشعب من بعيد وأما موسى فاقترب من الضباب حيث كان الله». وفيما بعد في سفر التثنية عندما كان موسى يسرد الأحداث التي جرت في «حوريب جبل الرب» ذكّر العبريين «فتقدمتم ووقفتم في أسفل الجبل والجبل يضطرم بالنار إلى كبد السماء بظلام وسحاب وضباب فكلمكم الرب من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام ولكن لم تروا صورة بل صوتاً» (تثنية ٤: ١١ - ١٣). يذكرهم بالعجل «الوثني» الذي صنعوه أثناء غيابه، ويتذكر «أما خطيتكم العجل الذي صنعتموه فأخذته وأحرقته بالنار ورضضته وطحنته جيداً حتى نعم كالغبار ثم طرحت غباره في النهر المنحدر من الجبل» (تثنية ٩: ٢١).

أيضاً ننظر في المزامير العبرية فنجد «يمطر على الأشرار فخاخاً ناراً وكبريتاً»

(مزمور ١١). «نار قدامه تأكل وحوله عاصف جداً» (مزمور ٥٠). «حتى متى يتقد كالنار غضبك» (مزمور ٨٩). «أضاءت بروقه المسكونة وارتعدت. ذابت الجبال مثل الشمع قدام الرب» (مزمور ٩٧). «والسحابة ينشرها مثل ستار والنار لتضيء الليل» (مزمور ٣٩). لاشك أن أعظم وصف حي ليهوه كجبل بركاني نجده في المزمور ١٨. ففيه نقرأ «فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال وارتعدت وارتجت لأنه غضب. صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت. وجمر اشتعلت منه... من الشعاع قدامه عبرت سحبه. برد وجمر نار.... أرسل سهامه فشتتهم». إنه تصور من الصعب تجاهله.

ونرى من المهم أن نلاحظ أن الجبل الواقع شمال بحيرة «فان» في الأرض التي عرفت في يوم ما بأرارتو، ويسمونه حتى اليوم جبل صوفان، هو جبل بركاني. وفي كيليكيا، في بلاد اللوفيانيين كيزواتنا يوجد جبلان بركانيان. أحدهما ويعرف حتى اليوم بحسن داغ له قمتان بركانيتان، وربما يفسر هذا لماذا يصور إله العاصفة الحثي والملك الحثي يقفان على جبل مزدوج القمة، كل قدم على إحدى ذروتيه. في إقليم القوقاز، إلى الجنوب تماماً، أيضاً في أرض أورارتو، يوجد ما لايقل عن ثلاثة عشر جبلاً بركانياً، ثلاثة ماتزال فعالة حتى اليوم. أحد هذه الجبال قريب من باكو، على بحر قزوين، بالقرب من مصب نهر الأراكس. ومما يذكر أيضاً هنا أنه في المعركة الليجندية اليونانية بين زيوس والأفعوان تيفون، كان تيفون قد ولد في كهف جبلي في كيليكيا حيث قام زيوس بمهاجمته أولاً، ثم فيما بعد تعارك مع زيوس على جبل كاسيوس (سافون) وأخيراً قتلهزيوس على جبل بركاني وهو جبل اتنا في صقلية. ولكن قد يكون من الأهم أنه شرق سيناء في الجزيرة العربية نجد قافلة من الجبال البركانية الخامدة الآن على طول الشاطيء الغربي المواجه لمصر، وأن جبل أرارات نفسه بركاني.

وحتى نحصل على صورة أوضح لتلك الأزمان، من المهم التحقق أن الجبال البركانية تثور عدة مرات في فترة قصيرة نسبياً. فجبل كيلاوا في هاواي ثار اثنتي عشرة مرة خلال العشرين سنة الأخيرة. (وبالمناسبة فإن هذا الجبل عبد باعتباره الربة بيلي). وحتى اليوم مايزال بقايا الزارادشتيين في إيران يصلون للنار، بينما في ديار كورديش وتقع في جزء منها في الأرض التي كانت تسمى أوراراتو، ماتزال النيران توقد على قمم الجبال في احتفالات رأس السنة.

إن عبادة الآلهة الهندوأوروبية والعبرية كجبال بركانية قد تفسر الأهمية العظمى

لطقوس النار بين كل من البراهميين واللاويين. وقد يفسر أيضاً اسم يهوه، الذي طالما حير باحثي التوراة الذين راحوا يتصيدون المعنى في نصوص الثقافات السامية، لأن كلمة يهوه بالسنسكريتية تعني التدفق، مما يشير إلى لافا الاندفاع البركاني، وقد يكون ذا صلة بكلمة لافا نفسها. وقد يكون من الهام أيضاً أن مجموعة أخرى ممن يتكلمون اللغة اللوفيانية تعتقد أنها عاشت في منطقة من جبل بركاني آخر في تركيا، والغريب أن هؤلاء الناس يسمون الأهيويين.

إن الروابط بين الهندوأوروبيين والعبريين أكثر عدداً من أن نهملها، ولكن فقط إذا فهمنا النصوص اللوفيانية فهماً أفضل أو إذا اكتشفت مادة جديدة في ظروف أفضل، فقد نستطيع بالتدريج أن نثبت أو نرفض العلاقة المباشرة بين اللوفيانيين واللاويين.

اللاويون وأبناء النور:

إن اشتراك العبريين والهندوأوروبيين بعبادة إله نور تثبته المكتشفات الحديثة للنصوص العبرية التي تعرف شعبياً باسم لفائف البحر الميت. فهذه اللفائف المكتشفة في قمران بفلسطين هي أقدم النصوص العبرية لأسفار العهد القديم، ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد. وهي محفوظة مع النسخة اليونانية والنسخة العبرية المتأخرة مع بعض الاختلافات. ولكن هناك نصاً إضافياً يعتبر جديداً كل الجدة عند باحثي التوراة. إنه وثيقة تعرف باسم «لفافة حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام». وتتألف اللفافة من مخططات المعركة التي سوف تشن. والعدو يحدده اسم جماعي هو أبناء الظلام والعبريون، وكانوا مايزالون بقيادة الكهنة اللاويين، هم أبناء النور. تبدأ بالتقرير أن «الشغل الشاغل لأبناء النور هو الهجوم على مجموعة أبناء الظلام... أبناء النور هم مجموعة الله». كثير من الدارسين عزوا هذا الأثر المدهش إلى تأثير من إيران حيث كانت عبادة أهورا ماتزال سائدة. ولكن عندما نفكر أن كثيراً من النصوص الأخرى المكتشفة في قمران هي من العهد القديم قد نسأل لماذا حشرت هذه الوثيقة الخاصة بين تلك النصوص. كما أنه لاتوجد إشارة إلى أهورا. وكما سبق ورأينا فإن مفهوم إله النور لم يكن مفهوماً جديداً على العبريين. فالثنائية الهندوأوروبية للنور والظلام تظهر كامنة في الوصف القديم لخلق يهوه للعالم. ففي سفر التكوين ١: ٣ نقرأ «وقال الله ليكن نور فكان نور ورأى الله النور أنه حسن وفصل الله بين النور والظلمة».

عامل هام آخر في اللفافة وهو أنها تكشف أن اللاويين الكهنة ما زالوا مسيطرين. والشعب في قمران هو من قبائل يهوذا وبنيامين، وهم الذين بقوا أحياء في الجنوب بعد أن أخضعت قبائل إسرائيل في الشمال وتفرقت عام ٧٢٢ قبل المسيح. ومع أن دولة يهوذا الجنوبية أخضعت عام ٥٨٦ قبل المسيح، فإن كثيراً من الناس قد عادوا إلى المنطقة ليعيشوا تحت حكم أجنبي. ومن هاتين القبيلتين ينحدر يهود هذه الأيام، أما الآخرون فقد تشتتوا وعاشوا مع سكان سوريا ولبنان وتركيا والعراق، على الرغم من المحاولات غير النظامية لاقتفاء آثارهم في إيرلندا أو في مختلف الثقافات الهندية لأمريكا الشمالية.

في لفافة قمران، تماماً كما في أسفار العهد القديمنلاحظ أن لباس اللاويين وراياتهم ومركزهم قد وصفت وصفاً خاصاً ودقيقاً. فالرايات مزينة بأسماء هرون وأبنائه. والأهم من ذلك هو حقيقة أن اللاويين كانوا أيضاً، أو ظلوا، في وظيفة أبواق المعركة. وإشارات البوق مشروحة شرحاً دقيقاً في اللفافة، كما في إدارة حرب، فأنماط مختلفة من نفخات البوق تأمر «استعدوا للمعركة» «تقدموا» «اقتربوا» «ابدأوا القتال» «تراجعوا».

هذه الوثيقة عن قيادة اللاويين المكتوبة بعد لاويي عصر موسى بعشرة قرون ربما تقدم لنا فكرة عن مدى دقة وتماسك المركز الموسوي القديم للاويين الذي قطع كل هذه القرون.

هذا المظهر الحربي للعبريين، الموصوف منذ أيام موسى ومابعد سوف نناقشه في الفصول الأخيرة التي تهتم بالقمع العبري لعبادة الربة. ولكن نستخدم هذا المظهر الآن لشرح اسم العبريين باعتبارهم يهودا (يهوذا). فالكلمة السنسكريتية للمحارب هي يودها.

خلاصة:

لابد أن أضع هنا تعليقاً قبل أن ألخص هذا الفصل. فإذا حظيت هذه الفرضية بمزيد من البحث فإننا سوف ننظر إلى أحداث الحرب العالمية الثانية والفظاعات التي أنزلت في عبريي القرن العشرين على يد آريي ألمانيا النازية الذين يتبعون الأسلوب ذاته ولكن ليس كفظاعات تراجيدية بل كفظاعات ساخرة. فالأبحاث والحفريات عن الثقافة الحثية قام بها أولاً الأركيولوجيون الألمان خلال هذا القرن. لقد كانت قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة أن الموافقة حصلت بالتدريج على أن الناسيلية هي الاسم

الحقيقي للغة الحثيين، ونيسا أو ناسا هي عاصمتهم الأولى. فالاسم الأصلي للغزاة الحثيين قد يكون النيزيانيين أو النازيانيين. ونازي صارت عاصمة الأمة الهندوأوروبية في ميتاني. ولايستطيع المرء إلا أن يدهش كيف تأثر أدولف هتلر بالتقارير عن هذه المكتشفات التي عرفت طريقها إلى الإعلام الشعبي في ذلك الزمن. فهل هذه الوثائق هي التي جعلته يغيّر اسمه من شيكلغروبر إلى هتلر، التي تعني بالألمانية مايقارب «معلم هت» ؟ومن الغرابة أن الارتباط الأكثر بروزاً بين الحثيين والعبريين هو استخدام العبريين كلمة نازي لتعني الأمير.

في القرنين الأخيرين راجع علماء الدين والأركيولوجيا والتاريخ وحتى العلم كثيراً من الأفكار التي كانت متبناة كحقيقة سبقت ظهور أي اكتشاف أركيولوجي. كما نجد مراجعة أخرى تفسر نشأة الإله يهوه، إله النار على قمة جبل حوريب ظهور فهم أفضل للثقافة اللوفيانية. فإن حدث هذا فقد يساعد على شرح الكثير من القوانين والمواقف الأبوية للكهنة العبريين اللاويين في العهد القديم وإلحاحهم على تحطيم ديانة الربة.

بمعرفة أن ديانة الربة قد تأثرت بغزو الهندوأوروبيين على الأقل عام ٢٤٠٠ قبل المسيح ومابعد، ومن الممكن وإن كان بأقل دقة أن يكون الغزو في مصر منذ عام ٣٠٠٠ قبل المسيح، وفي سومر يمتد إلى مراحل قديمة جداً في الثقافة السومرية ٤٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ قبل المسيح، يمكننا أن نفهم فهماً أفضل التحولات التي حدثت في أساطير وطقوس وعادات ديانة الربة خلال الأحقاب التاريخية. وبالتالي فقد بدأنا نفهم المواجهة التي برزت عندما بدأ الشماليون الأبويون قمع الديانة القديمة وكل مايمثلها.

من أعظم الموضوعات المتناقضة هو مفهوم الحق المقدس للامتياز الملكي ومؤسسة الملكية (بالنسبة إلى الملك وليس للملكة ـ المترجم) الوراثية. إن أقدم القوانين والأساطير تشير أن شعب ديانة الربة كانوا موجهين على نحو جماعي عفوي، وإن كانوا ربما نظموا من خلال تمركز معابد الربة. ويحق لنا أن نسأل كيف تم الانتقال من ديانة الربة إلى حق الملكية المقدسة المستمد من إله ذكر ـ الملكية التي نعرفها اليوم.

الفصل السادس

لو لم يبك الملك

حتى في الأحقاب النيوليثية والتاريخية القديمة يبدو أن من الممكن في كثير من المدن والمستوطنات أن ينصّب شخص ما على العرش بموجب حق مقدس، كما تزعم الملكيات الباقية في العالم حتى في هذه الأيام. والفارق الكبير هو أن الحق المقدس كان يدعمه إله ذكر، ولكن عن طريق الربة. ويدل البرهان الوثائقي والميثولوجي أن هذا الحق، أكثر من كونه يوهب لذكر، كان أصلاً للمرأة، الكاهنة العظمى للربة، التي حصلت على هذا المركز بسبب عادة السلالة الأمومية. وهذه المرأة التي تقوم بدور الكاهنة العظمى للربة قد تعتبر أيضاً ملكة أو حاكمة قبيلة وكانت هذه هي الحالة في كيريم حيث تصبح الكاهنة العظمى، كما يقول فريزر، رأس الدولة على نحو أتوماتيكي.

تراتب هذين الدورين، دور الكاهنة العظمى ودور الملكة، يتكرر كثيراً في العصور التاريخية القديمة في ألواح ونصوص الشرق الأدنى. كثير من الكتاب، وربما باستخدامهم مجتمعنا ذا الاتجاه الذكوري نمطاً، عكسوا السبب والنتيجة، فأشاروا أن المرأة عندما أصبحت ملكة حصلت أيضاً على لقب الكاهنة العظمى، وهو مركز، كما يفترضون، ناجم عن زواجها بالملك. ولكن الدليل، كما سوف أشرح يشير إلى أن الأسلوبكان معكوساً، ذلك أن الإشراف الأعلى والأكثر قدسية للإلاهة الأنثى في أقدم العصور هو أساس مفهوم الملكية.

وكما أشرنا من قبل تبدو معابد الربة في الأحقاب النيوليثية والنحاسية أنها جوهر المجتمع، يتضح ذلك من ملكية الأرض وقطعان المواشي ومعظم الملكية الأمومية. كان هذا هو الوضع حتى العصور التاريخية القديمة لانا وبيت السماء ومعبد الربة إينانا في أريك.

يكتب مورتغات أنه «قرابة عام ٣٠٠٠ قبل المسيح في أوروك (أريك)، وركاء الحالية، المكان المقدس لإينانا، ربة السماء السومرية، شيد مجمع من الأبنية التي تعد

حتى اليوم من بين أروع الأعمال المعمارية، وهي في حالة جيدة من الصيانة». أثبتت الاكتشافات في أريك بابل أن مجمع المعبد في إينا الموجود سابقاً قبل عام ٣٠٠٠ قبل المسيح، مركز منظمة اقتصادية واسعة. وطبقاً لسدني سميث، أستاذ أركيولوجيا الشرق الأدنى «... في سومر يدير المعبد كل نشاط أساسي، ليس فقط في القضايا التي تعتبر عملاً دينياً دائماً، بل أيضاً في النشاطات المدنية للحرفيين والتجار والاستثمار الزراعي للمزارعين والرعاة ومقتنيي الدواجن وصيادي الأسماك وزارعي الثمار».

في العصور النيوليثية والتاريخية كانت انتو، اسم الكاهنة العظمى في سومر، وتاواواناس، اسم الكاهنة العظمى في الأناضول، ومن يقابلهن في المناطق الأخرى القادة الاسميين لمجتمعات المعبد. إن المركز الكهنوتي للسيدة المقدسة وهي إحدى الهبات التي شكا منها أنكي ونقلته إينانا من أريدو إلى أريك، قد يعود إلى هذا الوضع تماماً.

ولكن لا علاقة للقائد الاسمي بالملكية. والحقيقة أن هناك عدة وثائق وأساطير تدل أن مجتمعات عبادة الربة النيوليثية والتاريخية كانت تحكمها جمعيات مؤلفة على الأرجح من أعضاء المجتمع المسنين. جاء في أحد ألواح مابين النهرين أنه «تحت إرشاد إينانا في أغادي قدمت نساؤها المسنات ورجالها المسنون استشارة حكيمة». فكبر السن هو هبة أخرى من هبات الحضارة التي قدمتها إينانا إلى أريك. ويكتب غورني أن الحاثيين قبل وصول الحثيين «كانوا منظمين تنظيماً إلى حدٍبعيد في عدد من الإدارات المدنية المستقلة وكل مدينة تحكمها هيئة من المتقدمين في السن». حتى في عصر الحثيين تصف النصوص مجموعة عرفت باسم النساء المسنات كن يشغلن مراكز نبوئية وإرشادية وكن أيضاً يمارسن التطبيب الذهني والجسدي.

وقد أثر البروفسور ثور كليد جاكوبسون في جامعة شيكاغو في كثير من الأركيولوجيين والمؤرخين الآخرين حول هذا الموضوع. ونظريته القائمة على حقيقة أن الأساطير السومرية القديمة تتضمن كلاً من الآلهة الإناث والآلهة الذكور في الجمعيات صاحبة القرار في السماء، تدل أن مساهمة النساء في القيادة تعكس تماماً المجتمعات التي كتبت الليجندات، فالنساء والرجال يساهمون في حكومة المجتمع. ويمكننا اعتبار مفهوم الوحدانية، الذي يقدم لنا على أنه نمط من الدين الأكثر حضارة وتعقيداً يعكس الأيديولوجيات السياسية التي حصرت كل السلطات في يد شخص مهيمن، بينما التعددية، وبالأخص كما برزت في صورة الجمعيات المقدسة، ترمز إلى موقف عامي في المجتمعات التي تطورت واتبعت هذا النمط من التفكير اللاهوتي.

لاتوجد معطيات محددة عن العلاقة بين الكاهنة العليا وتلك المجموعات من المسنين وإن كان «تحت إرشاد إينانا» قد يشير إلى الدور الذي لعبته كاهنتها العليا. وانطلاقاً من السجلات الميثولوجية عن الربة (مع الفهم أن الكاهنة العليا تمثل تجسدها على الأرض) فإننا نتعرف على صورة ليس لامرأة احتفالية ولا لامرأة تتخذ زوجاً دائماً، كما فعلت الملكات في مراحل تاريخية، وإنما على امرأة تختار عاشقها أو أزواجها سنوياً مادامت تحتفظ بالمركز الدائم للمقام الأعلى لنفسها.

إن رمزية أزواجها السنويين الشبان، الابن الميت/ عاشق الربة، تحصل وتتكرر في ليجندات ديانة الربة المسجلة على الأرجح في الأحقاب النيوليثية والتاريخية القديمة. إنه موجود في معظم الليجندات القديمة لسومر ومصر واستمر في كل الأحقاب التاريخية للشرق الأدنى حتى القرون الأولى للمسيحية، التي قد تكون احتفظت من الدين القديم بالحزن السنوي على موت المسيح.

وقد اكتشف السير جيمس فريزر، مؤلف «الغصن الذهبي» هذا الموضوع ودرسه بتوسع وعمق أكثر من أي باحث آخر في الدين المقارن. ومع أن بعض استنتاجاته ونظرياته كانت موضع مساءلة كتاب متأخرين، فإن الكتلة العظمى للمادة في مجلداته الإثني عشر تقدم حتى اليوم أكبر كمية من المعلومات القيّمة ـ وربما الأهم صلة بالموضوع ماتزال تطرح بعض النقاط الهامة. فموضوع الموت السنوي للابن/ عاشق الربة يفيدنا هنا لأنه يبدو نشأ مباشرة من الطقوس والعادات الأصلية للديانة الأنثوية القديمة. إنه يرمز إلى ممارسة من أعظم الممارسات القديمة المسجلة ـ التضحية الطقسية بالزوج «الملك» السنوي الذي تقوم به الكاهنة العليا.

عدة وثائق عن قبائل في إفريقيا تصف الملكات اللواتي بقين عازبات، بينما اتخذن عشاقاً من درجة أقل. سجلات من نيجيريا تفيد أن ذكراً من الذكور يظل زوجاً للملكة حتى تجد نفسها حبلى، فتقوم مجموعة من النساء بشنقه ـ فقد أدى مهمته الأرضية.

وثائق عديدة، ليجندات وشذرات من نصوص وصلوات تشير أن هناك ممارسات مشابهة في معظم ثقافة عبادة الربة في الشرق الأدنى، مع تعديلات مختلفة قليلاً تعتمد على المكان والتحولات التدريجية التي جرت عبر السنين. ولاجدوى من طرح أي تعميم حول ماذا جرى ولماذا جرى، مادامت المعلومات في كل ثقافة نوعية لن تدعم هذا التقرير الفضفاض. ومع ذلك توجد قطع من الأدلة في كل مكان تدل أنه

في الأحقاب النيوليثية وربما حتى في الأحقاب التاريخية القديمة كان زوج الكاهنة العليا يلقى موتاً عنيفاً، بينما تبقى هي لتقيم الحزن.

إن المادة مأخوذة من ثلاثة خطوط منفصلة من الأدلة. الأول يشتمل على سجلات الاحتفالات الفعلية التي تصف زواج الزوج بالكاهنة التي تدعمه بالمركز الذي سمي فيما بعد الملكية (نسبة إلى الملك ـ المترجم) والثاني وثائق الطقوس التي استخدمت في العصور التاريخية بديلاً عن الضحية الأصلية: بدائل بشرية واغتصاب وصور وضحية حيوانية. والثالث هو معظم الأوصاف التفصيلية التي تقدمها الليجندات التي رافقت تلك الطقوس البديلة، فهي في اللحظة الاحتفالية الخاصة تقدم الشرح الثيولوجي والعمل الرمزي المتخذ.

وتدل هذه العادة أن الكاهنة العليا، باعتبارها تجسيداً للربة، تختار عاشقاً، والأرجح أنه فتى أصغر منها، مادام يشار إليه على أنه ابن الربة. وثائق كثيرة تخبرنا عن الاتحاد المقدس الذي يتم بينهما، ويشار إليه عادة باسم هيروس غاموس أي الزواج المقدس. هذا الزواج المقدس أو الاتحاد الجنسي يعود إلى الأحقاب التاريخية في سومر ومصر وبابل وحتى اليونان الكلاسية. وبعد الاحتفال الجنسي يقوم الفتى بدوره كزوج الكاهنة. لقد كان «الملك».

يكتب البروفسور سميث «أن الاستنتاج الذي لاخلاف حوله هو أن طقس الزواج المقدس يرجع إلى العهود القديمة البعيدة، وهذا هو السبب في دخوله في عبادات آلهة مختلفة متمايزة... وتبدو طبيعته السنوية مرتبطة بتعيين الملك سنوياً». ويصف بوترورث وضع الذكر الذي يرتبط بالكاهنة العليا في المنطقة الإيجية فيخبرنا أن «الوصول إلى المقدس كان من خلال الملكة».

إن الاتحاد الجنسي المقدس مع الكاهنة العليا منح الزوج الذكر وضعاً امتيازياً. وطبقاً لما يقوله البروفسور ساغس أنه في سومر وبابل في الأحقاب التاريخية تحدد الربة بعد الزواج المقدس مصير الملك للسنة القادمة. لكن في الأيام الأكثر قدماً كان مركز الملكية أبعد من أن يستمر. فالذكر المختار يمارس حقوقه الملكية لفترة معينة من الزمن. وفي نهاية هذا الزمن (ربما سنة تبدأ من الاحتفال الذي يجري سنوياً، ولكن تدل السجلات الأخرى على فترة أطول في مناطق معينة)، عندئذ يضحى طقوسياً بهذا الفتى.

في عام ١٩١٤ كتب سيتفن لانغدون أن «الشخصيات المقدسة لتموز وأدونيس

وأوزيريس تمثل مبدأ ثيولوجياً وهو تجسيد الأفكار الدينية التي كانت توضح باتخاذ شكل أكثر ملموسية. فليس الابن المقدس هو الذي يهلك في الأمواج، بل ملك بشري كان يذبح..».

في عام ١٩٥٢ وصف تشارلز سلتمان من جامعة كامبردج الوضع بهذه الطريقة. «كانت الربة العظمى دائماً فائقة والأسماء الكثيرة التي كانت تطلق عليها لم تكن إلا اختلافاً في الألقاب التي تضفى عليها في أماكن متنوعة. ليس لها زوج نظامي وإنما هو صديقها، عشيقها الشاب الذي يموت أو يقتل في كل خريف وكان يمجد في البحث كل ربيع فيعود إلى الربة، كشهم جديد قد يُتخذ كل عام ليعاشر الملكة الأرضية».

في عام ١٩٥٧ كتب روبرت غريفز عن قتل الملك طقوسياً كما تبدى في اليونان ماقبل الهندوأوروبية، فشرحه على النحو التالي «إن ترييال نيف تختار على مايدو عاشقاً سنوياً من شبان حاشيتها الفتيان، ليكون ملكاً يضحى به في نهاية العام... فالملك المقدس يستمر في مركزه عن طريق حق الزواج بترييال نيف...» وفي مقدمته لكتابه «الأساطير اليونانية» يشرح نظرياته حول كيف كانت الملكية في إقليم إيجيا مؤسسة دائمة، أما باعتبارها تمديداً تدريجياً للسنة إلى سنة طويلة فقد أدخله الآخيون من الهندأوروبيين الغزاة في القرن الثالث عشر قبل المسيح، وفيما بعد تأسست الملكية الدائمة على يد الدوريين الهندوأوروبيين قرابة عام ١١٠٠ قبل المسيح. كل من فريزر وجيمس يقدم قبائل شيلوك في النيل الأعلى كمثال مشابه. في عام ١٩٣٧ يكتب البروفسور جيمس قائلاً «كانت العادة في هذه القبيلة حتى العصر الحديث أن يدفع الملك إلى الموت حالما تظهر شارات ضعف صحته ورجولته. ولذلك فإنه حالما يعجز عن تأمين العواطف الجنسية لزوجاته، فإن من واجبهن أن يعلمن المسنين بالحقيقة، فتتخذ الاجراءات لقتله وتعيين خليفة قوي يحكم بدلاً منه». وقد وضع فريزر كنعان وقبرص وقرطاجة في لائحة واحدة كمناطق ظهرت فيها الدلائل الواضحة في الأزمنة القديمة عن قتل الملك. ويتفق فريزر ولانغدون وسيلتمان وغريفز وكثير من الباحثين الآخرين أن الليجندة كانت تمثل وأن الذكر الذي يقتل كان الملك المؤقت للمدينة، الشاب الذي لعب سابقاً دور الابن/ العاشق في الاتحاد الجنسي المقدس.

معظم الباحثين الذين ناقشوا التضحية بالملك اعتبروا ذلك طقساً خصوبياً، والدليل أن بقاياه تنثر فوق الحقول المبذورة حديثاً. ومع أن هذا أصبح عادة في المراحل المتأخرة، فإن ليجندة من ليجندات العهود القديمة المسجلة (وهي عن الربة إينانا كتبت بعد عام ٢٠٠٠ قبل المسيح بوقت قصير) والأرجح أنها سجل مكتوب عن أساطير وأفكار

دينية أقدم، قدمت لنا دافعاً مختلفاً. ففي هذه الليجندة تحصل التضحية بالزوج عندما لايعود راغباً في الإذعان لرغائب وأوامر وسلطة الربة. وقد يكشف هذا السجل القديم الأصول القديمة جداً لأسباب موت الزوج الذكر. وفيما بعد صارت أفكار الخصب أو التطهر من الخطايا بالتدريج تجسيداً لعادة من أجل ضمان أو تفسير استمراريتها.

إن التفسير المقبول للتضحية بالملك كطقس خصوبي كان على الأرجح نتيجة حقيقة أن كل الليجندات المتاحة حتى الآن تروي حزن الربة على موت ابنها/ عشيقها. فقط بعد اكتشاف وحلّ الشذرات الأخيرة لليجندة السومرية التي أضافت معلومات أنه مع أن إينانا حزنت على الموت، إلا أن ذلك حصل نتيجة غضبها من غرور الفتى، صرنا في موقف التساؤل عن المعنى والأسباب الحقيقية لهذا الطقس القديم ورحنا نراجع تلك التفسيرات المقبولة من الأغلبية.

من الأجدى أن نمتحن السجلات العديدة للزواج المقدس أو الابن/ العاشق باعتباره ملكاً وموقف الكاهنة العليا، في العديد من ثقافات الشرق الأدنى، حتى نحصل على فهم أعمق للعادة كما عرفت أصلاً بدراسة تعديلاتها المختلفة في المراحل التاريخية التي أعقبت الغزوات الهندوأوروبية.

سومر ـ الأزواج العاشقون لإينانا:

في السجلات السومرية عن إينانا وتموز (وهنا يحدد كاتبها الحقيقي) نعلم أنه بعد أن «يثبت نفسه» في مخدعها حددت له مستقبله فجعلته «راعي الأرض». ومع أن هذا الموقف هو موقف رمزي كأي موقف هام، فإننا نتذكر أنه كان يوجد قطعان ضخمة من الحيوانات التي تملكها وتصونها هيئة المعابد وقد يكون اللقب أصلاً وصفاً لدوره الفعلي. فالابن /العاشق الأصلي كراع يظهر في النسخ الكثيرة للقصة في شتى المناطق كما يدل على علاقة الابن /العاشق الأصلي بالعبادة الأخيرة ليسوع.

ولكن مهما كانت طبيعة الموقف فإن الليجندة السومرية تخبرنا أنه عندما كانت إينانا تبحث عن بديل عنها في ديار الموتى تغاضت عن خادمها الخاص لأنه كان موالياً لها خدمها بإخلاص، وتغاضت عن إله صغير لأنه انحنى لها حالما سألته، ولكنها اختارت ابنها/ عشيقها دموزي الذي تجرأ بكل مسرّة أن يتسلق عرشها أثناء غيابها وتصرف بطريقة وقحة لدى عودتها. فموت دموزي السومري الأكثر قدماً لم يكن بمحض المصادفة. لقد مات بناء على أمر من إينانا.

إن الوثائق السومرية تكشف أن أصول الملكية في سومر بدأت مع موقف «أن»

الذي يعرف بأنه كان كاهن الربة وزوجها، والأنية حلت محلها فيما بعد الأنسية التي يبدو أنها صارت تقدم المزيد من السلطات الدنيوية. ومنصب الأنسي استبدل بلقب ومركز عرف بكلمة لوغال التي تعني حرفياً «الرجل الهام» ولكن جرت العادة أن تترجم إلى كلمة ملك. هناك كلمة قديمة أخرى هي موكاريب ترجمت أيضاً إلى كلمة ملك مع أنها تعني حرفياً «حامل التقدمات». ويشرح ساغس أن الأنسي كان في الأصل يختار، والأرجح في أيام الحرب، ولكن قرابة نهاية الألف الثالث صار هذا المركز وراثياً. ويعلق البروفسور سدني سميث أن الوثائق التي تصف الاستخدام الواسع لقدسية المتنبي ورؤياه تكشف أنه حتى بعد أن صار دور الملك دائماً «لاملك يعمل طبقاً لحكمه وحده».

ويبدو أن مركز الملك كقائد تأسس في مرحلة تذكرنا بها السجلات المكتوبة التي ظهرت عن ذلك الزمن. ففي ليجندة من أوائل الألف الثاني عن أنانا نقرأ «في ذلك الزمن لم يكن ثمة تاج يوضع على رأس... في البدء لم يكن ثمة إدارة ملكية لشعب الربة، ثم هبطت الملكية من السماء». لكن هذه الملكية كما دلت السجلات التي وصلتنا عن شعب عبيد وشمسوحور في سومر ومصر، وقد وصلت بزورق شراعي وليس بسفينة فضائية.

يخبرنا البروفسور صموئيل نوح كريمر، السومريولوجي البارز أنه في الأحقاب التاريخية لسومر:

«كان الطقس الأهم للسنة الجديدة هو الهيروس غاموس، أي الزواج المقدس بين الملك الذي يمثل الرب دموزي وإحدى الكاهنات، التي تمثل الربة إينانا... وتظهر الفكرة أن ملك سومر، ولاعبرة لمن يكون أو من أي مدينة أصله وفصله، يجب أن يصبح زوج ربة الحب واهبة الحياة، أي إينانا الأريكية... فملوك سومر عرفوا بأنهم «أزواج عشاق» لإينانا في الوثائق السومرية منذ زمن انميركار (قرابة ٢٦٠٠ قبل المسيح) وحتى مابعد أيام سومر، ماداموا يتوحدون سرّانيا بدموزي».

ويصف البروفسور كرومر دور كاهنة إينانا على أنه كدور «الشريك المهيمن» ويشرح بأنها هي التي تجعله ملكاً، وليس هناك طريقة أخرى، إذ تحضر عشيقها إلى بيتها الخاص وهي التي يطلب منها كملكة السماء أن تسمح له بأن يتمتع أياماً طوالاً في حضنها. كما أن البروفسور هنري فرانكفورت استنتج أيضاً أن «اعتماد الملك على الربة في الزواج المقدس شيء مؤكد. فنصوص اسين لاتدع مجالاً للشك أن المبادرة

تكون منها». كل ملوك اسين، مدينة سومر التي ازدهرت بين ٢٠٠٠ و١٨٠٠ قبل المسيح، يتحدثون عن أنفسهم كـ «الزوج العشيق لإينانا».

أيضاً تشير ألواح حكم شو سين قرابة ١٩٨٠ قبل المسيح إلى الدور العدواني لإينانا في الزواج المقدس. فنحن نقرأ حوارها «ياعريسي دعني ألاطفك. ملاطفتي النفيسة أحلى من العسل، فدعني في المضجع أتمتع بجمالك الطيب».

عندما خاض انيركار (وهو أنسي في أريك) معركة ضد ملك أراتا انتصر فيها. عندئذ قال له ملك أراتا «أنت عشيق إينانا فأنت وحدك الممجد. فعلاً إن إينانا قد اختارتك لحضنها المقدس». لوح آخر يخبرنا «إلى إيناتوم، أنسي لاغاش (قرابة ٢٢٠٠ قبل المسيح) قدمت إينانا، نظراً لعشقها له، ملكية كيش بالإضافة إلى أنسية لاغاش».

ونقرأ في نصوص عن شولغي، ملك الأسرة الثالثة في أور (قرابة ٢٠٤٠ قبل المسيح) أيتها الربة إليك سوف أقيم الشعائر التي تؤلف ولائي لك. سوف أنجز لك النموذج المقدس». وفي هذه الألواح نفسها، التي هي على مايدو حوار مكتوب لأدوار في الدراما الاحتفالية المقدسة عن الهيروس غاموس، فتقول الربة العليا لإينانا عن شولغي «عندما يمارس الحب معي في مضجعي فإني بدوري سوف أبدي حبي للسيد وسأجعل له مصيراً جيداً، سأجعله راعياً على الأرض».

هناك اسمان آخران للربة في سومر كل واحد (حسب الأماكن المختلفة) يصفها بأنها أم إينانا، يشيران أيضاً إلى ارتباطها بهذه العادة. أحد النقوش يخبرنا عن الربة نينماه (الربة الأم) «ترفع» ريم سين إلى الملكية قرابة عام ١٨٠٠ قبل المسيح في لارسا. ووثائق عن أربعة من ملوك سومر سجلت أن الربة المعروفة باسم ننليل تأتي بهم إلى كوخها دائماً - وهذا يعني أن اتحاداً جنسياً مقدساً قد تم بين الملك المهيأوالكاهنة العليا للربة. ويكتب البروفسور سدني «تبين السجلات الخاصة باحتفالات ننليل أن المناسبات التي يحضر فيها ملك سومري وأكادي إلى الكوخ تحدد تأسيس سلالات مختلفة».

في بداية حكم ليبيت - عشتار قرابة عام ١٩٣٠ قبل المسيح، كانت أخته الكاهنة العليا في أور. ولكن عندما غزت مجموعة أخرى من الناس هذه المدينة، اشترك اسمها مع اسم ملكهم. تقريباً في هذا الزمن، وحتى في زمن انميركار كانت العادات القديمة تستخدم لتبرر نتائج المعارك والاجتياحات العسكرية، فالزواج بالكاهنة العليا كان يستخدم للحصول على شرعية للعرش في عيون الناس. ويكتب سدني سميث عن «المركز السياسي الاستثنائي للكاهنة». يصف ليبيت - عشتار والمرأة التي عرفت على

أنها أخته فيقول «إن الحادثة كلها توضح الأهمية السياسية لتلك التعيينات... فالتعيين المتقطع لأميرات أور، عندما اضطرت المدينة أن تعترف بحكم رجال ليسوا من منشأ جنوبي، يرجع إلى دوافع سياسية على نحو واضح».

وكما أوضحت في الفصل السابع يبدو بعد تعاظم قوة اتباع أنكي وإنليل، أن الكاهنة العليا كممثلة للربة قد خسرت قسماً كبيراً من امتيازاتها، ولكن ترك لها دور منح الملكية، وهي من العادات الأمومية التي ظلت تكرم. إن المركز الفعلي للكاهنة العليا في هذه المرحلة يدعو إلى التساؤل. فنحن نعرف من السجلات أن الكثيرات منهن كن بنات أو أخوات أو أمهات الملوك الذين كانوا في السلطة. فسجلات عصر حمورابي تبين أن أخته كانت كاهنة ناديتو مما يدل أن الكاهنة العليا قد ارتبطت بهذه المجموعة التي يبدو أنها تنظم الشؤون العملية في المعابد والأرض المشتركة.

بابل - هي التي تمسك مقاليد الملوك:

في بابل من القرن الثامن عشر حتى القرن السادس قبل المسيح، التي أعقبت سومر كقوة عظمى في بلاد ما بين النهرين، كانت الربة تعرف باسم عشتار. كانت نسخة أكادية من إينانا وكانت مبجلة مثل عشتار حتى في معبد أريك. موت ابنها/ عاشقها الذي عرف في سومر باسم دموزي، سمي الآن تموز. ويعلق البروفسور جيمس على علاقة عشتار وتموز فيكتب «كانت الشريك المهيمن في هذا التحالف، لأنه عندما صار ذا علاقة وثيقة بعشتار في أسطورة تموز، كان ابنها كما كان زوجها وأخاها، فدائماً يخضع لها باعتباره الإله ـ الشاب».

إن مزايا وليجندات إينانا وعشتار متشابهة حتى أن كثيراً من الكتاب يتحدثون عن الربة إينانا/عشتار. ولكن توجد اختلافات معينة في الليجندات، توجد انتقالات ربما تعكس التغير في المواقف عبر قرون نتيجة غزوات كثيرة مستمرة وناجحة للهندوأوروبيين. لانكاد في أي أدب بابلي نعلم أن عشتار سببت حقاً موت تموز الذي جاء أنه حدث بطريقة عرضية مختلفة. إن الليجندات تشرح شرحاً عاماً أن تموز مات وأن عشتار حزنت.

ولكن في الملحمة البابلية جلجاميش المبنية على ساغا سومرية لم يبق منها إلا شذرات، ورد اسم تموز في قائمة طويلة للعشاق الذين ألحقت بهم عشتار الأذى عميقاً. وجلجاميش المصنف تاريخياً على أنه أنسي أريك القديم، لم يكن له شرف أن يصبح زوج عشتار وهكذا أضيف إلى القائمة. فالأرجح أن القصة تمثل رفضاً قديماً

لزوج/ ملك أن يتبع العادات والتقاليد ويحاولأن يؤسس ملكاً قوياً دائماً. فطلبه للخلود في الليجندة نفسها يكشف أيضاً هذا كرسالة خفية.

لقد ظهرت قصة جلجاميش في سومر. ولكننا مرة ثانية نقول إننا نشتبه بتأخير أو حضور الشماليين الأبويين، وربما أولئك الذين من أراتا. فاسم جلجاميش قد يكون مرتبطاً بالمدينة الحورية المتأخرة كركاميش، التي كان اسمها القديم كاركاميش. وقصة جلجاميش لم توجد فقط في الأدب السومري والبابلي وإنما أيضاً في النصوص الحورية والحثية أيضاً.

إن اسم جلجاميش مدرج في قائمة أنسيات أريك كأنسي لها، ولذلك يجمع دور «الملك» كزوج للكاهنة العليا. وقد جاء اسم أبيه في قائمة باعتباره لوغال باندا الذي وصف أيضاً، وإن كان أنسياً سابقاً لأريك، بأنه راع وبدوي. وفي البداية الأولى للقصة نعلم أن جلجاميش يضطهد أريك «انتزع الابن من الأب وانتزع العذراء من حبيبها. وبعد ذلك نقرأ أنه بصدد حضور وليمة فيها سوف «يخصب امرأة المصير» مما يشير إلى دوره في الزواج المقدس. شخصية أخرى تظهر في هذا الوقت. إنه يعرف باسم أنكيدو، رجل الغابات المتوحش. ويعامل أنكيدو بأن يلبس ثياباً فاخرة وطعاماً رائعاً وشراباً ويصاحب القادشتو، المرأة المقدسة في المعبد ويقضي معها الاتصالات الجنسية الأولى.

بعد ذلك بوقت قصير تعرض عشتار الزواج على جلجاميش فتخبره أنها حدقت بجماله مشتاقة. لكن جلجاميش يعمل ليس وفقاً للدور الذي يفترض أن يلعبه، فيرفض اقتراح الربة. وبعمله هذا يستعرض كل عشاقها الماضين الذين لاقوا مصيراً أليماً وينهي كلامه بالقول «وأنت سوف تحبينني أيضاً ومن ثم تجعلين مصيري مثل هؤلاء». ومن بين هؤلاء العشاق الماضين يشار إلى تموز كعاشق من أصغر عشاق عشتار. ويظهر اسم دموزي فعلاً مرتين في قوائم ملوك سومر، مرة مباشرة بين لوغال باندا وجلجاميش، ومرة قبل حتى بفترة أقدم، وليس إلا أسماء قليلة بعد علالو، أول ملك على سومر في أريدو. دموزي الثاني، وجلجاميش ظهرا ابتداء من ٢٥٠٠ قبل المسيح تقريباً.

بعد رفض الزواج نشب قتال بين عشتار وأنكيدو وجلجاميش، وفيه أهان الرجلان الربة فقتلا ثورها السماوي ورميا في وجهها عظم فخذه أو الأعضاء الجنسية (إن ذلك يعتمد على الترجمة) ويخاطبها جلجاميش «لو استطعت لكنت فعلت ذلك معك» (أي يقتلها ويرمي بأعضائها الجنسية) ونتيجة لهذه الحادثة يموت أنكيدو، الذي نرجح

أن يكون رمزاً للضحية البديلة. وينجو جلجاميش وفي هذه النقطة يذهب بحثاً عن الخلود، وهنا يعرض قصة الطوفان السومري والناجين منه.

بغض النظر عن الارتباطات المحتملة بين اسم جلجاميش واسم المدينة الحوري المتأخرة كاركاميش، فإن التلميحات التي تظهر منذ البداية أن جلجاميش يضطهد أريك، والحبكة العامة للقصة، ووجود النصوص الحورية والحثية للملحمة ذاتها، وعوامل متعددة أخرى تجعلنا نفترض أن هذه الملحمة قد تكون انعكاساً أيضاً لموقف الشماليين. في قوائم الملوك السومريين يسبق أنميركار مباشرة لوغال باندا، والد جلجاميش. وتكشف عدة ألواح مسمارية أن كلاً من أنميركار ولوغال باندا كانا وثيقي الصلة بأرض أراتا (الأرجح أرارتو). وتخبرنا أسطورة عن مصاحبة لوغال باندا لأنميركار إلى تلك المنطقة، وهي رحلة تتوقف عند حادث سري في مكان يسمى جبل حوروم. وكان لأنميركار ارتباطات وثيقة جداً مع معبد أنكي في أريدو، زاعماً أن شعب أراتا أرسل الجزية إلى هناك. فالملك الذي سبق أنميركار هو الذي أسس الأسرة الأولى لأريك. وتخبرنا قوائم الملوك أنه «خاض البحار وصعد الجبال» مما يدل على الأرجح أنه قام بأسفاره قبل الوصول إلى أريك، والأغلب أن يكون وصوله من ديار أراتا. وسجل التمرد ضد عشتار (على الأرجح كما هي ممثلة بالكاهنة العليا) ربما يكون قد حصل في زمن تأسيس الملكية في أريك ثم أضيفت القصة فيما بعد إلى السجلات البابلية لجلجاميش، الذي يبدو أنه صار بطلاً أسطورياً في كثير من القصص الأخرى نتيجة حملاته العسكرية.

ومهما كان الزمن الذي حصل فيه ذلك فإن هذا السجل يرمز إلى حادثة تشبه ديودوروس الصقلي التي جرت معه عند النوبيين في النيل الأعلى. كتب أن ملكاً رفض أن يكون أضحية فذبح جميع الكهنوت الحاضرين وبذلك أعلن لنفسه ملكية أبدية.

وفي العصور البابلية لم يكن الملك يدفع للموت. ومع ذلك وصفت عشتار بأنها ماتزال هي التي تعين الملك «هي التي تهبه سمعته» وفي أحد النقوش لقبت «مستشارة جميع الحكام، هي التي تمسك بمقاليد الملوك» وفي نقش آخر عرفت بأنها «هي التي تمنح الصولجان والعرش وعام الحكم لجميع الملوك». وكتب سرغون الأكادي أحد أقدم ملوك وسط مابين النهرين (قرابة ٢٣٠٠ قبل المسيح) أن أمه كانت كاهنة عليا، وأن أباه كان مجهولاً. ويقول فيما بعد إن عشتار عشقته «... بعدئذ مارست الملك لسنوات».

في كتاب «طفولة الإنسان» يناقش فروبينوس شعيرة التضحية بالملك، فقال موضحاً «من قبل في بابل القديمة تضاءلت هذه الشعيرة، فحالما يدخل الملك في مهرجان رأس السنة الجديدة إلى المعبد يكتفي بخلع ثوبه فيذل ويضرب، بينما بديل عنه في السوق ينال كل مجد في الاحتفال، يدفع إلى الموت شنقاً».

مختلف سجلات الاحتفالات التي ظهرت خلال المراحل البابلية تروي لنا عن ذهاب الملك إلى المعبد ليضرب على وجهه، وتخلع عنه مؤقتاً ثيابه وشارة الملك. وتخبرنا نصوص أخرى أن شعره يجز وينزع عنه زناره، وفي هذه الحالة يرمى في النهر. وعندما يخرج عليه أن يمشي بثياب من خيش عدة أيام رمزاً للحزن. ويلاحظ ساغس أنه توجد بعض الأدلة، حتى من الألف الأول أن الملك لدى موته قد يكون تمثيلاً لتموز الرب الميت (على سبيل الافتراض).

كان هذا تذكيراً رمزياً بالأيام التي كان فيها الزوج/ الملك يلقى مصرعه. ولكن تماماً كماأن جلجاميش استمر في الحياة، بينما أنكيدو مات، كذلك فإن البديل الذي يفقد حياته عندما صارت الملكية في سومر وبابل مؤسسة دائمة ووراثية. وهناك إلماحات إلى التطهير من الخطايا والغفران في هذه الطقوس - وبذلك يكون الملك قد عوقب. ولكن من أجل ماذا؟يبدو أنه تدريجياً صار العقوبة التي تنفذ بسبب خطايا الشعب، ولكن أليس هذا ناشئاً من العقاب الأقدم لرفضه الإذعان للملكة الكاهنة؟ وحقيقة أن حسن الحظ سيكون من نصيبه إذا نفرت الدموع من عينيه عندما يضرب، قد تكشف تلك الأصول. ووفقاً للألواح البابلية «إذا لم يبك الملك عندما يضرب، فإن فأله للسنة سيّىء».

مصر - إيزيس تحزن لموت أوزيريس:

يكتب ساغس عن طقس قتل الملك فيقرر أن «هذه الممارسة الأخيرة وقعت بالتأكيد في مصر في عصور ماقبل التاريخ، بينما يناقش بعض الباحثين أنها استمرت في العصور التاريخية». وفي السجلات القديمة لمصر بعد عام ٣٠٠٠ قبل المسيح بوقت قصير كان يضحى بالرجال على «ضريح أوزيريس» الزوج/ الأخ للربة إيزيس. وتخبرنا السجلات أن الرجال الذين يضحى بهم كانوا ذوي لحى حمراء، ربما كما أشرت من قبل نتيجة غزو الشمسوحوريين.

في السلالة الإلهية المصرية كان حورس أبناً لإيزيس. ولدى موته أصبح أوزيريس. ومع أن موت أوزيريس هو الذي يحتفل بذكراه، فإن حورس فعلاً، حورس الابن هو

الذي مات. وبموت أوزيريس فإن حورس الجديد يعتلي العرش. وهكذا في الأساطير التراكمية في مصر، حيث كل فكرة جديدة تقتضي إضافتها فإن حذف شيء مايكون قليلاً، وينخرط كل من حورس وأوزيريس في معركة ضد سيت. فقصص موت أوزيريس لم تكن فقط يقام ذكراها وتمثل تمثيلاً احتفالياً في مصر وإنما كانت أيضاً مرتبطة بكنعان ارتباطاً وثيقاً. بيبلوس (جبيل ـ المترجم) مدينة تقع شمال بيروت قليلاً في لبنان، كانت مستعمرة مصرية أو ميناء تجارياً منذ الأسرة الثانية في مصر التي حكمت بين ٢٨٥٠ ـ ٢٦٠٠ قبل المسيح ولكن حتى عصر متأخر ١٥٠ بعد المسيح يتحدث لوقيان عن موت عاشق الربة. ويكشف لوقيان أن الطقوس السرية لأدونيس هي ذاتها التي لأوزيريس. وتزعم بعض السجلات أن جسد أدونيس دفن في أفاقا الواقعة على بعد بضعة أميال عن بيبلوس، بينما تخبرنا القصة المصرية أن أيزيس أعادت الجثمان إلى مصر لدفنه، وتصف تفصيلاً مختلف القضايا التي واجهتها وهي تقوم بهذا.

كريت ـ الرب (الذي يموت عاجلاً بعد زفافه):

تصف هوكس الربة وموت الشاب في جزيرة كريت حيث ازدهرت عبادة الربة الأنثى منذ ماقبل ٣٠٠٠ قبل المسيح حتى وصول الدوريين الهندوأوروبيين قرابة عام ١١٠٠ قبل المسيح فرأت «عادة يصاحبها إله ذكر فتي، روح السنة الذي هو زوجها وابنها، والذي يموت ثم يولد ثانية ـ وهذه نسخة كريتية عن أدونيس. وفي كريت المينوسية كان هذا الإله الشاب خاضعاً دائماً للربة ـ كان وسيلة إخصابها فيظهر في مواقف متواضعة وتعبدية».

ويشير ستليانوس الكسيو أن «الزواج المقدس في كريت، اتحاد الربة والرب (الذي يموت عادة بعد زفافه بقليل) يرمز إلى خصب الأرض».

وحتى في العصور الكلاسية كان زيوس الهندوأوروبي يعبده شعب كريت طفلاً مقدساً باعتباره ابناً لأمه ريا. وتخبرنا الثيوغونيا الإغريقية أن الربة ريا خبأت الطفل زيوس من أبيه في كهف كريتي. ففي إحدى الليجندات وصفت ريا بكونها «هوجمت جنسياً» من قبل ابنها زيوس، والأرجح أن يكون هذا بقية لما كان شائعاً بينهم قديماً من زواج مقدس. وفي كريت ينظرون إلى زيوس على أنه الابن الميت، وهذا مفهوم رسخه عميقاً الإغريق الهندوأوروبيون في الأرض الأم، الذين أكدوا أن زيوس كان خالداً.

كنعان الشمالية ـ سيدة الملكية:

في نصوص أوغاريت في القرن الرابع عشر قبل المسيح بدا كثير من السجلات أنه نتيجة تمثل دين الربة للمفاهيم الهندوأوروبية الأكثر جدة، والأرجح أن تكون مشتقة من عدد كبير من الحوريين الذين عاشوا هناك في ذلك الوقت. فالنصوص تخبرنا قصة موت بعل، رب جبل سافون. إنها تسجل موت بعل على أنه كان نتيجة معركة مع موت، وهو اسم مجهول، وإن كانت الليجندة تكشف أن موت كان عدواً يخافه بعل خوفاً شديداً. بعد موته حملت الربة عنات جسد بعل على كتفيها لتجد مكاناً تدفنه فيه. وحالما فعلت هذا انتقمت له بقتل موت، وهو حادث وصف وصفاً مفصلاً. ولكن يبدو أن الانتقام بالقتل هو السبب أن بعل كان مسموحاً له أن يعود إلى عالم الحياة. وبعدها طبقاً للأسطورة، ينضم إلى عنات في أحد الحقول ويجثو أمامها مبدياً امتنانه «معجباً بقرني قوتها، تتخذ هي شكل عجلة مقدسة ويتخذ هو شكل ثور في اتحاد جنسي مقدس. وحتى في هذه المرحلة كانت عنات ماتزال معروفة باسم «سيدة السماء، سيدة الملوكية».

الأناضول ـ هي التي تهيمن على الملوكية:

لاتوجد سجلات بين النصوص الحثية عن الأناضول تشير أن الملك كان يدفع إلى الموت، ربما لأن المادة المكتوبة القديمة التي وجدت هي من انتاج الحثيين الهندوأوروبيين أنفسهم ومع ذلك فإن سون ربة ارينا، الربة الحثية التي يبدو أن الغزاة تبنوها، كانت ماتزال تعرف في الصلاة على أنها «هي المهيمنة على الملوكية في السماء وعلى الأرض». وتصف نصوص الحثيين طقساً تقوم به الملكة أمام ثمانية تماثيل للربة سون يحمل اسم الملكة/ الكاهنة العليا السابقة.

ويكتب غورني «كانت الإلاهة القومية العظمى للحثيين هي الربة سون في أرينا، التي تدير الملوكية (نسبة إلىالملك ـ المترجم) والملكاتية (نسبة إلى الملكة ـ المترجم) ولذلك لايدهشنا أن نجد أن «احتفالاتها المنظمة» كانت من بين الاحتفالات التي كان من الضروري أن يحضرها الملك». ومع أن الدليل ضعيف، إلا أنه يشير إلى العلاقة الكبيرة ذاتها بين كاهنة الربة والملك في تاريخ ماقبل الحثيين.

بعد عام ١٠٠٠ قبل المسيح تقريباً سادت قصص الربة، وعندها كانت تعرف باسم سيبيل ويعرف الفتى بالراعي أتيس، في الأناضول، فعادت ثانية ليجندات بقيت من الدين القديم لدين الربة. نسخ مختلفة عن موت أتيس، ومترافقة في الوقت نفسه

بخصائه، تعيد قصة موت الابن/ العاشق. وما هو هام في سجلات سيبيل وأتيس أن هذه النسخة من دين الربة هي التي دخلت إلى روما بالتدريج. وقد احتفل بها هناك بمواكب ومهرجانات عظيمة حتى عام ٢٦٨ بعد المسيح واعتنق ديانتها أباطرة من أمثال كلوديوس وأوغسطس. ونحن نستطيع أن نخمن تخميناً فقط تأثير هذا على الدين المسيحي حيث تطور هناك في ذلك الوقت. والتقارير الرومانية عن طقوس سيبيل تسجل أن ابنها، وهذه المرة على شكل تمثال شخص، كان يربط إلى شجرة ثم يدفن. وبعد ثلاثة أيام يقال إن نوراً ظهر من القبر وقام أتيس من بين الأموات محرراً العالم بولادته الثانية. وكانت سيبيل دائماً متوحدة مع الربة ريا التي كانت معروفة على أنها أم زيوس، ومن المحتمل جداً في روما ماقبل المسيحية أن أم الإله الميت كانت تعرف باسم ما ريا (Ma Rhea).

قبرص واليونان ـ طقوس من أجل الراعي الميّت:

في جزيرة قبرص كان موت أدونيس يذكر في عبادة أفروديت. وتشرح القصص اليونانية أن الربة اتخذت راعياً شاباً عشيقاً لها، وقد وقعت في حب هذا الشاب منذ أن رأته طفلاً لأول مرة. وبعد أن عاشت معه لمدة سنة في غابات التلال القبرصية، ثم تركته ـ كما تقول الليجندة ـ عندما زارت مدينة كورنثه، إحدى أعظم مراكز عبادة أفروديت في اليونان الكلاسية. وفي غيابها يهاجم خنزير بري أدونيس فيصرعه. ووصف الميت يظهر أيضاً في بعض ليجندات أوزيريس وأتيس. ومن خلال عبادة أفروديت التي كانت في جزيرة قبرص وثيقة الصلة مع عشتاروت الكنعانية، استمرت طقوس أدونيس الشاب الراعي الميت في اليونان الكلاسية وإن لم يرض عنها رسميو الحكومة الهندوأوروبيون.

إسرائيل ـ رب ميت اسمه تموز:

في السجلات التوراتية وصفت طقوس موت الابن/ العاشق مرة ثانية، هذه المرة ظهرت بين النساء العبريات اللواتي صلين في المعبد بأورشليم قرابة عام ٢٥٠ قبل المسيح. فنحن نقرأفي سفر حزقيال «فجاء بي إلى مدخل باب بيت الرب الذي من جهة الشمال وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز» (حزقيال ٨: ١٢) وهناك كن عند جدار المعبد مازلن يقمن باحتفالات الحزن باكيات على تموز.

وكتب البروفسور روبنسون عام ١٩٣٣ عن الموت الاحتفالي لتموز كما جرى في

إسرائيل فزعم «هذا الموضوع درس جيداً في السنوات الحديثة وعموماً جرى الاتفاق (وإن لم يكن إجماعاً) أن الطقس الذي فيه الرب المحتضر والزوج المقدس والموكب الاحتفالي وجد في إسرائيل».

وأشار البروفسور ويدنغرين أننا «قادرون بذلك أن نؤكد أن هذا الحزن الطقوسي موجود في إسرائيل كما كان موجوداً في بلاد مابين النهرين بعد موت تموز، وأن هذا المهرجان النواحي كان يحتفل به مع عيد المظال، بعد الاحتفالات اليوبيلية بالزواج المقدس».

الأرباب المخصية والكهنة الخصيان:

يحتمل أنه في مناطق معينة كان أحد الطقوس البديلة التي تحل محل موت الملك الحالي هو فعل الخصاء، وربما كان هذا الفعل هو الأصل الفعلي للخوف الفانتازي الفرويدي. إن انتزاع أعضاء التناسل الذكرية بدا في عدة ليجندات أنه إخطار بعزل الذكر الحاكم. وهذه السجلات موجودة في المناطق العامة ذاتها التي تفيدنا أيضاً عن موت الزوج الذكر، وفي بعضها، من أمثال أوزيريس وأتيس، يعتبر الخصاء والموت مرتبطين ارتباطاً وثيقاً جداً.

ارتبطت الميثولوجيا الحثية الهندوأوروبية بقصة كوماربي الذي انتزع مركز السلطة من الرب الحاكم السابق آنوا حالما صار كوماربي في طبقة رفيعة. إن الميثولوجيا اليونانية استعارت على نحو خاص من تلك القصص الحثية القديمة، فروت لنا كيف خصى كرونوس أباه أورانوس واغتصب مكانه كما أشارت عليه أمه، الربة غايا، ثم خشي كرونوس من أن يفعل به أبناؤه مافعله هو بأبيه، وبعد سلسلة من الأحداث الميثولوجية اليونانية ينتزع فيها ابنه زيوس بالتدريج السلطة ويطيح بأبيه. وكل من القصص الحثية واليونانية إنما هي قصص هندوأوروبية. إن الخصاء هو الحل الهندوأوروبي الأصلي لقتل الملك الطقسي.

كشفت الأسطورة الأناضولية عن الربة إينار أنه ما إن ينام رجل مع الربة (المقصود الكاهنة العليا) فإنه لايستطيع ثانية أن ينام مع امرأة أخرى، خوفاً من أن يحول إليها القوة المقدسة للربة. وإحدى ليجندات أتيس تفسر خصاءه الطوعي كردة فعل على خوفه من عدم إيمانه بالربة. فإذا كان من غير المسموح للزوج أن يقيم علاقات جنسية مع أي امرأة بعد أن يكون قد نام مع الكاهنة العليا، فقد يكون الخصاء هو الحل الذي سمح له ليبقى حياً.

عندما قطع جسد أوزيريس إلى أربع عشرة قطعة على يد سيت الذي يرسم أحياناً على شكل خنزير بري، تصلحه إيزيس عن طريق جمع كل القطع. ولكن طبقاً لأسطورة مصرية نجد أن أعضاءه التناسلية قد فقدت نهائياً إذ التهمتها أسماك نهر النيل. وكذلك نلاحظ أن الأعضاء التناسلية لأورانوس أيضاً «تبعثرت في المياه». ويبدو أن أتيس الأناضولي قد خصى نفسه في حميا الحب أو الدين أو الخوف من عدم الثقة أو العار أو العقاب الذاتي، كما تقول نسخة القصة. إن جميع الخدم والمساعدين الملكيين في ليجندات عشتار وإينانا وصفوا بأنهم خصيان.

ويظهر عنصر الخصاء، في كثير من السجلات القديمة لديانة الربة. وهناك إشارات متكررة إلى حضور كهنة خصيان في سومر القديمة وبابل وكنعان، وعلى الأخص في الأناضول، حيث تفيد النصوص الكلاسية أن عدد الرجال الذين كانوا يخدمون دين الربة في ذلك الزمن كان يربو على خمسة آلاف في مدن معينة. فالكهنة الخصيان في أناضول العصور الكلاسية كانوا يسمون أنفسهم أتيس.

وهناك اقتراحات قدمت لشرح التصميم الواضح لهؤلاء الرجال على خصاء أنفسهم، وهي عادة قد نجدها غريبة في هذه الأيام. ويدعم هذه التفسيرات مثول الكهنة في ثياب نسائية في كل الشرق الأدنى، وهو اللباس الذي قيل إن الكاهن المخصي يلبسه.

يكتب سستيليانوس الكسيو يرتدي الكهنة والموسيقيون أرواباً نسائية طويلة لها طراز نوعي خاص، وقد أدت هذه الممارسة إلى الظن أنه ربما بسبب التأثير السوري وجدت جماعات من الكهنة المخصيين في القصور الكريتية. وخلال مرحلة متأخرة شكل كهنة سيبيل وأتيس المخصيون في آسيا الصغرى طبقة متماثلة».

ويبدو من الممكن أنهم بدأوا يستحوزون على السلطة كرجال حتى داخل دين الربة، فقد حلوا محل الكاهنات. وربما اكتسبوا هذا الحق بتوحدهم وتقليدهم لحالة خصاء الابن/ العاشق، أو في محاولة لتقليد الأكليروس النسائي، الذي في الأصل يمتلك السلطة، فقد حاولوا تخليص أنفسهم من ذكوريتهم وذلك عن طريق تبني طقوس الخصاء وارتداء ثياب النساء.

في الأناضول وحتى في روما بعد أن يكرس الفتى نفسه للربة يأخذ السكين المقدسة ويقطع أعضاءه الجنسية، ثم يركض في الشوارع ويحمل الأجزاء المبتورة، ويرمي هذه الأجزاء في بيت على طريقه، فتقضي العادة أن على سكان ذلك

البيت أن يقدموا له رداء نسائياً فيرتديه منذ ذلك الوقت ومابعد.

يعلق على هذه العادة ج. ر. تايلور في اختصاره لمجلد بريفولت «الأمهات». لقد لاحظ أن «الخطوة الأولى في تحديد وضع النساء كانت انتزاع احتكار الوظيفة الدينية منهن». وقد استنتج غريفز أن الملك كان صاحب امتياز بأن ينوب عن الملكة، ولكن إذا هو لبس ثوبها، وأشار إلى أن هذا النظام كان معمولاً به في لاغاش السومرية.

في بعض مناطق أناضول العصور الكلاسية تبين أن الكهنة الخصيان قد حصلوا تماماً على السيطرة على ديانة الربة. مجموعة ضخمة من الكهنة الخصيان رافقوا التمثال وطقوس سيبيل عندما دخلت إلى روما لأول مرة. ويمكن لنا أن نتأمل أثر هذا وتأثيره على الدين المسيحي المتشكل جديداً، وعلى عادة التبتل بين الكهنة، التي ما تزال موجودة في قوانين الكنيسة الكاثوليكية.

لقد قضت قوانين العبريين القدماء أن الرجل إذا كان بلا قضيب لايعتبر عضواً في رعايا الدين. «لايدخل مخصي بالرضّ أو مجبوب في جماعة الرب» (تثنية ٢٣: ١). ومن المهم الإشارة أن التوراة تزعم أن الميثاق الأساسي الذي أعطاه يهوه هو القيام بعملية الختان. وهذه العملية يجب أن تتم لجميع العبريين الذكور عقب الولادة بفترة قصيرة جداً. ومع أن الكتّاب في المجتمع المعاصر فسروا ذلك بإجراء صحي وقائي ضد الأمراض التناسلية، فإنه يرجح أن يكون وسيلة لتأكيد «ذكورة» العبريين العابدين للذكورةمن «أنوثة» أولئك الذين انضموا إلى دين الربة؟.

خلاصة:

الزوج الشاب المخصي و/أو الميت، هو أثر من العصور التي كانت فيها الكاهنة العليا تمارس الحق المقدس على العرش، تجاهله أو أساء فهمه الكتاب الذين ركزوا اهتمامهم في منطقة جغرافية واحدة أو مرحلة زمنية واحدة وعجزوا عن فحص الانتقال التدريجي من تفوق الإلاهة الأنثى وكاهناتها إلى القمع التدريجي وطمس هذه العقائد.

وأحياناً يكون سوء الفهم بسبب الانفصال عن كل الأدلة الوثائقية. في عام ١٩٦٤ مرّ ليو أوبنهايم بأقل من سطرين مروراً سريعاً بالربة التي أول ماعبدت في سومر كالإهة كبرى للغة المكتوبة، ثم انطلق ليكتب خمس صفحات بكاملها في شرح نظريته أن كلمة عشتارو هي مفهوم تتضمن القدر أو مصير الحياة، ثم جسدها الرجال فيما بعد

بالربة عشتار. ويؤكد أن هذا بدوره يفسر لماذا كانت الربة دائماً توصف أنها «هي المعتنية وينبوع سلطة الملك وسمعته». ولكن كتلة الدلائل الضخمة أوضحت أن عشتار وكذلك النسخ الأخرى للربة في الشرقين الأدنى والأوسط وصفت أنها «نبع سلطة الملك وسمعته» لأنها كانت تتطلب حقاً أن يصبح الملك الزوج الجنسي للكاهنة العليا، المجسدة للربة على الأرض، التي تمسك بمقاليد حقوق العرش الملكي من خلال السلالة الأمومية.

لقد اختفت عادة القتل الطقسي للملك حالما حققت القبائل الأبوية السيطرة. وربما استخدمت النسخ الكثيرة لليجندة جلجاميش في مختلف اللغات، من أجل هذا الغرض. لقد غدت الملوكية الدائمة هي القاعدة حالما حقق الإله المذكر التفوق، ودور المحسن بالحق المقدس للعرش انتقل إليه تدريجياً، وهو مفهوم حقوق الملوكية الذي مايزال حتى في هذه الأيام.

ثمة شيء من الشك أن العادات الأصلية لقتل الملك قتلاً طقوسياً، والمركز السياسي للكاهنة العليا، تمثل عقبة كبرى أمام رغبة غزاة الشمال في حيازة الملوكية الدائمة والسيطرة الكاملة على الحكومة. ولكن نقطة ثانية من المواجهة، وربما لاتقل عن ذلك أهمية، تقودنا في الفصل التالي إلى تفسير أعمق للمواقف والأنماط الثقافية التي أحاطت بالجنس وأعيد إنتاجها في ديانة الربة، وسمحت بل حتى شجعت نظام القرابة الأنثوية على الاستمرار.

الفصل السابع

العادات الجنسية المقدسة

«الكنعانيون عرفوا من خلال العهد القديم على أنهم العنصر الأكبر في سكان فلسطين الذين طردتهم إسرائيل في احتلالها لـ «الأرض التي تتدفق لبناً وعسلاً». بكل سخط وتعميم واسع احتقر الأنبياء العبريون والمصلحون ومحررو العهد القديم الكنعانيين ووصموهم بالعار. وسبب الإدانة ترجع إلى أنهم يتهافتون على العهر مثل بعليم وعشتروت، وهذه من مظاهر عبادة آلهة الخصب الكنعانية، التي مسخوها بالإشارة إلى جانب واحد منها فقط وهو الإباحة الجنسية...».

هكذا علق البروفسور جون غراي في كتابه «الكنعانيون» الذي أصدره عام ١٩٦٤. هذه «الإباحة الجنسية» التي نسبت إلى الكنعانيين تشير إلى العادات الجنسية المقدسة في الدين القديم، وقد كانت هذه العادات موجودة في كثير من المناطق الأخرى للشرقين الأدنى والأوسط.

وفي العصور التوراتية كانت ماتزال سارية كما كانت منذ آلاف السنين في سومر وبابل وكنعان، لأن كثيراً من النساء كن يعشن داخل مجمع المعبد، نواة المجتمع في الأزمنة السحيقة. وكما رأينا فإن المعابد كانت تملك الكثير جداً من الأراضي الزراعية والقطعان الوفيرة من الحيوانات الآهلة وهي التي تحتفظ بالسجلات الثقافية والاقتصادية ويبدو أنها تعمل باعتبارها المراكز الأساسية المهيمنة على المجتمع. فالنساء اللواتي يقمن في الأرباض المقدسة للجدة الإلهية يتخذن عشاقهن من بين رجال المجتمع. فيمارسن الحب مع أولئك الذين يأتون إلى المعبد ليقدموا التكريم للربة. وهؤلاء الناس كانوا يعتبرون الفعل الجنسي مقدساً وعظيماً ولذلك كان يمارس في منزل خالقة السماء والأرض وكل ماهو حي. وكمظهر من مظاهرها الكثيرة كانت الربة تقدس باعتبارها إلاهة كبرى للحب الجنسي.

بعض الأركيولوجيين يفترضون أن تلك العادات الجنسية للمعابد التي برزت وتكررت في دين الإلاهة الأنثى خلال المراحل التاريخية القديمة في الشرقين الأدنى

والأوسط، يجب أن ينظر إليها على أنها نمط من السحر الرمزي البدائي لتحريض الخصب في القطعان والنباتات كما في البشر أيضاً. وفي رأيي أنها تطورت نتيجة الوعي القديم جداً وفهم علاقة الجنس بإعادة الإنتاج. وبما أن هذا الارتباط لوحظ أولاً في النساء فقد دخل في بنية الدين كوسيلة لضمان النسل بين النساء اللواتي اخترن الحياة والاهتمام بالأطفال داخل مجمع المعبد، وكذلك يحتمل أيضاً أن يكون طريقة لحبلٍ منظم.

فمفهوم إعادة الانتاج موضح بالصور في رقيم حجري رمادي اكتشف في معبد نيوليثي للربة في كاتال حيوك، نقش هناك منذ ثمانية آلاف سنة مضت. أحد جوانب الأثر يرسم جسدين لعاشقين في عناق حميم، وفي الجانب الآخر رسم امرأة تعتني بطفل.

والناس اليوم الذين ربوا وتبرمجوا على «أخلاقية» الأديان الذكورية المعاصرة قد يجدون الأوضاع والعادات الجنسية القديمة صادمة أو حتى دنسة. فلابد أن نعتبر أمثال هذه المحاكمات أو ردود الفعل نتيجة تعاليم وشروط الأوضاع الدينية الحالية في مجتمعنا، التي هي نفسها قائمة على أيديولوجيات أولئك الذين أدانوا العادات الجنسية للربة.

في عبادة الإلاهة الأنثى، كان الجنس هبة منها للبشرية. لقد كان سرانياً ومقدساً. كانت ربة الحب الجنسي والتناسل. لكن في أديان اليوم نجد الوضع مقلوباً عكسياً تقريباً. فالجنس وعلى الأخص الجنس غير الزوجي يعتبر بذيئاً قذراً، بل حتى يعتبر خاطئاً. ناهيك عن دعوة الأديان القديمة التي تتبنى موافقة صريحة على كل جنسية بشرية «عبادات الخصب» فإننا نعتبر الأديان الحالية غريبة في ربط العار وحتى الخطيئة بعملية الحمل بحياة إنسانيّة جديدة ربما بعد قرون من الآن يقوم المؤرخون والبحاثة بتصنيف هذه الأديان تحت عنوان «عبادة العقم».

أدلة وثائقية من سومر وبابل وكنعان والأناضول وقبرص واليونان وحتى في التوراة تبين أنه على الرغم من أن الزواج كان معروفاً في أقدم السجلات المكتوبة استمرت النساء المتزوجات مثل المرأة المفردة في العيش لفترات من الزمن داخل مجمع المعبد مثبتات العادات الجنسية القديمة للربة. والتوراة نفسها تكشف أن هؤلاء النسوة كن حرائر في المجيء والذهاب كما يحلو لهن. فالنساء الثريات والعائلات الملكية وكذلك نساء العامة شاركن في العادات الجنسية للربة. هؤلاء النساء كن حرائر أن يتزوجن في

أي وقت، ويخبرنا سترابو أنه حتى آخر القرن الأول قبل المسيح كن يعتبرن : وجات صالحات بصورة استثنائية. وفي العصور التاريخية الأقدم لم تكن مسألة أو حتى ، نهوم الاحترام واللباقة قد طرحت ـ لقد ابتكرت في الأخلاقية الجديدة.

«أديان العالم القديم المتوسطي (الخاص بالبحر المتوسط ـ المترجم) باستثناء الدين العبري، قبلت عمليات إنسال الحياة على أنها إلهية، على الأقل ليست كشيء غريب ومقيت من الربوبية. ولكن الدعاة المسيحيين، العاملين في الاتجاه العبري ضخموا فردانية الله عن الظواهر البسيطة للولادة، ولذلك انتجوا أحياناً انحيازاً معادياً للجنس فمهدوا للشقاق بين النظرة البيولوجية والعقيدة الدينية الجارية، ولذلك لم يكن الفكر الأخلاقي الحديث رابحاً أبداً».

هكذا علق المؤرخ فارنل في اكسفورد عام ١٨٩٦. كان واحداً من المؤلفين القلائل لتلك الحقبة، وأبرز الذين درسوا الموقف الديني القديم من الجنس بطريقة موضوعية، من دون أن يقدم صفحات سوداء مخجلة ارتباكاً أو يعلق بكراهية دينية.

في هذا الفصل عزمت أن أفسر وأشير إلى الأسباب الكامنة وراء هذا «العداء الجنسي» الذي يظهر عند العبريين وبالتالي عند الأديان المسيحية والمواجهات الناجمة. ولم يكن هذا الموقف المعادي للجنس نتيجة الطهارة الموروثة أو الجنس الأقل الشائع بين أنصار العقائد اليهودية المسيحية. وكما سوف نرى فإنه تطور وانتشر بسبب دوافع سياسية محضة، يرمي إلى تحقيق أهداف تسمح للعبريين الأبويين الغزاة باستيلاء أكبر على البلاد وسيطرة حكومية عن طريق تدمير النظام الأمومي القديم.

من عصر أقدم الغزوات الهندوأوروبية. استمرت التشريعات المتعلقة بنساء المعابد المقدسات، القادشتو ـ تشريعات تتعلق بحقوق الوراثة وحقوق الملكية وحقوق العمل وعلاقاتهن الشرعية والاقتصادية بالأولاد ـ تظهر في القوانين. ومع ذلك فإن الهندوأوروبيين، كما عرفناهم لم يتخذوا موقفاً صريحاً ضد العادات الجنسية ذاتها. على الأقل لايوجد أي أدب اكتشف وترجم حتى الآن يشيرإلى هذا، مع أن القوانين الصارمة المتعلقة بعدم الثقة بالنساء المتزوجات قد استهدفت تلك العلاقات.

ولكن يمكن أن نلاحظ الارتباطات بين العبريين اللاويين القادة. فالقوانين اللاوية للإسرائيليين، من عصر موسى ومابعد فرضت العذرية على النساء حتى حلول الزواج، تحت طائلة التهديد بالموت رجماً أو حرقاً، فإن تزوجن فثقة كاملة، من جانب المرأة فقط، التي تظل مهددة بالموت. ربما كانت عقوبة الموت للمرأة المتزوجة أو المخطوبة التي

اغتصبت تعرض بوضوح الإلحاح اللاوي على الإقرار بالأبوة. فالمشاركة في العادات الجنسية المقدسة في المعابد لاشك أنها تخرق هذه القوانين. وإلى جانب فرض أشد القيود الجنسية على النساء، نجد أن الكهنة والأنبياء اللاويين يدينون باستمرار عادات المعبد الجنسية. وأعتقد أن نقطة المواجهة كانت على النحو التالي:

إذا كانت النساء المقدسات للربة، كالقادشتو، يمارسن الحب مع مختلف الرجال ولايخلصن لزوج واحد فإن الأطفال الذين تلدهم هؤلاء النساء سيكونون مجهولي الأبوة. وتكشف الوثائق السومرية والبابلية أن أولئك النساء أثناء انضمامهن إلى مجمع المعبد، يملكن أرضاً وممتلكات أخرى ويقمن بنشاطات عملية واسعة. وتفيد مختلف السجلات أنهن كن من أسر ثرية ومرغوبات في المجتمع. واتباعاً لعادات النسب الأصلية لدين الربة فإن الأولاد الذين تلدهم القادشتو سوف يرثون الأسماء والألقاب والملكية العائدة لأمهاتهم. وقد استمرت السلالة الأمومية في الوجود كبنية اجتماعية موروثة للمجتمع. فحتى البنات قد يصبحن هن أنفسهن قادشتو. أحد نقوش تراليس في غرب الأناضول حفرت عليه في أواخر عام ٢٠٠ بعد المسيح امرأة اسمها أوريليا اميلياس معلنة بكل افتخار أنها خدمت في المعبد بمشاركتها في العادات الجنسية، كما فعلت أمها وجداتها من قبل.

إن العادات الجنسية المقدسة للدين الأنثوي تقدم لنا روابط أخرى واضحة بين عبادة الجدة الإلهية كما عرفت في سومر وبابل والأناضول واليونان وقرطاجة وصقلية وقبرص وحتى في كنعان. فالنساء اللواتي كن يمارسن الحب في المعابد كن يعرفن بلغتهن «النساء المقدسات» «الطاهرات». واسمهن الأكادي قادشتو يترجم حرفياً إلى «النساء الطاهرات» أو «النساء المقدسات» فالنساء المقدسات يشرن باستمرار إلى «بغايا المعبد» أو بغايا الطقوس. إن استخدام كلمة «بغي» كترجمة لكلمة قادشتو لاينفي التطهر الذي يعتبر مقدساً وحسب بل يشير أيضاً، حسب استدلالات الكلمة وتضميناتها الاجتماعية، إلى الذاتية العرقية من طرف الكاتب. إنها تقود الكاتب إلى سوء تفسير العقائد الدينية والبنية الاجتماعية للمرحلة. ويبدو لي أن كلمة «بغي» تشوه تماماً المعنى الحقيقي للعادات القديمة التي يفترض أن الكاتب يقوم بشرحها.

يكتب البروفسور أولبرايت المعجب بالمثل العليا للإسرائيليين:

«البغاء المقدس كان ملازماً تماماً لعبادة الربة الفينيقية مهما كان اسمها الشخصي، كما نعرف من كثير من الإشارات في الأدب الكلاسي، وعلى الأخص في كتب

هيرودوت وسترابو ولوقيان. وكانت الربة مثل البغي المقدسة تسمى المرأة المقدسة وهذا غريب جداً على نظرتنا... ولقد انتشرت الممارسة بين السكان الكنعانيين الأصليين لفلسطين ثم أعيد إدخالها باستمرار من الأقطار المحيطة بإسرائيل باعتبارها «عادة مقدسة جداً» حسب كلمات لوقيان عندما ناقش الممارسة نفسها في مدينة هيرابوليس في سوريا قرابة ألف سنة بعد آسا».

ويكتب البروفسور جيمس الأقل عدائية نوعاً ما «لقد نجمت من ممارسة البغاء الطقسي بعلاقته مع المعابد الإسرائيلية بشيلوه التي أدانها عاموس... كما اهتم بها هوشع كثيراً جداً، فقد استمرت الكاهنات في ممارسة وظائفهن بغيرة قوية في أيامه (٧٥٠ - ٧٣٥ قبل المسيح) على الرغم من جهود عاموس والاصلاحيين الآخرين مثل آسا للإجهاز عليهن».

حتى في الأرض العبرية لليهودية:

على الرغم من الأوصاف المعاصرة للعادات الجنسية فقد وجد الأركيولوجيون سجلات عن النساء المقدسات في أقدم سجلات سومر. إن ليجندة إينانا وأنكي موجودة في قائمة العادات الجنسية المقدسة على أنها من الهبات العظيمة التي أحضرتها إينانا لتمدين شعب أريك. فقد كانت ملكة السماء تحظى بتقدير جليل جداً من النساء المقدسات، اللواتي كن بدورهن يتمتعن بحمايتها. وكانت نساء المعبد في أريك يعرفن باسم نوغيغ: الطاهرة أو التي لاعيب فيها. إحدى الشذرات السومرية الهامة سجلت اسم ليليث التي وصفت على أنها عذراء شابة باعتبارها «يد إينانا». ونقرأعلى هذا اللوح القديم أن ليليث أوفدت من قبل إينانا لتجمع الرجال من الشارع وتأتي بهم إلى المعبد. وهذا الاسم ذاته ظهر فيما بعد في الميثولوجيا العبرية على أنها زوجة آدم الأولى، التي رفضت أن تكون خاضعة له جنسياً، وفيما بعد كاسم لشيطانة تهيم على وجهها تنتظر أن تجد منياً مُراقاً، الذي منه تخلق «أطفالها الشياطين غير الشرعيين». كل هذه القصص تطورت كردة فعل على ليليث الأصلية، المرتبطة جداً بالعادات الجنسية لعبادة الربة.

في القرن الثامن عشر قبل المسيح، بدأ اسم عشتار في بابل يحل محل اسم إينانا السومري. ويشير أحد الألواح إلى أريك حيث حلت عبادة عشتار تدريجياً محل عبادة إينانا، باعتبارها مدينة «المحظيات والبغايا» (ترجمة وقتية للكلمتين). وأشار اللوح نفسه إلى الكهان الذين حللوا الحب مع الغرباء بحجة أنهم تجسيدات للروح القدس. فنساء

عشتار عرفن بالكلمة الأكادية قادشتو بينما في المعبد الهام في بابل عرفن باسم عشاريتو التي تعني «نساء عشتار».

بقايا من هذه العادات الجنسية القديمة وصفها هيرودوت الذي أفاد أنه في عصره، قرابة عام ٤٥٠ قبل المسيح كانت نساء بابل يمارسن الحب مع غريب مرة في حياتهن فقط باعتبار ذلك تجربتهن الجنسية الأولى، وفيما بعد يتزوجن ويمارسن الجنس مع أزواجهن فقط منذ ذلك الوقت ومابعد.

وسجل سترابو الذي ولد في الأناضول قبل ولادة المسيح بوقت قصير أن العادات الجنسية اتبعت في عبادة الربة في كثير من مناطق الأناضول في ذلك الوقت. وكانت هناك عبادات إما باسم سيبيل أو أنيتيس. لقد أخبر أن تلك العادات كانت مظهراً مكملاً للعبادة في كومانا وفي ليديا أيضاً، حيث يؤيد ذلك نقش من تراليس وليديا. وكتب أنه في رحلاته شاهد بأم عينه أن الأطفال الذين يولدون بهذه الطريقة كانوا يعتبرون شرعيين ومحترمين ويأخذون اسم أمهم ومركزها الاجتماعي. وأضاف أن الاسم واللقب كانا يستخدمان بكل كبرياء في كل النقوش الرسمية وعلق أنه في الأناضول، في زمنه «كانت الأم غير المتزوجة تعبد».

فالنساء المقدسات خدمن في معبد أفروديت في كورنثة خلال المرحلة الكلاسية لليونان. وفيما بعد تحدث لوقيان عن العادات في زمنه عام ١٥٠ بعد المسيح. أوضح أن النساء في ذلك الوقت اتخذن الغرباء عشاقاً فقط في احتفال عيد أدونيس. وحتى عندما دخلت عبادة إيزيس المصرية إلى روما فإن النساء المقدسات اتبعن العادات الجنسية المتبعة هناك، في معبد إيزيس.

لاتوجد سجلات معروفة في هذا العصر تدل أن نساء مصر القديمة اتبعن العادات الجنسية ولكن في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر الكاهن المصلح حزقيال، يتهم بغضب مجموعة من النساء العبريات بالفسق والدعارة مؤكداً أنهن تعلمن هذه الأساليب الجنسية الشريرة من المصريين. وهو يحذر في مقطع من مقاطع سفره «وأبطل رذيلتك عنك وزناك من أرض مصر» (حزقيال ٢٣: ٢٧) وفي قصته المجازية عن فتاتين شابتين، رمز بهما إلى الأمتين المنفصلتين للشعب العبري وهما اليهودية وإسرائيل، فلام الفتاتين لأنهما - وقد كانتا منفلتتي الحرية الجنسية في مصر - امرأتان شريرتان وساقطتان في كنعان.

إن عبادة الربة من أمثال عشتوريت (عشتار) كانت منتشرة في منطقة المتوسط.

فالكنعانيون من صور إلى صيدا (الفينيقيون) أسسوا معابد عشتوريت في قرطاجة وأريكس في صقلية وفي عدة مواقع في قبرص، وفي كل هذه الأمكنة كانت تتبع العادات الجنسية المقدسة. ويتحدث سوزومينوس عن العادات المقدسة في معابد عشتوريت في أفاقا وبعلبك في المنطقة المعروفة اليوم باسم لبنان. وقد شرح فارنل كثيراً من الارتباطات في المنطقة المتوسطية.

في دين عشتوريت تماماً، كما في عبادة الربة في كل مكان في الشرقين الأدنى والأوسط، استمرت النساء في اتباع العادات الجنسية المقدسة. وتربط التوراة تلك القادشتو في أورشليم بالنُقب المنسوجة أو الألبسة الخاصة بالأشيريم (الربة عشيره) فيما يسميه رولاند دي فوكس «بيت البغايا المقدسات». كما يؤكد أن العادات الجنسية كانت عادية جداً في المعابد الكنعانية وقد قامت النساء الإسرائيليات بهذه الممارسة على الرغم من إدانة قادة العبريين.

والشيء الهام في فهمنا الواقعي لعداء العبريين لهذه العادة هو التحقق أن النساء المقدسات تابعن خدمة المقدسة الأنثى بالأساليب الجنسية القديمة ـ حتى في الأرض العبرية لليهودية. فقد ظلت العادات الجنسية مظهراً من مظاهر العبادة الدينية في المعبد في أورشليم، المعبد الذي زعموا أنه ليهوه، وهو المعبد ذاته الذي كان النسوة يبكين فيه وينحن على تموز.

كتب البروفسور جيمس وعدة باحثين آخرين عن عبادة عشتوريت القائمة جنباً إلى جنب مع عبادة يهوه في أورشليم. كما وصف جيمس العادات الجنسية في أورشليم وفي المعبد العبري في شيلوه.

ونعلم من سفر هوشع في العهد القديم أن امرأة، وهي هنا جومر (زوجة هوشع) كانت حرة أن تتزوج وتربي الأطفال وتتابع ممارسة الحب مع الرجال الآخرين في المعبد فترتدي أفخم ماعندها لتمارس هذه العملية. فحتى في هذه السجلات التاريخية التي يتضح أنها كتبت لتدين صفة أفعالها فإن الوصف يكشف أنها شاركت في العادات الجنسية بمحض إرادتها ولكن كلحظات مسرة وليس كالأطراف المختلفة. هذا الموقف غير مقبول أبداً لدى الرجال الذين تبنّوا النظام العبري الأبوي، مثل أشعيا، ولكنه يفصح أنه بالنسبة إلى أولئك الذين ينتمون إلى الأنظمة الدينية الأخرى كان سلوكاً عادياً جداً.

قبلت هذه العادات الجنسية لآلاف السنين كعادات طبيعية بين سكان الشرقين

الأدنى والأوسط. لقد تقبلوا بل حتى شجعوا استمرار أنماط النسب الأمومي فانتعش نظام القرابة الأمومية. ولكن داخل الممارسة الفعلية للعادات الجنسية كانت هناك حاجة للاهتمام بأبوة الأطفال ـ وفقط بالمعرفة المحددة للأبوة استطاع النظام الأبوي أن يبقى.

اعتقد أنه على محاولة إقامة هذه المعرفة المحددة للأبوة التي تجعل إقرار الأبوة ممكناً أدينت أخيراً هذه العادات الجنسية القديمة باعتبارها آثمة فاسدة، ولهذا السبب ابتكر الكهنة اللاويون مفهوم الأخلاقية الجنسية: عذرية النساء قبل الزواج، والثقة الزوجية بالنساء، وبكلمة أخرى السيطرة الكاملة على معرفة الأبوة.

حيث تقف يتحدد تماماً ماتراه. فمن نظرة أولئك الذين اتبعوا دين الربة كانوا لايرون غضاضة في اتباع الأساليب القديمة. ومن وجهة نظر القبائل العبرية الغازية اعتبر هذا الدين القديم قصفاً وشراً ومتعة وعاراً وضعة وخطيئة، اعتبر عبادة خصب منحطة. ولكننا نشك في أنه خلف هذا المثال الأخلاقي كانت هناك محاولة سياسية للاستيلاء على الأرض والملكية تتاح لهم فقط بقيام مؤسسة النظام الأبوي، ربما هو النظام الذي عرفوه في الأرض الشمالية للهندوأوروبيين؟ فهل لهذه الأسباب أعلنت الشرائع اللاوية أن أي نشاط جنسي للنساء لايتم داخل حدود مضجع الزواج يعتبر خاطئاً، أي ضد قوانين يهوه؟ فطبقاً للتوراة أسست هذه الشرائع في أيام موسى، قبل غزو القبائل العبرية لأرض كنعان بوقت قصير. لقد جرت المواجهات الأرضية والاجتماعية جنباً إلى جنب. لقد كانت معركة طويلة وشنيعة بدأت منذ وصول العبريين إلى كنعان واستمرت حتى العصر الروماني وبداية العصر المسيحي، ومعظم هذه المعركة مسجل في التوراة.

الفهم الكامل لمدى معاداة العبريين للسلوك الجنسي ومحاولة الكهنة اللاويين تغيير السلوك الجنسي ومواقف النساء العبريات سوف نختبره عن طريق معرفة إلى أي مدى أثر دين الربة مباشرة في الشعب العبري. فهل كانت عادات ديانة الربة تسلية نادرة جوبهت في مناسبات غير منتظمة، أم كانت ديناً مايزال، على الرغم من غزوات الهندوأوروبيين واللاويين عاملاً فعالاً في حياة أولئك الذين عاشوا في كنعان؟

الفصل الثامن

قدموا البخور لملكة السماء

مع أن تماثيل الإلاهة الأنثى دفنت عميقاً تحت رمال ماكان يسمى في يوم من الأيام بلاد كنعان، فقد راحت التنقيبات الأركيولوجية تكشفها باستمرار. تماثيل الربة هذه، بعضها يعود إلى ماقبل ٧٠٠٠ قبل المسيح، تقدم شهادة صامتة للعبادة القديمة لربة السماء في البلاد التي تذكر اليوم على أنها مهد كل من اليهودية والمسيحية.

حديثاً نشر إيغال يادين، أستاذ الأركيولوجيا في الجامعة العبرية في أورشليم ومدير مؤسسة الأركيولوجيا هناك، تقريره عن تنقيبات مدينة حاصور في كنعان التوراتية. ويصف بطريقة مراوغة نوعاً ما الدليل على وجود عبادة الربة بهذه الطريقة:

«مع أن الدين الرسمي لإسرائيل الشمالية كان دين يهوه ـ إله إسرائيل ـ فإننا نعرف من أشعار التوراة ومن المكتشفات الأركيولوجية أن عبادة بعل وعشتار قد أثرت عميقاً في السكان المحليين على شكل معتقدات فولكلورية أو شعبية ـ وهذا ما أمن ضمانة مضاعفة. والحقيقة أننا اكتشفنا تماثيل طينية صغيرة تمثل عشتار ربة الخصب، وما يمكن أن يسمى بقايا المقدسات المرتبطات بعبادة بعل وعشتار».

لدى مناقشة عصر البرونز المتأخر في كنعان (قرابة ١٥٠٠ ـ ١٣٠٠ قبل المسيح) يخبرنا البروفسور أولبرايت أن:

«أحد الأنواع الشائعة للموضوعات الدينية الموجود في طبقات العصر البونزي المتأخر يتألف مما يسمى بروشات عشتار. وهي بروشات فخارية بيضوية الشكل عموماً نقش عليها (بيد فاخوري أو سكاب معدن) الربة عشيرة العارية، في وضع أمامي وذراعاها مرفوعتان، تضم سويقات زنبقية أو أفعواناً أو الاثنين معاً في يديها. رأس الربة مزين بحلقتين حلزونيتين طويلتين متوحدتين مع حلقات حاتور المصرية. وهذه البروشات مستعارة من بلاد مابين النهرين، حيث كانت شائعة قبل التاريخ في العصر البرونزي المبكر (قرابة ٣٢٠٠ ـ ٢١٠٠ قبل المسيح).

كاتلين كينون، المديرة السابقة لمدرسة الأركيولوجيا البريطانية في أورشليم تبحث في كنعان التوراتية فتكتب عن:

«بروشات عشتار هي موضوع العبادة الأكثر شيوعاً تقريباً في كل مواقع الفترة (العصر البرونزي المتأخر). تلك البروشات، مع مايرافقها من دين فينيقي لايمكنها على أي حال أن تؤخذ في أي موقع خاص دليلاً على أنها لم تقع تحت السيطرة الإسرائيلية، فحتى تل بيت مرسيم نفسها تقدم دليلاً واضحاً لتكرار هذه البروشات أو التماثيل الصغيرة المشابهة حتى القرن السابع قبل المسيح. واتهامات الأنبياء وحدها كافية لإظهار أن اليهودية ناضلت باستمرار ضد الدين القديم للبلاد».

في اكتشاف تأثير وأهمية عبادة الربة في كنعان زمن التوراة، نجد أنه مثل عشتوريت، عشيره، وعشتارت وأتوريت أو علات أو بعلات (وكلتاهما معروفة كربة) كانت الإلاهة الأساسية للمدن الكنعانية من أمثال صور وصيدا وعسقلان وبيت عنات وأفاقا وبيبلوس وعشتوريت كارنيم.

في عام ١٨٩٤ ذهب روبرتسون سميث إلى أن عشتروت أصبحت الزوجة الأقل أهمية لبعل في «الزمن التوراتي، ومع ذلك نقرأ نقوشاً للربة في كنعان باعتبارها حاكمة سماوية وربة الملوكية وأم جميع الآلهات. لقد ترافقت فعلاً مع بعل، مع بعل واحد أو عدة بعليم ولكن إذا دققنا النظر نجد أن الطقوس وشكل الممارسات هي تلك التي ترفع إلى دين الربة القديم.

طبقاً لسيتون ليود أستاذ الأركيولوجيا الآسيوية الغربية فإن كلمة بعل، التي تترجم عادة بكلمة سيد تتضمن في الأصل وضعاً مؤقتاً أو عبادة مؤقتة للملكية. وربما استُخدم الاسم مثل الكلمة الهندوأوروبية باتي كما استُخدم كسيد ومالك ومعلم وزوج، وكما أشرت من قبل يمكن أن يكون مرتبطاً بالكلمة السنسكريتية بال. وفي أوغاريت في شمال كنعان سأل بعل جبل صفون الربة التي تعرف هناك باسم عنات، أن تؤمن له معبداً لأنه ليس له معبد. وفي هذه الليجندات ذاتها في القرن الرابع عشر قبل المسيح، تذبح عنات بسهولة العدو الذي كان قوياً لأن يخيف بعل أولاً ثم يقتله. ومع أن اسم بعل قد يكون دخل قبل قرون باعتباره إله العاصفة لجبل سافون على يد الحورين في أوغاريت فإن الاسم في زمن كتابة هذه الليجندات كان أيضاً متوحداً مع زوج الربة وفي أوغاريت لعب بعل دوراً مزدوجاً كإله عاصفة للجبل وكزوج يموت فيما يشبه دموزي وتموز وأتيس وأوزيريس

وأدونيس. ونعلم أن حزن عنات عليه في موته يشبه حزن البقرة على عجلها.

وحتى ثور ـ إيل، الإله الذكر الأكبر، وقد وصفه بعض الكتاب أنه رأس الآلهة في أوغاريت، جاء عنه أنه اختبأ في حرم عميق من ثمانية غرف، يرتعد خوفاً عندما اقتربت منه عنات القوية. في هذه النصوص نفسها عرفت عنات بأنها «سيدة الملوكية وسيدة الدومنيون وسيدة السموات العلى». وفي ضوء ألواح كنعان الشمالية لايستطيع المرء أن يدافع عن الفكرة بأن أياً من هؤلاء الآلهة الذكور صور على أنه شامل القوة أو على أنه جبار، مالم يؤكد على افتراض أن كل الآلهة الذكور كانوا على هذا النحو. ومع أن هذه النتيجة لم ينطق بها معظم الكتاب فإن الربة عنات هي التي تظهر من تلك الليجندات الكنعانية إلاهة الشجاعة والقوة الفائقة.

وقد أكد هستنغز في كتابه «معجم التوراة» عام ١٩٠٠ أن عشتوريت كانت فائقة فيقول عنها «كانت هذه الربة المعبود الرئيسي للساميين في المرحلة الأمومية البدائية لتنظيمهم. إنها تمثل الأمومة البشرية، حرة في حبها، أم منتجة للعشيرة وقائدتها في السلم والحرب».

في صفحات العهد القديم قلما يظهر اسم عشتاروت وحده، هذا الاسم الذي استخدم في كنعان الشمالية حيث استوطن الشعب العبري. كان اسمها دائماً تقريباً مرتبطاً ببعل مثل شياطين الأفاعي التي كانت في الليجندات الهندوأوروبية أبناء أو أزواج الربة، وأحياناً كان يشار إلى الدين باسم بعليم. ومع أن من المحتمل جداً أن الدين الكنعاني في الجنوب حيث شن الأمراء الآريون غزوات عميقة قام برفع بعل إلى مكانة أرفع في الزمن التوراتي المتأخر فالعبادة والطقوس والعادات الجنسية والكهنة والخصيان والحزن على تموز أو بعل كزوج يموت ووفرة تماثيل عشتار وبروشاتها والأعمدة والأقطاب الرمزية (فعلاً تسمى عشيرة وإن كانت دائماً في حالة أدنى) كل ذلك يكشف أن الرمزية وعادات دين الربة هي التي كانت فعلاً هدف العدوان اليهودي. ومما يدل على ذلك أن الكهنة اللاويين كما شوّهوا عن عمد تهجئة حروف اسمها وشوهوا التلفظ به (فهم يلفظونه بلفظ بوسيت وتعني العار) ويشيرون إليها بجنس المذكر رافضين حتى الإقرار بوضع الربة، كذلك تابعوا ربط اسمها بزوجها المذكر.

وكما قرأنا من قبل فإن التوراة والأدب الديني قد يكونان جزئياً نتيجة أهداف سياسية مقصودة مثلما هما سجل لعقيدة أو معرفة عتيقة. في مناقشة أسطورة الفردوس

في التوراة كتب كامبل عن «الميثولوجيات التآمرية والمعاكسة» وكتب البروفسور شييرا أن أسطورة مردوخ قام بالدعاية لها الجيوش البابلية، واستنتج أن ليجندة آشور عن التفوق كانت عبارة عن نسخة من أسطورة مردوخ أعيدت صياغتها. كما كتب أن أسطورة آدم وحواء «دخلت دوائر البحث» وبين أن التوراة خضعت لرقابة الكهان الذين كانت لديهم سلطة القرار فيما «يلائم وينسجم مع تاريخ مؤسسي العرق...» كما علق البروفسور ويدنغرين على التوراة كما تعلم «... هناك مقاطع كثيرة تعرضت بكل وضوح للرقابة حتى تطهّر لتنسجم مع تاريخهم».

مع أن كثيراً من سجلات التوراة قائمة في الأرجح على أحداث تاريخية فعلية، أثبتتها بشتى الطرق وثائق ودلائل قدمتها الحفريات الأركيولوجية، لكن يبدو أن التقارير اللاوية التوراتية عن الدين «الوثني» في كنعان قدمت من وجهة نظر تفيد الثيولوجيا اللاوية وتقبل بها، ولم تقدم في سجل تاريخي موضوعي. وعلى الرغم من مختلف الطرائق المستخدمة لتشويش وتوحيد جنس الربة عشتوريت أو عشيراه حتى في التوراة كما نعرف اليوم فإن مقاطع ورمزيات فضحت الحضور المؤثر والسائد للعبادة القديمة للإلاهة الأنثى، وتثبت ذلك المنتوجات الفنية للكنعانيين الآخرين في الشرق الأدنى.

عرف العبرانيون في مصر عبادة الربة إيزيس أو حاتور. وحتى أربعة أجيال عاشوا في أرض أحرزت النساء فيها مكانة رفيعة جداً، وقد استمر نظام السلالة الأمومية يقوم بعمله في معظم الأحقاب. وانطلاقاً من عدد العبريين الذين خرجوا من مصر بالمقارنة مع الأسرة ذات الإثني عشر سبطاً الذين دخلوا على مايفترض قبل أربعة أجيال، فإن من الأرجح أن عدداً كبيراً من هؤلاء العبريين المعروفين باسم الإسرائيليين قد يكونون فعلاً مصريين وكنعانيين وبدواً ساميين وشعباً آخر عابداً للربة انضم إليهم في مصر. وإلى شرق كنعان تماماً، في بابل، تنتصب معابد عشتار. وفي أرض كنعان، الأرض التي غزاها العبرانيون، وجعلوها لهم بعد الخروج من مصر، تكشف السجلات الأركيولوجية والمنتجات الفنية أن دين الربة عشتوريت وعشتار وعشيرة وعنات وعلات وبعلات ظل مزدهراً في كثير من المدن الكبرى.

دمروا مذابحهم وحطموا صورهم:

زعم الكتاب اللاويون للعهد القديم أن ربهم أحضرهم إلى أرض كنعان باعتبار «أرض الميعاد». ومع ذلك فإن من الواضح حتى في سجلاتهم الخاصة أن كنعان لم

تكن أرضاً خالية حتى في عصر ابراهيم. في سفر العدد ١٣: ١٧ - ١٩ جاء أنه عقب وصول القبائل العبرية، قادمين من الصحاري في سينا، أرسلوا مبعوثين متقدمين إلى مدن كنعان. وهذا هو تقريرهم عن الوضع قرابة ١٣٠٠ - ١٢٥٠ قبل المسيح: «ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها وحقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جداً» (عدد ١٣: ٢٧ - ٢٨).

ويوافق السجل التوراتي أن كنعان كانت من قبل آهلة وفيها كثير من الناس الذين يعيشون في مدن عظيمة محصنة. وعلى الرغم من هذا نقرأ عن نية العبريين القادمين ليس فقط أن يتابعوا حياتهم في أرض كنعان، بل التحطيم المقصود والعنيف للدين القائم وإحلال دينهم محله. وهذه النية أفصح عنها اللاويون كأمر من يهوه والذي يفترض أنه أعلن الأمر قبل أن يدخل الإسرائيليون إلى كنعان:

احفظ ما أنا موصيك اليوم. ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آت إليها لئلا يصير فخاً في وسطك. بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم فإنك لاتسجد لإله آخر لأن الرب اسمه غيور. إله غيور هو (خروج ٣٤: ١١ - ١٦).

بهذا الأمر بدأت الغزوة العبرية لكنعان. ومع أن الدخول العبري إلى «أرض الميعاد» في كنعان إنما هو تخيل الوصول إلى ملجأالسلم بعد قرون من العبودية في مصر، فطبقاً للتوراة فإن احتلالها اتخذ شكل سلسلة من الحصارات الدموية، التي تشبه تماماً غزوات الهندوأوروبيين القديمة.

وفي سفر التثنية ٢: ٣٣ نقرأ أنه تحت قيادة موسى وهرون قابل الإسرائيليون ملكاً يسمى سيحون في مدينة تسمى ياهص. وتخبرنا السجلات اللاوية (فدفعه الرب إلهنا أمامنا فضربناه وبنيه وجميع قومه وأخذنا كل مدنه في ذلك الوقت وحرمنا من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال ولم نبق على حي». وعندما لاقوا عوج ملك باشان، يخبرنا سفر التثنية ٣: ٣ - ٧ أنه «دفع الرب إلهنا إلى أيدينا عوج أيضاً ملك باشان وجميع قومه فضربناه حتى لم يبق له حي... لم تكن قرية لم نأخذها منهم... ستون مدينة أخذناها... فقتلنا كل الرجال والنساء والأطفال في كل مدينة».

توفي كل من هرون وموسى في الصحراء. واستلم يشوع القيادة ودخل الإسرائيليون أريحا (جيريكو). ونعلم من سفر يشوع ٦: ٢١ أنه «حرموا كل مافي

المدينة من رجل وامرأة. من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف». ولكن بهذا الحصار ذاته نعلم أن «كل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدساً للرب وتدخل في خزانة الرب» (يشوع ٦: ١٩) ونعلم من سفر يشوع ٦: ٢٤ أن تلك الأوامر نفذت «واحرقوا المدينة بالنار مع كل مابها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب». وفي معركة عاي تخبرنا التوراة «فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً. جميع أهالي عاي» (يشوع ٨: ٢٥). وفي سفر يشوع ٨: ٢٩ جاء أن يشوع «ملك عاي علقه على الخشبة إلى وقت المساء». وبما أن يهوه في مقطع مبكر قد أخبر يشوع بأن يفعل مع ملك عاي مافعله مع ملك أريحا، فقد نفترض أن هذا كان مصير ملك أريحا أيضاً، مع أن سجل الأحداث لايشير إلى ذلك.

ونقرأ في سفر يشوع الإصحاح العاشر:

وأخذ يشوع مقيّدة في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ملكها هو وكل نفس بها. لم يبق حي. وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا. وثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنة وحارب لبنة. فدفعها الرب هي أيضاً بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها. لم يبق حي وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لبنة إلى لخيش ونزل عليها وحاربها فدفع الرب لخيش بيد إسرائيل فأخذها في اليوم التالي وضربها بحد السيف وكل نفس بها حسب كل مافعل بلبنة.

حينئذ صعد حورام ملك جازر لإعانة لخيش وضربه يشوع مع شعبه حتى لم يبق له حي.

ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لخيش إلى عجلون فنزلوا عليها وحاربوها وأخذوها في ذلك اليوم وضربوها بحد السيف وحرم كل نفس بها في ذلك اليوم حسب مافعل بلخيش. ثم صعد يشوع وجميع إسرائيل معه من عجلون إلى حبرون وحاربوها وأخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفس بها. لم يبق حي حسب كل مافعل بعجلون فحرمها وكل نفس بها.

ثم رجع يشوع وكل إسرائيل معه إلى دبير وحاربها وأخذها مع ملكها وكل مدنها، ضربها بحد السيف وحرموا كل نفس بها. لم يبق حي كما فعل بحبرون فعل بدبير وملكها وكما فعل بلبنة وملكها.

فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها. لم يبق حي بل حرم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل» (يشوع ١٠: ٢٨ ـ ٤٠).

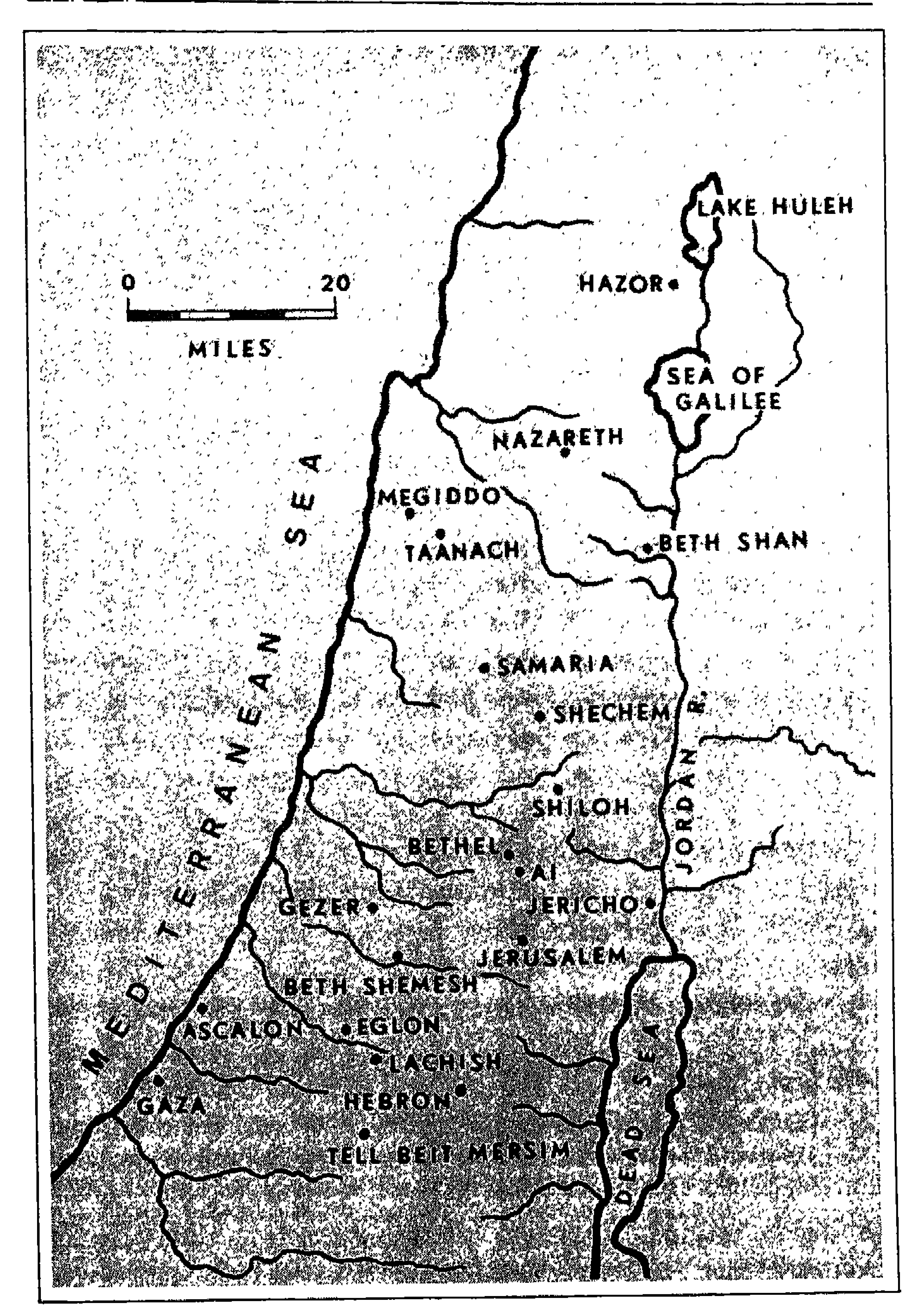
وفي حصارات مشابهة دمر يشوع والإسرائيليون مدن جبعون وحاصور وحتى بعل جاد في وادي لبنان تحت جبل حرمون. وأخشى مخاطرة التكرار، إذ أنني لا أوافق على تعليق البروفسور أولبرايت أن «الطبيعة الداعرة للعبادة في كنعان حلت محلها عبادة إسرائيل ببساطتها الرعوية وصفاء الحياة، ووحدانيتها الرفيعة وقانونها الصارم في الأخلاق». وبدلاً من أن نقدم صورة العبيد المساكين المشردين مع مثل رفيعة يدخلون «أرض الميعاد» ليريحوا عظامهم المتعبة ويبنوا حياة جديدة أفضل، نميل إلى أن نتذكر الوصف الذي قدمه البروفسور لويد لدخول اللوفيانيين إلى الأناضول وطريقتهم التي حققت نجاحهم والتي «كانت متسمة بالدمار الشامل».

وإمعاناً في رفض ماسماه «صفاء الحياة» أو «القانون الصارم في الأخلاق» نقرأ أنه على الرغم من كل السجلات التي تقول إن الإسرائيليين لم يتركوا حياً فإن ذلك ليس هو الحقيقة الكاملة. إذ في سفر العدد (٣١: ١٧) نقرأ أنه بعد المعركة ضد المديانيين، وكانت ماتزال القيادة بيد موسى وهرون، جاء الأمر إلى الإسرائيلين «والآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها، لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة رجل ابقوهن لكم حيات». وفي سفر العدد ٣١: ٣٥ نقرأ قائمة عن الأسلاب وغنائم الحرب التي أخذها الإسرائيليون في هذه المعركة ذاتها. وفي هذه القائمة يدرجون الأغنام والأبقار والحمير واثنين وثلاثين ألف فتاة «لم يعرفن مضاجعة رجل».

وفي سفر التثنية أيضاً قبل أمر يشوع نقرأ:

«وإذا خرجت لمحاربة أعدائك ودفعهُم الرب إلهك إلى يدك وسبيت منهم سبياً ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة والتصقت بها واتخذتها لك زوجة فحين تدخلها إلى بيتك تحلق رأسها وتقلم أظفارها. وتنزع ثياب سبيها عنها وتقعد في بيتك وتبكي أباها وأمها شهراً من الزمان ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوج بها فتكون زوجة وإن لم تسر بها فاطلقها لنفسها. لاتبعها بيعاً بفضة ولا تسترقها من أجل أنك أذللتها» (تثنية ٢١: ١٠ ـ ١٤).

ومع أن هذه الأعداد أيضاً قد يكون مبالغاً فيها، فإن المقاطع تدل أن كثيراً من النساء اللواتي فيما بعد عرفن كزوجات للإسرائيليين قد يكن هن الفتيات اللواتي



خريطة ٤ ـ كنعان الشمالية حسب العهد القديم

شهدن قتل أسراهن وأصدقائهن وتدمير منازلهن ومدنهن. لابد أنهن شعرن بالخوف والصدمة وقد أخذن بهذه الطريقة إلى القبائل العبرية، تصحبهن عاداتهن الطفولية وأديانهن مما جعل موقفهن ووضعهن في الحياة العبرية صعباً. ومع أن عدد النساء في القبائل العبرية لم يدرج في قائمة فإن المقاطع تدل أيضاً أنه عندما خرج العبريون من مصر كان لديهم نسبة مئوية كبيرة جداً من الرجال. كل هذه العوامل قد تساعدنا في تفسير «قبول» النساء العبريات للقوانين الأبوية الجديدة.

تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت:

مع أنه حسب السجلات التوراتية كان سكان كثير من المدن والعواصم قد ذبحوا، فإن عدة مدن كبيرة لم تمس، مدن كانت عشتاروت فيها ماتزال تعبد باحترام. وحالما قسمت الأراضي المحتلة في كنعان بين القبائل، كان اللاويون يعيشون وسط كل قبيلة منهم. من هذه النقطة ومابعد نلاحظ الهجمة الطويلة والضارية التي شنها العبريون على ملكة السماء وبعلها. وعلى الرغم من كل التحذيرات كان دين الربة إغراء كبيراً للعبريين الذين غزوا كنعان، فلكثير منهم كان هذا الدين يعتبر دين أجدادهم. إشارات إلى عبادة الشعب اليهودي في الدين القديم يظهر باستمرار في صفحات التوراة، وهي أيضاً من وضع الكهنة اللاويين:

سفر القضاة ٢: ١٣ «تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت». سفر القضاة ٣: ٧ «فعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب إلههم وعبدوا البعليم والسواري» (السواري هي عشتاروت ـ المترجم). سفر صموئيل الأول ٧: ٣ ـ ٤ «وكلم صموئيل كل بيت إسرائيل قائلاً إن كنتم بكل قلوبكم راجين إلى الرب فانزعوا الآلهة الغريبة والعشتاروت من وسطكم وأعدوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده فينقذكم من يد الفلسطينيين».

وفترة صموئيل كانت في عصر شاول، أول ملك عبري قرابة ١٠٥٠ قبل المسيح. وقبل هذا العصر كانت فترة القضاة. وحسب التوراة فإن الملك سليمان قرابة ٩٦٠ ـ ٩٢٢ قبل المسيح عبد عشتاروت أيضاً مثل الآلهة المحلية الأخرى. وقد كان مهدداً بفقدان ملكه لأنه نسي يهوه وعبد ملكة السماء، عشتاروت الصيدونيين. وفي الملوك الأول ١٥: ١٣ نجد تقريراً عن خلع ملكة مؤاب على يد ابنها (أو صغيرها) آسا قرابة عام ٩١٠ قبل المسيح ـ والجريمة أنها عبدت عشيرة. واسم عشيرة استخدم أيضاً في نصوص كنعان الشمالية، في زمن عنات. وقد عبدتا كأم وابنة في ذلك الوقت. ولكن عشيرة أيضاً توحدت مع عشتاروت التي كانت تحترم بعمق في صور وصيدا تحت

ذلك الاسم. ويصف أحد نصوص كنعان الشمالية عشيرة على النحو التالي «لقد وصلت إلى مقام عشيرة الصوريين، أيضاً ربة الصيدونيين». وفي نصوص أوغاريت عرفت عشيرة باسم «خالقة الآلهة».

واستمر الخلل من يهوه، كما هو موصوف أعلاه، في السجلات التوراتية كما سوف نرى. ولكن أعظم المقاطع الفاضحة نجدها في سفر أرميا. لقد جرت هذه الحادثة في جالية عبرية في مصر قرابة عام ٦٠٠ قبل المسيح، فدين الربة هنا، والاحترام الذي يقدم لها حتى من قبل عبري ذلك العصر اعتبر ليس كدين جديد تبنوه حديثاً، وإنما كدين اتبعه العبريون من قبل ـ في أورشليم. كما يشير هذا السفر إلى أن هذا الدين كان دين نساء، مع أن الكاتب اللاوي رسم بعناية الأزواج والسلطة بأيديهم، ويفصحون عن تمسك واضح بالسلالة الذكورية في إجابة قدمها حتى عباد ملكة السماء:

«فأجاب أرميا كل الرجال الذين عرفوا أن نساءهم يبخرن لآلهة أخرى وكل النساء الواقفات في محفل كبير وكل الشعب الساكن في أرض مصر في فتروس قائلين إننا لانسمع لك الكلمة التي كلمتنا باسم الرب بل سنعمل كل أمر خرج من فمنا فنبخر لملكة السموات ونسكب لها سكائب كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم فشبعنا خبزاً وكنا بخير ولم نر شراً. ولكن من حين كففنا عن التبخير لملكة السموات وسكب سكائب لها احتجنا إلى كل وفنينا بالسيف والجوع، وإذ كنا نبخر لملكة السموات ونسكب لها سكائب، فهل بدون رجالنا كنا نصنع لها كعكاً لنعبدها ونسكب لها السكائب؟» (ارميا ٤٤: ١٥ ـ ١٩).

وتساءل البروفسور هوك «ماذا نقول عندما نجد في سجل حدائق أدونيس ومجالس حزقيال المتخيلة، نساء يعلن أنهن منذ أن توقفن عن خبز الكعك لملكة السماء لم يعد أي شيء يسير سيراً حسناً معهن، لا القداس ولا المعابد ولا النبوءات... ولا الممارسات العديدة الأخرى؟» وأجاب «لاشك أنه يستحيل رفض أن هؤلاء كن عناصر أجنبية، بعضهن كنعانيات وبعضهن أشو ـ بابليات وبعضهن مصريات، وكل هؤلاء دخلن في صورة دين إسرائيل كما يظهر في العهد القديم».

ولاحظ البروفسور ويدنغرين، كما لو كان يقدم جواباً إضافياً «ربة السموات هذه لايمكن أن تكون سوى الربة عشتار التي تمتعت في عام ٦٠٠ قبل المسيح بعبادة رسمية في مملكة اليهودية».

كثير من مقاطع التوراة تشير إلى أن أوثان الإلاهة الأنثى المكرمة باعتبارها عشيرة (في أسوأ الحالات) كانت موجودة على رأس كل هضبة، وتحت كل شجرة خضراء وعلى جوانب المذابح في المعابد. لقد كانت رمزاً متوحداً مع عبادة الربة كعشيرة وقد تكون سارية أو شجرة حية وربما نحتت تمثالاً. وكتب آرثر ايفانز أن «السجلات التوراتية تبرز المرة بعد الأخرى عبادة العشيرة إما كشجرة حيّة أو كبديل لها كالدعامة اليابسة أو العمود الذي كانت مذابح الكنعانيين تشاد أمامه».

إنني أشك في أن تكون العشيرات (جمع عشيرة ـ المترجم) شجرات تين فعلاً، تين الجميز، الشجرة التي اعتبرت في مصر «جسد الربة على الأرض». ثمة أسباب كثيرة للاعتقاد أن الأمر هو فعلاً على هذه الشاكلة، وهو الدليل الذي سوف نفحصه بعمق وإسهاب لدى حلنا أسطورة آدم وحواء ـ الدليل الذي ربما يفسر رمز الشجرة في أسطورة الفردوس.

وبمتابعتنا اكتشاف حضور الربة في كنعان، تخبرنا التوراة أن العشيريم مع أن ارتباطهم بالعشيرة كربة لم يشرح، نجدهم في أي مكان. «وعمل بنو إسرائيل سراً ضد الرب إلههم أموراً ليست بمستقيمة وبنوا لأنفسهم أنصاباً وسواري على كل تل عال وتحت كل شجرة خضراء. وأوقدوا هناك على جميع المرتفعات مثل الأمم الذين ساقهم الرب من أمامهم وعملوا أموراً قبيحة لإغاظة الرب. وعبدوا الأصنام التي قال الرب عنها لاتعملوا هذا الأمر» (ملوك الثاني ١٧: ٩).

وحالما أعلن اللاويون أن المهمة العبرية هي تحطيم رموز الدين هذه التي غالباً مايشيرون إليها على أنها «أربابهم» حيث وجدوها، وهذا بالضبط مافعلوه. لقد كتب الكهنة اللاويون أن التحطيم هو أمر من يهوه: تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتحرقون سواريهم بالنار (تثنية ١٢: ٢). لاتنصب لنفسك سارية من شجرة مابجانب مذبح الرب إلهك (تثنية ١٦: ٢١).

ولكن على الرغم من تحذيرات الكهنة اللاويين كان العشيريم ينصبون ويعبدون باستمرار. وفي سفر الملوك الأول نقرأ أن الملك آحاب، زوج ايزابل قرابة عام ٨٥٠ قبل المسيحأقام العشيرة. وقرابة القرن الثامن قبل المسيح تكلم اشعيا عن العشيريم في مدينة دمشق. ودمر جدعون في فترة القضاة العشيرة من أحد المعابد مستخدماً خشبها محرقة ليهوه. وجاء التهديد أن «الرب سوف يحرق إسرائيل لأنهم أقاموا العشيريم».

والملك حزقيا الذي حكم قرابة ٧١٥ ـ ٦٩٠ قبل المسيح «عمل ماكان مستقيماً في عيني الرب». لقد حطم الأنصاب وقطع العشيرة. وحزقيا نفسه هو الذي دمر أفعى برونزية كانت محفوظة في المعبد في أورشليم منذ وصول العبريين إلى كنعان. وبعد حزقيا أقام ابنه منسى الذي حكم خمساً وخمسين سنة العشيريم كما فعل ابنه عمون الذي خلفه.

وفي سفر الملوك الثاني ٢٥: ١٥ أخذ الكاهن اللاوي حلفيا الذي خدم الملك يوشيا قرابة ٦٣٠ قبل المسيح الأوعية التي صنعت من أجل عشيرة وبعل ورماها خارج هذا المعبد نفسه الذي في أورشليم. لقد نحى العشيرة. «نجس المرتفع الذي بناه سليمان لعشتاروت». «كسر التماثيل وقطع السواري وملأ مكانها من عظام الناس».

ومع أن دين الربة لم يشر إليه أبداً، فإن الدليل على عبادتها في كنعان خلال العصور التوراتية المتأخرة هو ظهور النواحات على ابنها/ عشيقها تموز. فنقرأ في سفر حزقيال عن نسوة يبكين على تموز في المعبد نفسه الذي في أورشليم قرابة عام ٦٢٠ قبل المسيح، فثابرن على ممارسة الاحتفالات الحزينة لدين الربة المعروفة أيضاً من سجلات عشتار البابلية. وكما اقتبسنا من قبل، أكد البروفسور ويدنغرين أن الحزن الطقوسي ظهر في إسرائيل، في ذكرى موت تموز كما كان تماماً في بلاد مابين النهرين.

كتب ابشتاين في تاريخه عن اليهودية المنشور عام ١٩٥٩ فبين تدفق الأفكار «الوثنية» وعلى الأخص في زمن سليمان، فيلوم زوجات سليمان على أساليبهن الفاسقة. وهناك احتمال قوى أن عادة سليمان في ضم الأميرات الأجنبيات إلى حريمه (يبلغن السبعمئة حسبما جاء في التوراة) كانت نظاماً ذا دافع سياسي لضمانة الحق المطلق في حكم البلاد المحتلة بالزواج من وريثاتها، فعلاقة حقوق الكثير من العروش في الشرق الأدنى بالنمط السلالي الأمومي للشعب العابد للربة قد يفسر العدد الكبير للنساء الملكيات الأجنبيات ـ وكلهن مسجلات زوجات شرعيات لسليمان ـ والحضور المقبول للأديان التي جاءت معهن.

بعد حكم سليمان، عندما انقسمت القبائل العبرية إلى أمتين منفصلتين، استمرت عبادة الربة في الظهور. وكان هذا واضحاً في السامرية، عاصمة المملكة الشمالية إسرائيل، خلال فترةآحاب وايزابل (قرابة ٨٦٩ ـ ٨٥٠ قبل المسيح) فازدهرت عبادة عشتاروت وبعلها ازدهاراً بارزاً في ذلك الزمن. فزواج آحاب العبري بايزابل، ابنة ملكة

وملك صيدا، اللذين خدما أيضاً ككاهنة عليا وككاهن عند عشتاروت وبعل، قد يكون قد ضمن له الحق الشرعي بالعرش، ولكن حتى الملك يربعام، قبل ذلك الوقت (قرابة ٩٢٢ ـ ٩٠١ قبل المسيح) صنع عجولاً ذهبية رموزاً لدين الربة.

في اليهودية، المملكة العبرية الجنوبية التي كانت عاصمتها أورشليم ربما حكم رحبعام عام ٩٢٢ ـ ٩١٥ قبل المسيح تقريباً وابنه ابيام كزوجين للملكة معكه، وقيل إنهما مارسا العبادات «الوثنية» وكما نعرف فإن الملكة معكه عبدت عشيرة وبالتدريج خلعت من عرشها لأنها صنعت لعشيرة وثناً. وفي عام ٨٤٢ قبل المسيح تقريباً حكمت الملكة عثليا في أورشليم وبحكمها استمر الدين «الوثني» مزدهراً. وباعتبارها ابنة ايزابل، فيمكن أن نتساءل مرة أخرى إذا كانت عثليا في نظر الكثير من شعب كنعان قد حصلت على حق الحكم كحفيدة للكاهنة العليا وكاهن عشتاروت في صيدا. وقرابة عام ٧٣٥ ـ ٧٢٧ قبل المسيح اتبع الملك آحاز أيضاً الدين القديم، فاقترف الشر في عيني الرب. وقرابة عام ٦٢٠ كانت النساء في عصر حزقيال يبكين على تموز في المعبد الذي في أورشليم، بينما في عصر أرميا، قرابة ٦٠٠ أعلن النساء المتمردات صراحة عن نيتهن في متابعة تبجيل ملكة السماء.

خلاصة:

كنتيجة للدليل الأركيولوجي الذي يسعف في تفسير كثير من الإشارات الغامضة، على الرغم من الكلمات المراوغة وفقدان التفسير التوراتي، فلا شك أنه في الأحقاب التوراتية الكنعانية كان الكهنة اللاويون للعبريين في تماس مستمر مع دين الربة. ومع أن الأمر بتدمير المنتجات الفنية قد حصل في المكتشفات الأركيولوجية في كنعان الجنوبية أقل من بقية الشرق الأدنى، فإن عدداً ضخماً من الأدلة على العبادة الواسعة جداً للربة قد اكتشف في كل البلدان الأخرى التي إما أن العبريين عاشوا فيها أو أنهم كانوا في تماس وثيق معها، من أمثال مصر وبابل وسينا وكنعان الجنوبية. ويحيط بالعبريين في كنعان الجنوبية السكان الأصليون لكنعان، وهم الشعب الذي عاش في المدن التي لم تكن قد دمّرت، والذي كرم المعبود الأنثى منذ أقدم العصور.

وكما كشفت التوراة ذاتها، فإن عبادة الربة، حتى في العاصمتين العبريتين السامرية وأورشليم، وحتى من قبل أولئك الذين كانوا يعتبرون أعضاء القبائل التي اتبعت الدين الجديد ليهوه (وعلى الأخص الملوك والحكام الذين يبدو أنهم لم يختاروا من القبيلة اللاوية) كانت أحد أعظم العوامل المؤثرة في تطور المواقف اليهودية، وفيما بعد المواقف

المسيحية. فاحتمال أن يكون اللاويون قد ارتبطوا أصلاً باللوفيانيين الهندوأوروبيين، بينما قد تكون القبائل الأخرى من سلالات الشعوب المتوسطية التي تعبد الربة، ربما يساعدنا في تفسير هذا الانقسام بين الكهنة اللاويين والأنبياء و «التمرد والارتداد» المستمرين للشعب الإسرائيلي الذي يبدو أنه انجرف نحو الدين القديم مرة بعد أخرى.

لقد أعلن الكهنة اللاويون «لن يكون هناك بغايا عابدات في بنات إسرائيل». ومع ذلك، وكما رأينا من قبل، استمرت العادات الجنسية القديمة، ويبدو أن الطبيعة الحقيقية للعادات الجنسية، كجزء موروث ومتكامل للدين الأنثوي، المتيحة لاستمرار الأنماط السلالية الأمومية والمشجعة لها، هي التي أثارت ردود فعل عنيفة بين الأبويين اللاويين.

وحالما ننتبه إلى الحضور الدائم لدين الربة، فإن قراءة دقيقة لسجلات العهد القديم (التي فيها عينت النساء العبريات في مركز ثانوي كمساعدات مطيعات) تكشف المقاطع الكثيرة التي حملت التهديد المستمر، أحياناً مقنعاً وأحياناً يختبىء خلف الرمز ضد عبادة الربة. إلا أن بعض التهديدات كان صريحاً جداً. إنها تقصد أولئك الذين تابعوا ممارسة الدين القديم الواضحة حتى داخل سجلات التاريخ التوراتي التي تتحدث عن قتل وذبح أولئك الذين تجرؤا وصلّوا لـ «الأرباب الأخرى».

وكما سوف نرى في الفصل التالي فإن الصورة الجنسية المتكررة تسمح لنا أن نلاحظ موقف اللاويين تجاه العادات الجنسية لدين الربة والاستقلالية الجنسية للنساء عموماً، الاستقلال الذي لآلاف السنين عمل على السماح للنساء أن يحتفظن باستقلالهن اقتصادياً واجتماعياً وحقوقياً. ولذلك في القوانين اللاوية كتب الدمار على عبادة الجدة المقدسة، ومعها الدمار على النظام الأمومي.

الفصل التاسع
ورجال المدينة بالحجارة يرجمونها

هكذا كان عداء الكهنة اللاويين تجاه دين الربة في كنعان (مع أن مصطلح «الأرباب الأخرى» استخدم استخداماً مراوغاً في كل مقطع) فكتبت القوانين التي تمنع عبادة تلك «الأرباب الأخرى». وكانت القوانين تتشدد حتى أنها أمرت أعضاء الدين العبري أن يقتلوا أبناءهم إذا لم يعبدوا يهوه. وقد أمرت القوانين اللاوية للتوراة: «وإذا أغواك سراً أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلاً نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من آلهة الشعوب التي حولك القريبين منك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض إلى أقصائها فلا ترض منه ولاتسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلاً تقتله يدك تكون عليه أولاً لقتله ثم أيدي جميع الشعب أخيراً» (تثنية ١٣: ٦).

من الواضح أن هذا الأمر موجه للرجال فقط، فالقريب الوحيد الذي لايشار إلى قتله هو الزوج. ولايوضع تحت الرقابة الشديدة الأقرباء فقط إذ أن اللاويين كتبوا «فإن مال سكان مدينة كانت تخدم الرب إلهك إلى خدمة أرباب أخرى، فعليك أن تقتل جميع سكان تلك المدينة» (تثنية ١٣: ١٥).

فإذا انتبهنا إلى هوية ملكة السماء واتساع عبادتها كما كانت في كنعان حتى بين الدوائر الملكية اليهودية فإننا نكتسب بصيرة أعمق في الدوافع السياسية للاويين بحيث تنسجم مع صورة النساء في التوراة والقوانين النوعية المتعلقة بهن.

بكل صراحة وبكل احتقار كتب الأنبياء العبريون والكهنة اللاويون عن أي امرأة لم تكن عذراء ولم تكن متزوجة. لقد تشددوا أن كل النساء علانية يجب أن تحدد كملكية خاصة لرجل ما، أب أو زوج. وبهذا أسسوا وطوروا مفهوم الأخلاقية الجنسية ـ للنساء.

في تمهيد كتبه المؤرخ التوراتي ابشتاين في عام ١٩٣٥ يقدم فيه نسخة من التلمود العبري، يرى أن هذا هو السبب الأكبر لكون العبريين مهددين من الأديان المحيطة.

لقد أثبتت الخبرة كم كان قوياً الإغراء بتقليد الممارسات الدينية للأمم المحيطة، حتى في الزمن الذي سكن فيه الإسرائيليون أرضاً من أراضيهم الخاصة. وقد اشتدت حدة صعوبة مقاومة التأثير الأجنبي في مراحل التشتت عندما كان اليهود يعيشون في محيط وثني فكان على الرابيين أن يولوا اهتماماً جدياً بقضية كيف يجابهون قوى التمثل التي هددت بإغراق المجتمعات اليهودية المستوطنة في بلدان حيث عبادة الأوثان هي ديانة الدولة.

ومن المهم أن نفهم أن المعارضة العنيفة للوثنية التي تميز تشريعية التوراة وبالتالي التلمود لم تكن مجرد عداء نظام ثيولوجي لنظام ثيولوجي آخر. إنه بالأساس صراع المقاييس الأخلاقية. فقد مارس الوثنيون الكراهيات التي حذّر منها الكتاب إسرائيل. فالفسق كان متوحداً مع السلوك اللاأخلاقي أساساً كمفهوم لاوي للعادات الجنسية، التي وجدت في كل مراحل التاريخ التوراتي. ويبدو أن فقدان الاهتمام بأبوة الأبناء بين الشعب العبري الذي استمر يبجل ملكة السماء، مما سمح لأنماط السلالة الأمومية أن تستمر نتيجة العادات الجنسية هو مشكلة اضطهاد العقائد القديمة على يد كهنة القبائل العبرية. ولاشك أنه كان واضحاً للقادة اللاويين أنه إذا وجد دين إلى جانب دينهم، دين تحظى فيه النساء بملكيتهن الخاصة، ويتمتعن بهوية شرعية وبحرية الوصال الجنسي بمختلف الرجال، فإنه سيكون من الصعب للرجال العبريين إقناع نسائهم أن عليهم قبول وضع كونهن ملكية الزوج. فيجب أن تتعلم النساء العبريات قبول فكرة أن نوم المرأة مع أكثر من رجل هو شر. ويجب أن يعلمن أن ذلك سوف يجلب الكارثة والغضب والعار من يهوه الجبار - بينما في الوقت نفسه يقبلن أن يمارس أزواجهن العلاقات الجنسية مع امرأتين، ثلاث، خمسين... وهكذا فعذرية ماقبل الزوج والإخلاص الزوجي اللذين يفرضهما القانون اللاوي شيء مقدس لكل النساء العبريات، أي نقيض المواقف تجاه الجنسية الأنثوية في ديانة الربة.

ومع ذلك برزت تأثيرات الدين القديم وسمعته. فكما رأينا هناك باستمرار تقارير توراتية عن «الوثنية» في كل عصر، لقد بدت قضية دائمة وصفت في كل العهد القديم. لقد كان الأنبياء الكهنة اللاويون معرضين للتهديد دائماً. لقد وبخوا. والكتاب اللاويون أعلنوا أن أي امرأة مستقلة جنسياً، بما في ذلك نساء المعبد هن فاسقات أو بغايا وطالبوا بدعم مواقفهم الأبوية المتعلقة بالملكية الجنسية للنساء. وحالما اخترعوا هذا المفهوم عن «الأخلاقية» وجهوا اتهامات «اللاأخلاقية» إلى النساء اللواتي سلوكهن وحياتهن، وفقاً لمعتقداتهن القديمة كانت أرفع وأعظم طبيعة تقديسية.

أما أنتِ فقد زنيتِ بأصحاب كثيرين:

وكان أعظم ما تكشف هو التشابه الذي رسموه بين أي امرأة ترفض الانضواء تحت قوانين الأخلاقية الجديدة ـ وهم دائماً يشيرون إليها على أنها مومس وزانية ـ والتمرد والارتداد للشعب العبري في نقص إخلاصه ليهوه. فاستخدم عدم الإخلاص الجنسي لخطيئة مطلقة ـ وهي خطيرة حتى أنها تعتبر مماثلة لخيانة يهوه ـ يخدمنا في تقديم الاستبصار في الموقف اللاوي تجاه النساء المستقلات جنسياً. طرفاً التشابه يتداخلان جداً، وأحياناً بطريقة غامضة، ولكن بما أن أنبياء يهوه يشجبون العبريين الذين تجرأوا وعبدوا «آلهة أخرى» فإن الهجوم بهذا يتحول في الوقت نفسه وأوتوماتيكياً إلى المرأة التي ترفض أن تكون ملكية رجل معين. وكما رأينا، على الرغم من التهديدات المستمرة كان ولاء النساء العبريات، وكذلك الرجال أيضاً، استمراراً في الحقيقة لعبادة ملكة السماء. وبعملهم هذا كان الكهان يرمزون إلى الفتاة «بنت صهيون» ويحكم على هذه البنت بأنها مومس غير مؤمنة.

أرميا وإشعيا وحزقيال وهوشع وناحوم استخدموا جميعاً المجاز الجنسي استخداماً موسعاً، ويضع أرميا، الكاهن اللاوي، المسألة على هذا النحو: «يقولون إذا طلق رجل امرأته فانطلقت من عنده صارت لرجل آخر فهل يرجع إليها بعد؟ ألا تتنجس تلك الأرض نجاسة؟ أما أنتِ فقد زنيتِ بأصحاب كثيرين، لكن ارجعي إليّ يقول الرب» وفي مقطع آخر أيضاً يقرن ارتداد العبريين بالزوجة الخائنة قائلاً «حقاً إنه كما تخون المرأة قرينها» وفي تقريع آخر يتهم العبريين «هل رأيت مافعلت العاصية إسرائيل. انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء وزنت هناك».

بكل غضب يتكلم كأنه يهوه متسائلاً «كيف أصفح لك عن هذه. بنوك تركوني وحلفوا بما ليست آلهة. ولما أشبعتهم زنوا. وفي بيت زانية تزاحموا» (أرميا ٥: ٧). ومرة أخرى استخدم التشابه، فنحن نقرأفي أرميا ٣: ٦ ـ ١٠ وقال الرب لي في أيام يوشيا الملك. هل رأيت مافعلت العاصية إسرائيل؟ انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء وزنت هناك. فقلت بعدما فعلت كل هذه ارجعي إليّ فلم ترجع، فرأت أختها الخائنة يهوذا، فرأيت أنه لأجل كل الأسباب إذ زنت العاصية إسرائيل فطلقتها وأعطيتها كتاب طلاقها لم تخف الخائنة يهوذا أختها بل مضت وزنت هي أيضاً. وكان من هوان زناها أنها نجست الأرض وزنت مع الحجر والشجر (تحدث أرميا بهذه الكلمات بعد قرن تقريباً من سقوط

المملكة الشمالية على يد سرجون الثاني الآشوري عام ٧٢٢ قبل المسيح).

والكاهن النبي اللاوي حزقيال يخبر جماعته «وكان إليّ كلام الرب قائلاً ياابن آدم كان امرأتان ابنتا أم واحدة. وزنتا بمصر. في صباهما زنتا. هناك دغدغت ثديهما وهناك تزغزغت ترائب عذريتهما واسمهما أهولة الكبيرة وأهليبة أختها وكانتا لي وولدتا بنين وبنات. واسماهما السامرة أهولة وأورشليم أهوليبة». وكل الإصحاح ٢٣ يصف السلوك الجنسي «الرذيل» لهاتين الأختين «وأبطل رذيلتك عنك وزناك من أرض مصر» وأخيراً يلخص مايريد «وهكذا أبطل الرذيلة من الأرض فتتأدب جميع النساء ولا يفعلن مثل رذيلتكما ويردون عليكما رذيلتكما فتحملان خطايا أصنامكما وتعلمان أني أنا السيد الرب». وفي مقطع آخر يحذر حزقيال: «ويحرقون بيوتك بالنار ويجرون عليك أحكاماً قدام عيون نساء كثيرة وأكفك من الزنى وأيضاً لاتعطين أجرة بعد».

ويتحدث ناحوم عن مدينة نينوى، وهي مركز ديني للربة البابلية عشتار، فيغضب على الربة وجنسيتها بهذه الطريقة «من أجل زنى الزانية الحسنة الجمال صاحبة السحر البائعة أمماً بزناها وقبائل بسحرها هأنذا عليك يقول رب الجنود فاكشف أذيالك إلى فوق وجهك وأري الأمم عورتك والممالك خزيك واطرح عليك أوساخاً وأهينك واجعلك عبرة ويكون كل من يراك يهرب منك ويقول خربت نينوى من يرثي لها. من أين أطلب لك معزين».

إلا أن الإصحاحات القليلة الأولى من سفر هوشع تصف وصفاً أوضح غضب الرجل العبري على الزوجة التي رفضت أن تكون من ملكيته الخاصة. أولاً نقرأ أن يهوه أخبر هوشع «اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب»؟ ثم يتحدث إلى ابنة «الزنى» و «الرذيلة» من أمها جومر، التي يبدو أنها كانت امرأة معبد مقدسة. فيما بعد أمرت جومر أن تترك زناها ورذيلتها فأجابت «سأسعى خلف عشاقي». ورداً على هذا التمرد هدد الإله الذكر أنه سيحبط نشاطاتها إلى أن قالت أخيراً بيأس «سوف أذهب وأعود إلى زوجي الأول».

لايتضح لنا فيما إذا كانت هذه الكلمات لهوشع أو ليهوه لأنها أصلاً كلمات هوشع لزوجته، ولكننا نقرأ «أبطل كل أفراحها وأعيادها ورؤوس شهورها وسبوتها وجميع مواسمها واضرب كرمها وتينها اللذين قالت هما أجرتي التي أعطانيها محبي واجعلهما وعراً فيأكلهما حيوان البرية وأعقابها على أيام بعليم التي فيها كانت تبخر لهم وتتزين بخزائمها وحليها وتذهب وراء محبيها وتنساني أنا يقول الرب يهوه»

عندئذ يستمر هوشع ويقول لذلك تزني بناتكم وتفسق كناتكم، لا أعاقب بناتكم لأنهن يزنين ولا كناتكم لأنهن يفسقن، لأنهم يعتزلون مع الزانيات ويذبحون مع الناذرات الزنى».

ثم تقدموا وفي المدينة ذبحوا:

الإهانة لاتوجه إلى النساء وحسب، ولكن هناك تهديداً بالعنف أيضاً. ففي سفر أرميا، يهدد ذلك النبي غاضباً «بنت مصر وصور وصيدا وعسقلان» وهي إشارة رمزية إلى الربة عن طريق المدن التي أشار إليها. وفي مقطع آخر يحذر النساء اللواتي أفصحن صراحة عن نيتهن في متابعة عبادتهم ملكة السماء بأنهن سيواجهن المجاعة والقتل والدمار الشامل نتيجة عقائدهن الدينية.

وقد شحن النبي أشعيا بهذا الموقف فيصرخ «شعبي ظالموه أولاد ونساء يتسلطن عليه» ويتوجه بالاتهامات إلى «بنت بابل» إشارة إلى عشتار فيعيرها لكبريائها وجنسيتها وكذلك لتعاويذها وقواها السحرية. وحول مايبدو استقلالاً للنساء العبريات، اللواتي تأثرن كما هو واضح بحرية النساء اللواتي حولهن، يسرد أشعيا قائمة بزينتهن وأغوائهن بكل احتقار ثم يهدد «رجالك يسقطون بالسيف وابطالك في الحرب فتئن وتنوح أبوابها وهي فارغة تجلس على الأرض. فتمسك سبع نساء برجل واحد في ذلك اليوم قائلات نأكل خبزنا ونلبس ثيابنا ليدع فقط اسمك علينا. انزع عارنا».

وهكذا انتظر النبي العبري متطلعاً إلى اليوم الذي ينتصر فيه الذكر عندما تختار كل النساء المستقلات أن يكن ملكاً لرجل، مثلما أجبروا هم على التيه في الصحراء، أو كما حرقت مدنهم وقتلت عائلاتهم وسبت القبائل العبرية زوجاتهم الإسرائيليات القدامى. وفي النضال من أجل النسب الذكوري حلم أشعيا باليوم الذي تقول فيه النساء «ألا فلندع بأسمائنا وحسب».

وفي الإصحاح الثامن من سفر حزقيال نجد دين الربة أيضاً يتعرض للهجوم ويتذكر حزقيال هذا الحادث «ودخلت بوابة المعبد واخترقت الجدار فكان هناك باب». شكل غريب كان يقوده، ومن الواضح أنه رسول من عند الإله الذكر. قال الشكل «ادخل وانظر الرجاسات الشريرة التي هم عاملوها هنا. فدخلت ونظرت وإذا كل شكل دبابات وحيوان نجس وكل أصنام بيت إسرائيل مرسومة على الحائط على دائره». وحسب مفهوم حزقيال فإن الأشياء الرجسة التي يقوم بها عباد الربة داخل المعبد هي التوجه إلى الشرق والانحناء للشمس ورفع غصن إلى الأنف. وهذا الغصن هو من

الشجرة المقدسة المعروفة باسم عشيرة. ويتابع حزقيال «فجاء بي إلى مدخل باب بيت الرب الذي من جهة الشمالوإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز فقال لي أرأيت هذا ياابن آدم. بعد تعود تنظر رجاسات أعظم من هذه». وتكشف هذه الملاحظة أكثر من غيرها أنه كان يراقب دين عشتاروت/ عشتار ـ الذي ظل يمارس في المعبد الذي في أورشليم.

عندئذ يقول الشكل الغامض «ياابن آدم هل ترى ذلك؟». وقد استخدم لقب «ابن آدم» هذا استخداماً متكرراً في سفر حزقيال، ربما ليذكر قراءه أن الكهنة اللاويين من أمثال حزقيال، لم يعودوا يعتبرون أنفسهم أبناء النساء. وفيما بعد، يلتفت إلى النساء اللواتي صلين بهذه الطريقة فيقول الشكل الغريب «وأنت ياابن آدم فاجعل وجهك ضد بنات شعبك اللواتي يتنبأن من تلقاء ذواتهن «ولسن كأنبياء يهوه اللاويين الذين يتصلون مباشرة مع المصدر الخاص) وتنبأ عليهن».

التهديدات والإهانات لسكان كنعان الأصليين وللعبريين الذين انضموا إليهم في عاداتهم ليست كل ماستخدم لتخويف وتوهين الشعب من اتباع دين ملكة السماء. إذ فيما بعد نقرأ وثائق عن مذابح وحشية وقتل لايرحم لأولئك الذين ظلوا يرفضون قبول يهوه. والتوراة نفسها تسجل أن أي عبري يتجرأ أن يتعبد في الدين القديم لملكة السماء وبعلها سيكون ضحية اضطهاد ديني عنيف.

كلمات حزقيال وتهديداته، وكذلك بقية الأنبياء ترجمت إلى قتل وتدمير، فسر على أنه أمر من يهوه. وبهذه الطريقة سجلت في صفحات العهد القديم:

«وقال له الرب. اعبر في وسط المدينة في وسط أورشليم وسم سمة على جباه الرجال الذين يئنون ويتنهدون على كل الرجاسات المصنوعة في وسطها. وقال لأولئك في سمعي اعبروا في المدينة وراءه واضربوا. لاتشفق أعينكم ولاتعفوا الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء. اقتلوا للهلاك ولاتقربوا من إنسان عليه السمة وابتدئوا من مقدسي. فابتدئوا بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت. وقال لهم نجسوا البيت واملأوا الدور قتلى. اخرجوا فخرجوا وقتلوا في المدينة» (حزقيال ٩: ٤ ـ ٧).

وهناك سجل أقدم لمجزرة ضخمة باسم يهوه استهدفت دين الربة وحصلت في حكم آحاب. وقد تبنى إيليا الموقف ذاته، فسمح بأكبر مجزرة عرفها التاريخ باسم المبدأ، سواء كان سياسياً أو دينياً أو الاثنين معاً. والمقطع إذ يشير إلى الأربعمئة إنسان الذين تعبدوا في الدين القديم يقول «فقال لهم إيليا امسكوا أنبياء البعل ولا

يفلت منهم رجل فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك».

هذا المقطع مأخوذ من النسخة المعتمدة المراجعة للعهد القديم. ولكن في التوراة الانجليزية الجديدة التي نشرت عام ١٩٧٠ من قبل جمعيات التوراة في اسكوتلاندا وانكلترا، والتي ترجم الكثير من النصوص من اللغتين العبرية واليونانية الأصلية، نقرأ القصة بطريقة مختلفة جداً. والحقيقة أنه في هذه النسخة من العهد القديم توجد إشارات كثيرة إلى عشيرة أو عشتاروت باسم عشيريم تفسر الحادثة على نحو أوضح. ففي التوراة الانجليزية الجديدة نقرأ أن إيليا واجه الدين القديم باعتباره دين عشيرة. إنه يخبرنا في ملوك أول ١٨: ١٩ أن هؤلاء الأربعمئة كانوا «أربعمئة نبي للربة عشيرة، الذين كانت إيزابل تعيلهم».

والواضح في قصة إيزابل، التي طالما اضطهدت كرمز للمرأة الشريرة الخائنة، أن جريمتها الحقيقية هي رفضها قبول عبادة يهوه مفضلة على هذا الدين دين أبويها، أي دين ملكة السماء وبعلها. وأبواها كملك وملكة على صيدا (ويقال عن صور أيضاً) أحرزا مركزاً رفيعاً في الدين القديم باعتبارهما كاهناً وكاهنة رفيعي المكانة. ولم تتبع إيزابل نفسها الدين القديم فقط بل أيضاً طبقاً للتوراة تبنت، نتيجة تأثيرها في زوجها آحاب ملك إسرائيل الأساليب الوثنية ايضاً فنصبت العشيريم في المعبد. وجريمة إيزابل المفترضة التي تبدأ من شائعة أنها تسببت في موت رجل، تصبح موضع شك عندما نتحقق أن زوجها هو فعلاً الذي رغب في ملكية الرجل الميت، وبناء على رسائل موقعة باسم آحاب اتهمت هي.

قتلت إيزابل بأشنع طريقة على الاطلاق، وصفتها التوراة بتفصيل مرعب، والقصد لاشك هو تحذير كل النساء «الخائنات» الأخريات. وقد تم إعدامها على يد بطل عبري منتقم اسمه ياهو. ولكن دوافع ياهو تصبح واضحة وضوحاً مخيفاً عندما دبر، بعد موت الملكة «الوثنية» مجزرة لأولئك الذين «طعموا على مائدتها» ثم زعم أخيراً أن عرش إسرائيل يخصه وحده.

وبعد قتل إيزابل بوقت قصير دعا ياهو إلى عقد اجتماع مهيب للناس الذين يقدمون التقدير لعشتاروت والبعل، فخدعهم بهذه الطريقة وجمعهم معاً في معبدهم الخاص في وقت معين. وصف المقام المقدس بأنه غصّ من جانب إلى جانب. وقد جاء في التوراةذاتها «ودخلوا ليقربوا ذبائح ومحرقات. وأما ياهو فأقام خارجاً ثمانين رجلاً وقال الرجل الذي ينجو من الرجال الذين أتيت بهم إلى أيديكم تكون أنفسكم بدل

نفسه». ويخبرنا سفر الملوك الثاني أن ياهو ورجاله قتلوا كل الأعضاء المصلين ثم حول البناء نفسه إلى مرحاض. وعندما أتمّ المجزرة سمع ياهو صوت يهوه يقول «إنك قد أحسنت بعمل ماهو مستقيم في عيني» (انظر الملوك الثاني ١٠: ١٨ - ٣١).

ثم تركوه يحرّر كتاب طلاقها:

إن الأدلة وفيرة. فدين عشتاروت أو شعيرة، أو عنات وبعلها - وما يصاحبهم من الاستقلال الجنسي للأنثى - هم أعداؤهم. ولا توجد طريقة تعتبر عنيفة لتحقيق الأهداف المطلوبة. وحتى توضح الأهداف الخفية للاويين، إلى جانب تلك المذابح، فلابد من أن نواجه القواعد التي أعلنها اللاويون لكل النساء العبريات. ولدى قراءة القوانين اللاوية يصبح واضحاً أن الاستقلال الجنسي للنساء في دين الربة يشكل تهديداً مستمراً. إنه يقضي على الأهداف البعيدة للرجال الذين يقودهم الهندوأوروبيون أو الذين تأثروا بالهندوأوروبيين الذين رأوا في النساء ملكية ورموا إلى إقامة مجتمع يكون النسب الأبوي فيه هو القاعدة، كما كان في الأمم الهندوأوروبية منذ أمد طويل. وهذا يتطلب بدوره أن تبقى أي امرأة ملكية لرجل واحد، فلا تترك شكاً حول هوية والد الطفل الذي قد تحبل به، وعلى الأخص الأبناء الذكور. لكن سلالات القرابة الذكورية ظلت مستحيلة ما دام يسمح للنساء أن يمارسن وظيفتهن كبشر مستقلين جنسياً، فيحبلن بأطفال لاتعرف أبوتهم أو يعتبرون مخلوقات بلا أهمية.

لكن القوانين والخطابات وحتى الكلمة الإلهية لم تكن كافية مادامت الحرية هي الشائعة. لذلك فإن كل هذه العقوبات الشديدة صممت ونفذت لغرض السيطرة الجنسية الكاملة على النساء العبريات. أي انحراف كان خطيئة وفي حالات كثيرة تعاقب بالنبذ وبالموت العنيف. (ومع أن هذه القوانين تبدو في سفري اللاويين والتثنية، وقيل إنها كتبت أيام موسى، فإن الدارسين التوراتيين يؤرخون الكتابات بين ١٠٠٠ و٦٠٠ قبل المسيح) وطبقاً لقوانين اللاويين، تبقى جميع النساء عذراوات حتى الزواج. وحالما تتزوج المرأة زواجاً شرعياً فإنها لاتقوم بالعلاقة الجنسية إلا مع رجل واحد هو الذي تقرر أن يكون زوجها والأرجح أن يكون قد اختاره لها أبوها. هذا الزوج قد يملك، أو سوف يملك في المستقبل، أي عدد من الزوجات أو المحظيات الأخريات وهو حر أن يضيف زوجة جديدة في أي وقت.

في سفر اللاويين ٢٠: ١٠ نقرأ أنه إذا اقترفت امرأة فعل الزنى فإنها وعشيقها

يحكمان بالموت. وفي سفر التثنية كتب اللاويون عن العروس الإسرائيلية: «ولكن إن كان هذا الأمر صحيحاً ولم توجد عذرة للفتاة يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت لأنها عملت قباحة في إسرائيل بزناها في بيت أبيها فتنزع الشر من وسطك» (تثنية ٢٢: ٢٠ ـ ٢١). وهكذا يمكن للفتاة العبرية أن تجرّ من البيت وترجم ظلماً حتى الموت ـ لأنها مارست الحب أو حتى لأنها فقدت عذريتها بسبب عمل آخر أو بسبب حادث عرضي بينما معاصراتها الكنعانيات يعتبرن مقدسات لأنهن شاركن في العادات الجنسية المقدسة.

وبتقرير اللاويين هكذا تطور الاحترام المتعلق بأبوة الأطفال حتى صار الاغتصاب العنيف بينهم مساوياً للزواج كما كان بين الأشوريين الذين كانوا تحت سيطرة الهندوأوروبيين. في القانون اللاوي كان اغتصاب العذراء يحظى بالاحترام كأنه إعلان عن ملكية وزواج قهري. وكضحية للاغتصاب تفقد المرأة أوتوماتيكياً حق استمرار حياتها كامرأة مفردة أو أن تصبح زوجة في زواج مدروس ومرغوب. وجاء في القانون «إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة واضطجع معها فوجدا، يعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة وتكون هي له زوجة» (تثنية ٢٢: ٢٨ ـ ٢٩).

أما بالنسبة إلى الفتيات اللاويين فقد نص القانون «وإذا تدنست ابنة كاهن بالزنى فقد دنست أباها. بالنار تحرق» (لاويون ٢١: ٩). وبما أن الكهنة اللاويين هم الذين سنوا القوانين فإن هذه الرغبة في حرق بناتهم حتى الموت تفصح بوضوح عن الموقف اللاوي تجاه الاستقلال الجنسي للنساء.

ومما يدعو إلى الدهشة هو القانون الذي يخبرنا أنه إذا كانت ضحية الاغتصاب امرأة متزوجة أو مخطوبة فيجب أن تقتل ـ لأنها اغتصبت. وينص القانون أنه إذا اغتصبت عنفاً امرأة متزوجة أو مخطوبة فإنها ترجم مع الفاعل بالحجارة حتى الموت (تثنية ٢١: ٢٣ ـ ٢٥). فالمغتصبة تعتبر متحدية للذكر الذي يملكها. ولكن في البرية البعيدة يمكن أن «تقدر» المرأة إذا اغتصبت مادامت طلبت المساعدة فصرخت ولم يسمعها أحد.

ومع أن التوراة تعلن باستمرار أن المرأة التي تتجرأ وتمارس الحب مع رجل آخر غير رجلها هي عار وانحطاط يدنس كل الإيمان، فإن الرجال العبريين يجمعون بكل اعتزاز وكرامة كثيراً من النساء بمقدار مايسمح لهم وضعهم الاقتصادي. وتكشف سجلات

الملوك العبريين أنهم احتفظوا بعدد ضخم من الحريم ومعظم العبريين اتخذوا عدة زوجات، ومع ذلك يفرض على كل حرمة من أولئك الحريم الإخلاص الكامل لجزء من هذا الزوج الذي فرض عليها. ويبدو أن عدم الإخلاص من طرف الزوج هو شيء مسلم به، إلا إذا كانت المرأة الأخرى متزوجة من قبل أو مخطوبة. وقد اعتبر هذا خطيئة لأنه خرق شرعي لملكية رجل آخر. ومن الصعب أن يعتبر الإخلاص الرومانسي لكل من شريكي الزواج على أنه هام ومقدس، وإنما فقط بالنسبة للمرأة تعتبر عذريتها قبل الزواج وإخلاصها الجنسي موضوعات «أخلاقية» وهي مواقف ماتزال ظاهرة حتى اليوم.

ولكن وضع المرأة المتزوجة التي أخلصت لزوجها كان أيضاً وضعاً قلقاً. ففي التثنية ٢٤: ١ تبدو ورطة المرأة المتزوجة واضحة «إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيبَ شيء كتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته». وكما قرأنا سابقاً فإن الزوج فقط في ظل القانون اللاوي يمكن أن يطلب الطلاق، والحقيقة أن كل ماعليه أن يفعله هو أن يكتب قصاصة صغيرة من الورق. هذا المجتمع نراه مختلفاً كل الاختلاف عن مجتمع اشنونا السومري، حيث إذا اتخذ رجل زوجة ثانية بعد أن تكون زوجته الأولى قد أنجبت له أولاداً، فإن عليه أن يغادر المنزل من دون أي ملكية.

هنا تتضح تماماً امتيازات النسب الذكوري والوراثة الذكورية ليس فقط تجاه الملوكية أو الكهانة بل أيضاً تجاه الذكر العادي. فالمرأة التي عاشت في المنزل مع زوجها أنجبت له الأطفال وقامت بالخدمات المنزلية وربما أضافت أو رفعت قيمة المنزل والأرض بجهودها، لاحقوق شرعية لها في أي شيء من ذلك، بغض النظر عن سنها وصحتها. كل مافي الأمر أنها تستلم هكذا وبكل بساطة قصاصة ورق فتغادر البيت وتذهب في حال سبيلها. بعدئذ يحوز الزوج على ملكية كل منتجات عمرها وجهودها، فإن لم يكن قد اقتنى من قبل زوجة أخرى أو اثنتين، فإنه يسرع ويحل محلها امرأة أو امرأتين. وبما أنها فقدت عذريتها فإنها تصبح مادة غير صالحة للزواج.

إنما أتيت لأدمر أعمال الأنثى:

استمرت عمليات القمع والاضطهاد لدين الربة الأنثى قروناً عديدة. في «العبودا زاراح» وهو سفر من التلمود العبري جمع قرابة القرن الخامس قبل المسيح توجيهات قدمت للعابد الورع تعلمه كيف يدمر قوى «الوثن». ويمكن أن يتحقق هذا بنزع قمة

أنفه أو أذنه (التي يمكن أن تحسب من جملة الأنوف المفقودة لكثير من التماثيل). والسفر كله مملوء بالقوانين والترتيبات الخاصة التي تصف العلاقة التي على العبريين أن يقيموها مع «عبدة الأوثان».

إن الحضارات التي كانت تعبد الربة التي ازدهرت لمدة أربعة آلاف سنة، وقد جلبت معها منذ العصور القديمة اختراعات في طرائق الزراعة والطب والعمارة والتعدين والعربات ذات العجلات والنسيج واللغة المكتوبة أخذت تزول تدريجياً. ومع أن الهندوأوروبيين بدأوا بإحداث تغييرات كثيرة وعظيمة، فقد كان على كل يهودي فيما بعد، ومن ثم على كل مسيحي أن يضطهد ويدمر الربة الأنثى حيثما وجدت.

إذا اتبع العبريون أوامر سفر التثنية فإن المذابح التي وصفت في العهد القديم لن تكون سوى قسم رمزي للقتل والتدمير اللذين ارتكبا فعلاً. وبما أن الأدب ومعتقدات الدين العبري اللاوي تضافرت في الإيمان الجديد الذي تطور تدريجياً إلى المسيحية، فإن اضطهاد دين الربة مايزال مستمراً. إن قوة وتأثير الكنيسة الجديدة تعاظماً، والقانون اللاوي الآن يقف إلى جانب الصورة المنقحة عن الأسطورة المألوفة للأم وابنها القتيل ومعها وقع المزيد من قمع الدين الأنثوي.

في عام ١٩٧١ كتب ويت في مجلده «إيزيس والعالم اليوناروماني» وفيه يستنتج أن عبادة ربة مثل إيزيس وأرتيميس، الاسمين اللذين شاع استخدامهما زمن المسيح، كانت هدف الرسول بولس. ويفسر أنه:

«في كل من فلسطين وسوريا، كما في آسيا الصغرى التي تركزت فيها ـ حماسة بولس الرسولية، كانت عبادة الآلهات الأنثوية قديمة جداً ومتجذرة عميقاً... والوعظة التي هاجمت الوثنية التي أبداها أهل أفسس تجاه الربة العظيمة أرتيميس لم تكن تفصيلية. ونحن لانشك في أن بولس أخذ بعين الاعتبار والحسبان الآلهات الأنثوية اللواتي كان تأثيرهن يمتد عميقاً وعلى الأخص أرتيميس وإيزيس... وبولس لايستطيع أن يعلن أن هنا منافساً خطيراً... ومن الواضح أن نظرة بولس إلى الإيزيسية كانت ولاشك نظرة نقدية. كان عالم بولس أبوياً، وكان دينه مسيحياً وحدانياً، وكان الله على شكل رجل. إيزيس كانت امرأة... والعدو الواضح للكنيسة في بواكير نضالاتها المسكونية كان عبادة إيزيس وخدام معبدها. وقد كان هذا واضحاً حتى قبل الضربة المميتة التي تلقتها الوثنية على يد ثيودوسيوس».

كما أن ويت يقتبس أيضاً أعظم سطر فاضح في قصة تدمير دين الربة، فيخبرنا أن

كليمنت الاسكندري كان يكرر دائماً قولاً مأثوراً من «انجيل المصريين». إن كلمات المسيح هامة وهي في هذا السياق موجهة ولاشك ضد العبادة القائمة لإيزيس: «إنما جئت لأدمر أعمال الأنثى».

وقرابة عام ٣٠٠ بعد المسيح وضع الامبراطور قسطنطين حدّاً للمقام القديم لعشتاروت في أفاقا واضطهد عبادة عشتاروت في كل بلاد كنعان، زاعماً أنها عبادة «لا أخلاقية». قيل إن المسيح ظهر له في رؤيا أثناء معركة من معاركه وسمع منه هذه الكلمات «بهذه الشارة حارب». وهذه كلمات غريبة ولاتنسجم مع طبيعة أمير السلام.

في عام ٣٨٠ بعد المسيح أغلق الامبراطور ثيودوسيوس معبد ربة إليوس ومعابد الربة في روماو «العجيبة السابعة في العالم» معبد الربة الذي عرف باسم أرتيميس أو ديانا في أفسس الواقعة في غرب الأناضول. قيل إنه احتقر دين النساء. هذا الامبراطور المسيحي العظيم يذكر ذكراً عظيماً لقيامه بذبح سبعة آلاف إنسان في سالونيك.

وفي أثنيا حول بارثينون الاكروبول، المكان المقدس للربة منذ العصور الميكينية ١٣٠٠ قبل المسيح إلى كنيسة مسيحية عام ٤٥٠ بعد المسيح. وفي القرن الخامس حول الامبراطور جوستنيان بقية معابد إيزيس إلى كنائس.

وفي العربية في القرن السابع وضع محمد حداً للعبادة القومية لربة الشمس اللات والربة المشهورة باسم العزّى التي قد يكون لاسمها علاقة بالربة القديمة وازيت. ويكتب البروفسور بتشارد أن اللات كانت في الأصل هي عشيرة في الديار العربية. وأدخل محمد عبادة الله باعتباره رباً أعلى. وكلمة الله ذاتها تعني الرب كما أن اللات تعني الربة. ومع أن ذلك لم يعرف دائماً في المجتمع الغربي فإن محمداً قد جمع ليجندات ومواقف العهدين القديم والجديد في القرآن، توراة الإسلام. ويخبرنا القرآن في السورة ٤: ٣١ «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله» (اخطأت المؤلفة في تحديد الآية والصحيح أنها الآية الرابعة والثلاثون من السورة الرابعة ـ المترجم).

وفي أواخر القرن السادس عشر بعد المسيح جمع الباحثون العبريون نصاً عرف باسم القبالة. وكان اسم ليليث قد ورد وصفه في لوح سومري على أنه «يد إينانا» التي تجلب الرجال إلى المعبد، ويظهر هذا الاسم ثانية في الأدب العبري كزوجة آدم الأولى التي رفضت أن تضطجع تحته وأن تطيع أوامره. وقدمت ليليث في القبالة على أنها رمز

للشر، على أنها شيطانة أنثى. وكتب شوليم أنه جاء في الزوهار، وهو قسم من القبالة أن «ليليث ملكة الشياطين أو أن حاشيتها من الشياطين الذين يسعون جاهدين لتحريض الرجال على الأفعال الجنسية من دون معونة امرأة، وهدفهم جعل أنفسهم أجساداً من البذور الضائعة».

فالزوهار يحذر من أن ليليث تهيم على وجهها منتظرة العثور على حيوانات منوية تخلق منها الأبالسة والأطفال غير الشرعيين. وقد حذرت القبالة أن الأطفال غير الشرعيين إنما يولدون بمعونة ليليث. فهل هذه إشارة إلى القادشتو القديمة التي تجسدت صورتها الآن في الشيطانة الساحرة ليليث؟والعامل الأكبر الذي يساعدنا على تجنب ليليث الخطيرة هو أيضاً قضية الوراثة. ويتضح هذامن وصف أفعال الأطفال غير الشرعيين، الذين توفي والدهم.

إن شوليم يخبرنا:

يرغبون مثل بقية الأطفال ليشاركوا في الميت كأبيهم فيلطمون وينتفون شعورهم عليه، حتى يشعر بالألم والرب نفسه عندما يرى هذه الذرية المقيتة في الجثة يتذكر خطايا الإنسان الميت... وكل الأطفال غير الشرعيين مع الأبالسة الذين خلفهم أثناء حياته يظهرون بعد موته ويشاركون في النواح عليه في جنازته... فالأبالسة يطالبون بحقهم الوراثي في هذه المناسبة مثل بقية أبناء الميت ويحاولون إيذاء الأطفال الشرعيين.

خلاصة:

لقد رأينا أن أوامر تدمير دين الربة أنشئت ضمن قوانين الأديان الذكورية التي حلت محله. ومن الواضح أن الاحترام القديم للإلاهة الأنثى لم يتوقف ببساطة وإنما حدث اضمحلاله تدريجياً، أولاً على يد الهندوأوروبيين وفيما بعد على يد العبريين ثم على يد المسيحيين وأخيراً على يد المحمديين. وإلى جانب الموافقة المطلقة على الأديان الذكورية في قسم كبير من العالم، فإن معلمي «الأخلاق» الجنسية، أي العذرية الأولية والإخلاص الزوجي للنساء اندمجوا في مواقف وقوانين المجتمعات التي تحيط بهم.

لايوجد أي شيء حول العداء الذي عبر عنه الآباء اللاويون تجاه دين الإلاهة الأنثى. إن السجلات التي ربما تنوقلت على شكل شفهي، المأخوذة من الكتابات العبرية الأخرى أو بعض اللغات الأخرى، صارت جزءاً من النصوص التوراتية التي يفترض أنها كتبت كما نعرف قرابة عام ١٠٠٠ قبل المسيح. ويبدو أن اللاويين منذ زمن موسى ومابعد قد اتخذوا قراراً بتدمير هياكل ومذابح العبادة القديمة. ومنذ ذلك

الوقت وحتى سقوط الأمتين العبريتين في ٧٢٢ قبل المسيح و٥٨٦ قبل المسيح، نقرأ في التوراة عن المذابح والانتهاجات الحقيقية التي زعموا أنها تنفيذ لأمر الإله المذكر. ولا نستطيع تجاهل ملاحظة التأكيد الدائم على الجنسية الأنثوية التي لاتقبل إلا إذا كانت النساء من ضمن ملكيات ذكر ما، وكل انحراف عن هذه القاعدة كان يعتبر دعارة وزنى ويخضع لعقوبة الموت مما جعل العادات الجنسية للدين القديم من الصعب اتباعها.

وبالنتيجة فليس من باب التأمل أن نفترض أن أسطورة آدم وحواء، الأسطورة التي يخبرنا البروفسور شيرا عنها أنها تقدم الدليل أنها «انتجت في قلب دوائر التعليم» قد تكون كتبت عن عمد وأدخلت في قصة التكوين التوراتية كهجوم آخر على دين الربة.

داخل أسطورة الخلق نجد أن كل شيء موجود ويحيا بأمر من يهوه، ونعتقد أن القصة التي يفترض أن تتحدث عما جرى في البدايات الأولى للزمن، فتقدم لنا صورة المرأة فتانة غاوية خطيرة، جلبت السقوط على كل البشرية، قد أدخلت في أسطورة الخلق إدخالاً. أما وقد عرفنا مما قدمنا عن العادات الجنسية المقدسة في دين الربة، والحضور الدائم لهذه العادات بين العبريين حتى في أورشليم، واستخدام أساطير التنين أو الأفعوان والأغلب أن الهندوأوروبيين ربطوها بقصة الخلق وبقايا أسطورة اللوياثان في العهد القديم، فقد نحصل على وضوح أكثر ونظرة مضيئة في الرمز والرسالة التي تشتمل عليها الأسطورة التوراتية عن آدم وحواء.

فاختبار الخيال الرمزي لدين الربة والخيال الرمزي لقصة سفر التكوين عن الخلق في الفصل التالي سوف يقدم بعض المعلومات المدهشة. فقد نبدأنفهم ماذا تعني التوراة عندما تخبرنا أن حواء عصت الإله الذكر وبدلاً من طاعته تبعت كلمة الحية وارشادها. وقد نجد فعلاً أن أسطورة الفردوس التي تتراءى في منتهى البراءة وكيف بدأ العالم إنما وضعت بعناية حريصة وراحت تدعو إلى «الاحتفاظ بالنساء في مكانهن» المكان الذي خصصته لهن القبيلة اللاوية في كنعان التوراتية.

الفصل العاشر

حل لغز أسطورة آدم وحواء

أول ما انكببت على دراستي لعبادة الإلاهة الأنثى، كانت تحركني إلى حد بعيد صورة المرأة التي قدمتها اليهودية والمسيحية ـ المرأة التي اسمها حواء. وكلما اكتشفت مزيداً من الطقوس والرمزية عند أولئك الذين يبجلون الجدة المقدسة، صرت أكثر قناعة أن أسطورة آدم وحواء التي لاشك أنها قصة ذات وجهة نظر مع إعلان منحاز في نهايتها، إنما هي أسطورة صممت تصميماً متعمداً لتستخدم في المعركة اللاوية المستمرة لقمع الدين الأنثوي. ربما كانت هذه النسخة هي أكثر النسخ تحديثاً لأسطورة التنين أو الأفعوان التي ماتزال بقاياها في التوراة في سفر المزامير وفي سفر أيوب.

كان الإيمان الأنثوي بنية ثيولوجية مركبة، يؤثر في كثير من أركان حياة أولئك الذين يقدمون لها الإجلال. وتطور عبر آلاف السنين وكانت رمزيته غنية ومعقدة. فرموز من أمثال الأفاعي وأشجار الثمار المقدسة والنساء المغويات جنسياً اللواتي يتبعن النصيحة من الأفاعي قد تكون فهمت من قبل شعب أزمنة التوراة على أنها ترميز للحضور المألوف للإلاهة الأنثى. في أسطورة الفردوس قد تكون هذه الصور فسرت مجازياً بأن الاستماع إلى النساء اللواتي يبجلن الربة تسبب مرة في طرد كل البشرية من المنزل المبارك الأصلي في عدن.

الأفاعي المقدسة والرؤيا النبوئية:

فلنبدأ بالأفعى. يبدو أن الوجود بكامله يبدأ بأفعى في بعض البلدان. فعلى الرغم من التأكيد على فرضية أن الأفعى اعتبرت رمزاً للقضيب الذكري، يبدو أنها قدست في الأصل باعتبارها أنثى في الشرقين الأدنى والأوسط وارتبطت تدريجياً بالحكمة والاستشارة النبوئية أكثر مما اتصلت بالخصب والنماء كما يفترضون في أغلب الأحيان.

فالربة نيدابا، كاتبة السماء السومرية، المتعلمة في الهيئات المقدسة، التي عبدت أولاً

كإلاهة زعيمة للكتابة، كانت أحياناً ترسم كأفعى. وفي مدينة دير السومرية كان يشار إلى الربة أحياناً باعتبارها الربة الأفعى المقدسة. والربة نيليل التي قيل أحياناً أنا أدخلت الزراعة وبالتالي الحضارة إلى شعبها، قيل إن لها ذيل أفعى. وفي عدة ألواح سومرية كانت الربة تسمى الأفعى الأم الكبرى للسماء.

وقد أكد ستيفن لانغدون، الأركيولوجي الذي قاد الحفريات الأولى لسومر، وعلَّم فيما بعد في أكسفورد، أن إينانا التي كانت تعرف وقتها باسم إينيني كانت وثيقة الصلة بعبادة الأفعى. كما وصفها بأنها الأم المقدسة التي وضعت القوانين. وكتب أن الربة التي عرفت باسم نينا، التي ليست أكثر من شكل آخر لاسم إينانا، وربما كان الاسم الأقدم، كانت ربة أفعى في المراحل السومرية الأكثر قدماً. وشرح أنه بالنسبة لنينا فإنها احترمت كربة نبوئية ومفسرة للأحلام وقد سجل هذه الصلاة عن لوح سومري: «يانينا الطقوس الكهنوتية، ياسيدة القوانين العظيمة إنك أنت نبية الآلهة». وعلق أن «الدليل يشير إلى ربة أفعى أصلاً كمفسرة لأحلام المستقبل المستور». واكتشفت عدة نقوش في سومر يرجع تاريخها إلى ٤٠٠٠ قبل المسيح، تصور شكلاً أنثوياً مع رأس أفعى.

ويكتب الدكتور ولتر هنز عن عيلام الواقعة شرقي سومر تماماً حيث كانت الربة في العصور القديمة تحكم حكماً مطلقاً فيخبرنا «... قسم من هذا التفرد (في عيلام) يتألف من التبجيل الخاص والاحترام للأنوثة الخالدة وعبادة الأفاعي التي تعود جذورها إلى السحر... حتى فخاريات الألف الثالث والرابع تكثر فيها رسوم الأفاعي...».

عشتار بابل، وهي خليفة إينانا كانت متوحدة مع كوكب اسمه فينوس (الزهرة - المترجم). وكان هذا الكوكب في بعض النصوص البابلية يدعى ماسات، وتعني حرفياً النبية. وترسم عشتار متربعة على العرش الملكي للسماء تحمل صولجاناً وقد التف عليه أفعوانان. وأحد الأختام البابلية يظهر عشتار تمسك صولجاناً بأفعوان ملتف ونقش فيه «ربة الرؤيا في كيسورو» و «نبية كوا». وتقدم الألواح البابلية سجلات عديدة للكاهنات اللواتي يقدمن الإرشاد النبوئي في مقامات عشتار، وبعضها هام جداً في سجلات الأحداث السياسية.

وحتى في أسطورة كاسيت البابلية جاء أن تيامات كانت أول مخلوق مقدس. وطبقاً لهذه الليجندة كانت ألواح القدر بيد تيامات التي بعد قتلها زعم مردوخ أنها تخصه هو. وقد وصفت تيامات في هذه الأسطورة أنها تنين أو أفعى. فالارتباط

الحقيقي للأفعى بالإلاهة الأنثى كان السبب الواقعي لاستخدام هذا الرمز في الأساطير الهندوأوروبية.

وفي جزيرة كريت تظهر الأفعى في عبادة الإلاهة الأنثى على نحو متكرر أكثر من أي مكان آخر في المنطقة المتوسطية. إن كل المنتوجات الفنية التي نقب عنها في الجزيرة والتي ترسم الربة أو كاهنتها تحمل الأفاعي في يديها أو تلتف حول جسدها، تكشف أنها كانت جزءاً مكملاً للطقوس الدينية. وإلى جانب تماثيل الكاهنات اللواتي تلتف الأفاعي عليهن هناك أشياء أسطوانية طينية أيضاً تلتف حولها الأفاعي، اكتشفت في كريت. ووصفها آرثر إيفانز الأركيولوجي الذي نقب عن القصر الكريتي في كنوسوس بأنها «أنابيب أفعوانية» ورأى أنها استخدمت لإطعام الأفاعي المقدسة التي كان يحتفظ بها في مذابح الربة الكريتية. وهناك أدلة وفيرة عن الطبيعة المقدسة للأفعى. إلى جانب الربة ظهرت في الحقيقة أكثر ما ظهرت في كريت حتى أن كثيراً من الأركيولوجيين يشير إلى الربة الأنثى باسم الربة الأفعى.

وبعد أن قدم إيفانز الدليل الداعم، أكد أن سيدة الأفاعي في كريت مشتقة أصلاً من عبادة الربة كوبرا في مصر قبل ظهور السلالات. ورأى أن عبادة الربة الأفعى قد تكون دخلت إلى كريت قرابة عام ٣٠٠٠ قبل المسيح. وهذا التاريخ هو ذاته التاريخ الذي تشكلت فيه السلالات الأولى في مصر، ثم يرى أيضاً أن هذا التاريخ هو أيضاً تاريخ فرار المصريين إلى كريت نتيجة الغزوات التي حصلت في ذلك الزمن.

كان استخدام الكوبرا في دين الربة في مصر منذ القدم بحيث أن أي اسم ربة كان يسبق بكلمة كوبرا (أي أن صورة الكوبرا كانت الشارة الهيروغليفية لكلمة الربة). كانت الربة في مصر ماقبل السلالات في مصر السفلى (الشمال) هي الربة الكوبرا المعروفة باسم وازيت. ولم يعرف الشيء الكثير عن هذه الربة الكبرى القديمة، لكننا نراها أخيراً على شكل كوبرا أورايوس (الأفعى المقدسة ـ المترجم) التي توضع على جبين الآلهات الأخريات وعلى الأسرة الملكية. وقد عرفت الكوبرا كعين، أي وازيت، رمزاً للحكمة والاستبصار السري. وأخيراً فإن مااشتق من الربة الكوبرا يعرف بالعين من أمثال حاتور وماعت، وكلتاهما عرفتا باسم العين. وهذا المصطلح في أي سياق استخدم كان يكتب دائماً بالشكل المؤنث. إن وضع العين وارتباطها بالآلهة الذكر مشروح في الفصل الرابع. فربة مثل حاتور كانت أيضاً مرتبطة مع الإله الذكر حورس. واسمها يعني فعلاً بيت حاتور. لكن أحد النصوص احتفظ بالقصة أن حاتور كانت الأفعى التي وجدت قبل وجود أي شيء آخر. عندئذ صنعت السماء فالأرض وعليها

خلقت كل ماهو حي. وفي هذه القصة كانت غاضبة مع أن النص لا يوضح السبب. فقد هدّدت بتدمير الخلق بأسره وتستعيد مرة أخرى شكلها كأفعى.

وهناك مقام نبوئي ينتصب في المدينة المصرية بونو، وهي إحدى أقدم مركز ديني للربة الكوبرا. وقد عرفت المدينة باسم بيروتو في المصرية، ولكن الإغريق سموها بوتو، كما أطلقوا هذا الاسم على الربة الكوبرا ذاتها. هذا المذبح كان مكرساً في العصور الكلاسية اليونانية للربة المشهورة باسم لوتو، ولكن أيضاً كان الموقع نفسه ذات مرة مذبح الإرشاد النبوئي للربة وازيت نفسها. وقد اطلعنا هيرودوت أنه رأى عدداً ضخماً من الهياكل العظمية للأفاعي في تلك المدينة.

في اليونان تتاح لنا نظرة أقرب إلى مشتقات الربة الأفعى المصرية والكريتية. ومع أن طبيعة الدين خضعت لبعض التحولات الكبيرة بعد غزوات الآخيين والدوريين، الذين جلبوا معهم عبادة زيوس، فإن كثيراً من بقايا الصور والرموز القديمة ماتزال قائمة. وقد تجلى هذا بنوع خاص في الشخصية البطولية لأثينا. إن أفعاها دائماً تظهر في الليجندات والرسوم والنقوش. في بعض التماثيل تطل من تحت ترسها البرونزي العظيم أو تقف إلى جانبه. وهناك بناء معروف باسم الأركتيوم يقف في الأكروبول إلى جانب معبدها المشهور باسم البارثينون. ولكن أفعى ربة الحكمة اليونانية، التي قدست في الذرى العالية للأكروبول الأثيني لم تكن من خلق المرحلة اليونانية الكلاسية. وعلى الرغم من الليجندة الإغريقية الهندوأوروبية التي ترى أن أثينا ولدت من رأس زيوس، فإن عبادة الربة وصلت إلى الأكروبول قبل ذلك بزمن طويل - مع الربة الكريتية للمستوطنات الميكينية. فالمعابد الكلاسية للأكروبول المكرسة لأثينا اليونانية بنيت فعلاً على الأسس الميكينية.

بدأت الاتصالات تتخذ شكلاً. وكما قرأنا من قبل فإن الميكينيين كانوا الشعب الذي عاش في كريت في عصر كنوسوس قرابة عام ١٤٠٠ قبل المسيح. لقد ضموا الحضارة الكريتبة المينوسية إلى حضارتهم الخاصة إلى درجة أن العبادة كانت توصف بالدين الميكيني المينوسي. فطراز الثياب والخواتم الطابعة واللوحات الجدارية والأختام والمنتجات الفنية من كل الأنواع تكشف التشابه الكبير للعقائد الدينية الميكينية مع عقائد الكريتيين. وحالما نفهم هذه الارتباطات، نتأكد من أهمية واقع أنه تحت أنقاض معابد أثينا ودلفي اليونانية الكلاسية، وكذلك تحت مقامات الإغريق الأخرى حيث كانت الربة تبجل مع أفعاها، تضطجع البقايا الميكينية الأقدم.

إن المقام الذي ربما يقدم أعمق نظرة لارتباط الإلاهة الأنثى لليونان مع ربة الأفعى لكريت هو دلفي. فتحت المعبد والأبنية الكلاسية لدلفي هناك منتجات فنية ميكينية وخرائب من مقامات أقدم اكتشفتها الحفريات. وفي العصور الأقدم كانت ربة دلفي مقدسة تماماً مثل تلك التي تقدم الرؤيا المقدسة، الكاهنة التي تخدمها. فالمرأة التي تقدم نبؤات الحكمة المقدسة تسمى بيثا. وعلى الكرسي الثلاثي الأثافي الذي تجلس عليه التف أفعوان اسمه بيثون. ومع أن بيثون في الكتابات اليونانية المتأخرة كان ذكراً، فإن السجلات الأكثر قدماً كانت تجعله أنثى. وقد اشتهرت الأفعى بيثون وصارت من الأهمية حتى أن هذه المدينة عرفت باسم بيثو. وطبقاً لما يقوله بوسانيوس فإن المعبد الأقدم في هذا الموقع بنته النساء، بينما يسجل اسخيلوس أنه في هذه المقامات مجدت الربة باعتبارها النبية الأولية. وفي العهود المتأخرة استولى كهنة أبولو الذكر على هذا المقام تخبرنا الليجندة اليونانية عن قيام أبولو بقتل بيثون. إن هناك الكثير من المنحوتات والتماثيل الصغيرة للنساء اللواتي يوصفن عادة باسم الأمازونيات المقاتلات ضد الرجال في هذا المقام تدل أنها صورت الانتزاع الأولي للمقام من يد النساء.

تقارير بيثون، وكذلك أسطورة كاسندرا الطروادية، تكشف أن الأفاعي كانت تسكن على نحو عادي في المقام النبوئي في دلفي. فقد كانت الأفاعي المقدسة يحتفظ بها في معبد الربة المعروفة باسم هيرا التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بجيا دلفي، النبية الأولى. والمواقع المقدسة في دلفي وأوليمبيا ودودونا كانت بالأصل متوحدة بالربة بيد أن كهنة زيوس وأبولو (وكلاهما وصفا بأنهما قاتلا أفعى الربة جيا) صادروها في أزمنة متأخرة. ومع ذلك فحتى تحت اسم الآلهة المذكرة، ظلت الكاهنات هن اللواتي يقدمن الاستشارة الإلهية.

وهكذا رأينا أن الإلاهة الأنثى، كما عرفت في بابل ومصر وكريت واليونان كانت متوحدة مع الحية أو كحية وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالحكمة والنبوءة. ولايعني هذا أن الربة الأفعى قد اشتهرت في هذه البلدان فقط. أيضاً عندما ننظر إلى كنعان التي تمتد على البحر المتوسط (وكذلك مصر وكريت واليونان) نكتشف الدليل على الاحترام الذي تحظى به الربة كإلاهة أفعى. إننا في الحقيقة نحتفظ لها بسفر كامل وليس فقط بمقاطع خصصت لها. فمن العصور المينوليثية ومابعد كان الشعب يتحرك باستمرار يتاجر ويحارب في مساحات تبعد عن وطنه أميالاً كثيرة. وقد أسست مستعمرات نائية واستوطنت حيث توجد الغابات والذهب والتوابل والمواد الثمينة الأخرى. لقد مخرت السفن الفينيقية ليس فقط البحر المتوسط والأنهار الداخلية بل شقت طريقها

حول شاطيء أسبانيا بعيداً حتى قادش، والأرجح أنها وصلت إلى الجزر البريطانية، قبل ولادة المسيح والغزوات الرومانية بقرون كثيرة. بل قبل الفينيقيين الذين كانوا كنعانيي صور وصيدا هناك مجموعات من الناس مخروا في المياه المتوسطية وعرفوا باسم شعوب البحر. ويبدو أنهم كانوا كثيري الأسفار تاركين وراءهم آثاراً تدل على زيارتهم واستيطانهم.

ومن تلك الشعوب شعب عرف باسم الفلسطينيين. لقد صار هذا الاسم مألوفاً لدينا عن طريق التوراة، حيث وصفوا دائماً بأنهم شعب شرير خائن، والسبب الواضح أنهم العدو الأكبر للعبريين. ولكن كما كتب البروفسور هاريسون فإن «الحفريات الأركيولوجية في الديار الفلسطينية تبين بوضوح مدى الغلط في اعتبار الفلسطينيين كرديف للبربرية أو التخلف الثقافي كما ورد ذلك في الحديث الشائع».

إن الشعب الفلسطيني يقدم حلقة من أهم الحلقات بين عبادة الربة الأفعى في كريت والإلاهة الأنثى كما كانت تعبد في كنعان. وقد جاء في العهد القديم أنهم جاؤوا من جزيرة كفتو ـ التي يعتقد أنها على الأرجح جزيرة كريت، فالمصريون يسمونها جزيرة كفتو. وقد ذهبت التوراة أنهم جاؤوا من كفتو ومن مصر. ومع أن هجراتهم الكبرى إلى كنعان برزت قرابة عام ١٢٠٠ قبل المسيح، إلا أنه أشير إلى الفلسطينيين في زمن ابراهيم. عدة كتاب زعموا أن الفلسطينيين كانوا فعلاً فرعاً للميكينيين الذين ظهرت فعاليتهم في كريت واليونان في الوقت ذاته. ولكن بعض الكتاب يربط اسمهم بالبلسجيين، السكان الذين عاشوا في اليونان قبل الغزوات الهندوأوروبية. وأثناء الهجرات الفلسطينية الكبرى إلى كنعان استوطنوا أساساً في الجنوب الغربي. وقد اشتهرت هذه المنطقة باسم فلسطيا، وهي أصل كلمة فلسطين. ويبرهن الدليل أن دين الربة الأفعى جاء مع مجيء الشعب الفلسطيني.

والأدلة الواضحة عن ارتباطات عبادة الربة الأفعى في كريت بالإلاهة المؤنثة في كنعان، وأيضاً في الجزيرة القريبة إليها قبرص هي أنه في المكانين اكتشفت «أنابيب الأفعى» ـ وهي تقريباً واحدة كتلك التي وجدت في كريت. والأهم من ذلك حقيقة أن أنبوب الأفعى اكتشف في معبد فلسطيني مكرس لعبادة عشتاروت.

وقد استنتج الأركيولوجي هتشنسون هذه الارتباطات:

«إن أنابيب أفاعي غورنيا (مدينة في كريت) ذات أهمية توازي أنابيب الأفاعي خارج كريت وقد جمع إيفانز سلسلة لابأس بها من نماذج الأنابيب الطينية المتعلقة

بمستودع عبادة الأفاعي، بعضها صنع مع أفاع تزحف في داخله... والأمثلة الأكثر أهمية لأنابيب الأفاعي على أي حال لم تأت من كريت إطلاقاً بل من مواقع العصر البرونزي المتأخر في قبرص وفلسطيا. أحد الأنابيب الذي وجد في كيتيون في قبرص يبيّن أنبوب الأفعى وقد تحول إلى قفص حمامة... وأنبوب آخر وجد في بيت عشتاروت في الموقع الفلسطيني بات شان (كنعان) يعود تاريخه إلى حكم رمسيس الثاني في مصر (قرابة ١٢٩٢ - ١٢٢٥ قبل المسيح) يظهر أفعوانين زاحفين حول الأنبوب وفي داخله...».

وهناك قطعة أخرى وجدت في بيت شان وفيها صورة الربة تطل من نافذة مقام، بينما ظهرت أفعى من مستوى أدنى. وفي هذا الموقع نفسه وجدت بعض «بروشات عشتار» مع تمثال لامرأة الأرجح أنه تمثال كاهنة - مع أفعى التفت على عنقها. واكتشاف مهم آخر في هذا المعبد كان لأفعى من الآجر بأثداء أنثى. وطبقاً للتوراة فإن هذا المعبد كان «بيت عشتاروت» في بيت شان حيث علق الفلسطينيون درع الملك العبري المهزوم شاول رمزاً لنصرهم «صموئيل الأول: ١٣: ١٠).

وفي جزيرة قبرص القريبة هناك معبد آخر لعشتاروت شيد في مدينة كيثيون، قرب لارنكا الحالية، لم يكتشف أنبوب أفعى قريب الشبه بالأنابيب التي وجدت في كريت فقط بل أيضاً اكتشف تمثال طيني صغير يحمل أفعى. واكتشفت التنقيبات الحديثة في كيثيون تمثالاً آخر لعشتاروت. ولن ندهش كثيراً إذا عرفنا أن معبد عشتاروت في كيثيون شيد على مانعتقد اليوم أنه أسس ميكينية أو كنعانية.

ومع أن وجود الفلسطينيين وحده قد يكون كافياً لتأكيد وتفسير ظهور الربة الأفعى في كنعان، فإن عبادتها دخلت «أرض الميعاد» من خلال قنوات أخرى أيضاً. فالربة إيزيس - حاتور التي احتضنت عبادتها ماكان يقدم لوازيت، الربة الكوبرا لمصر، كانت أيضاً معروفة في قطاعات معينة في سيناء وكنعان. حتى لو عدنا إلى أوائل الأسرة الثانية فإن بعض هذه الأماكن يظن أنها كانت موانيء أو حتى مستعمرات لمصر.

بعض ارتباطات الربة في كنعان الإلاهة الأنثى كما عرفت في مصر تفصح عن نفسها من خلال الأسماء. ففي مصر عرفت عشتاروت الكنعانية باسم أسيت، وهي أيضاً تشبه وازيت واوسيت. واسم أوم أتار، الأم أتار، المعروف في أجزاء من العربية مرتبط باسم حاتور ولكنه مرتبط بالاسم الكنعاني لعشتاروت - أتوريت.

عدة معابد قديمة تقدم الدليل على الارتباطات بين إيزيس حاتور والربة في كنعان.

وتظهر في البلدين ربة أفعى. ففي الأول، في سيرابيت الخاديم، وهو مقام في شبه جزيرة سيناء بالقرب من مناجم الفيروز المصرية العظيمة، اكتشفت نقوش بلغة مزدوجة مصرية وسامية. وقد سمت هذه النقوش الإلاهة التي عبدت ذات مرة في المقام باسم الربة حاتور. وفي هذه النقوش المزدوجة اللغة أشير أيضاً إلى حاتور باسم بعلات، ومعناها السيدة أو الربة، كما كانت الكلمة تعرف في كنعان آنئذ. وقد كتب هاريس عن معبد في سيناء وناقش العلاقة بين اسمي الربة كما كانت مشهورة هناك. وشرح ذلك فقال «هنا كانت بعلات موحدة مع الربة المصرية حاتور التي في معبدها وجدت جميع النقوش». ولكن ربما الحقيقة الأهم أنه على جدران هذا المقام نقشت الصلاتان على الحجر. وفي كلتا الصلاتين كان التضرع يتوجه إلى الربة ـ كربة أفعى.

وكتب السير فلندرز بتري عن النبوءات في حظائر المجمع سيرابيت. وهذا المقام في شبه جزيرة سيناء، التي تقع بين مصر وكنعان يستحق الدراسة نظراً لأن كثيراً من الباحثين افترضوا أنه قد يكون على الطريق الذي اتخذته القبائل العبرية عقب خروجها من مصر. وتسجل التوراة أن موسى أثناء هذه الفترة في الصحراء حاز على «الأفعى النحاسية» التي ظهرت بعد سبعمئة سنة في المقام الموجود في أورشليم. وقد جرى تحطيمها على يد المصلح العبري حزقيال باعتبارها تجسيداً وثنياً ولكن لايستبعد أبداً أنها قد تكون دخلت في ملكية العبريين في سيرابيت حتى أن موسى قبل بها مؤقتاً استرضاء للشعب العبري.

ومع ذلك يبدو أن هذه الأفعى البرونزية توحدت بدين الربة، لأن التوراة تكشف أنها كانت محفوظة في المعبد ذاته في أورشليم حيث نجد في عام ٧٠٠ قبل المسيح أوعية لعشتاروت وبعل ولعشيرة ومنزل النساء المقدسات والنساء اللواتي يبكين تموز.

ولقب بعلات كاسم آخر لحاتور يقود إلى معبد آخر للربة، وهو المقام في المرفأ الكنعاني بيبلوس (جبيل ـ المترجم) وهو موقع أقيم منذ عام ٦٠٠٠ قبل المسيح. وحتى أواخر القرن الرابع قبل المسيح جاء في كتابات من بيروتوس (بيروت) أن البعلات كانت ماتزال الإلاهة الأولى في بيبلوس. ولو ألقينا نظرة على المياه المتوسطية، على الموقع الساحلي لما يسمى الآن لبنان، والذي كان يدعى في يوم ما كنعان، نجد أسس معبد يرجع تاريخه على الأقل ٢٨٠٠ قبل المسيح. وكثير من السجلات البيبلوسية تخبرنا أنه خلال معظم المراحل كان متحالفاً مع مصر.

كانت الربة في هذا المعبد القائم في بيبلوس تكرم كبعلات مثلما تكرم كإيزيس

وحاتور. وقد عثر على رموز كثيرة للربة وكوبراها وسط الخرائب. وإحدى عصابات الرأس المزينة بالكوبرا الناشبة أعيد بناؤها بحيث صارت الأفعى تظهر من جبين من يضعها على رأسه، مثل عين الحكمة. وفي هذا الموقع نفسه اثنتان من الكوبرا الذهبية ووعاء للتقدمة مزين بأفاع تم اكتشافها. وطبقاً لليجندة مصرية فإن هذه المدينة بيبلوس ذاتها التي في كنعان هي التي سافرت إليها إيزيس لتعيد جسد أخيها/ زوجها الميت أوزيريس.

في كل مكان من كنعان دليل على الأفاعي يظهر مع عبادة الربة. ويبدو أن أغلب المنحوتات والمنتجات الفنية المترافقة مع الإلاهة الأنثى وأفعاها في كنعان قد تعرضت للتدمير في زمن قيادة اللاويين للعبريين، ومع ذلك ظلت بقايا مبعثرة تقدم شهادة صامتة عن وجودها في يوم من الزمان حتى في مدن كنعان الجنوبية. وفي تعنك اكتشف عدد من رؤوس الأفاعي وكذلك تمثال صغير يحمل أفعى. وهنا أيضاً اكتشف تمثال برونزي لعشتاروت مع نقش للربة تعطي النبوءات بإشارة من إصبعها.

وكشفت حفريات بيت شمش أباريق بأفاع وتمثال للربة مع أفعى تتدلى على كتفها وفي ثنية ثوبها. وفي تل بيت مرسيم وهو حصن فلسطيني آخر وجد الكثير من «بروشات عشتروت» ونقش يشير أولبرايت إلى أنه للربة، وافعى ملتفة على النصف الأسفل للبدن. إن القطعة مشوهة جداً وإني أتردد في الجزم لمن هذا التمثال، مع أن الأفعى واضحة وضوحاً كافياً.

ويجعل هاتشيسون علاقة بين هذا التمثال الخاص والربة الأفعى لكريت المينوسية فيكتب «وربة أفعى مشابهة يبدو أنها عبدت أثناء العصر البرونزي في فلسطين حيث عثر على بلاطة في تل بيت مرسيم في طبقة رسوبية يعود تاريخها إلى عام ١٦٠٠ قبل المسيح تقريباً، وقد رسم عليها شكل للربة مع أفعاها الملتفة حول جسدها. كانت هذه البلاطة معاصرة مع تمثال خزفي للربة الأفعى عثر عليه في مستودعات المعبد في كنوسوس».

في شوشان عثر على أفعى برونزية أخرى، بينما في شيشيم عثر الأركيولوجيون على تمثال مع أفعى ملتفة حول جسدها. وفي مدينة جازر وهي تبعد ثمانية عشر ميلاً شمال أورشليم، عثر على أفعى برونزية قرب كهف كان يستخدم حرماً دينياً. وكان هناك تمثال للربة مع كوبرا. ويبدو أن الأفاعي كانت ترسم أيضاً على هوامش التمثال. فقد لوحظ أنه على ذراعيها الممتدين رفعت أفعوانين، كما في كثير من التماثيل

الأخرى التي من هذه الشاكلة تجمع مظاهر كل من عشتاروت وحاتور وهناك آثار طينية كتبت كلمة قادش ـ مقدسة. وهناك في هذا الموقع ذاته اكتشف تمثال لعشتاروت.

ويصف الأركيولوجي ماكليستر الحفريات في مدينة جازر بهذه الطريقة: «في حظيرة ملاصقة للحجارة المنتصبة عثرنا على موديل برونزي لكوبرا قد يكون نذراً مقدماً. إنه يذكرنا بالأفعى النحاسية لموسى التي قضى حزقيال على عبادتها في سفر الملوك الثاني. وربما كان هذا الشيء مشابهاً في المظهر. وهنا أثر بارز آخر صنع داخل هوامش المكان المرتفع وهو تمثال فريد لعشتار بقرنين.

ولجازر كهفان كبيران تحت الأرض، وقد وجدت الكوبرا قرب البناء الدائري. كما أن عدة كتاب رأوا أن القدسية النبوئية قد تكون مورست في غرف تحت الأرض حيث اكتشفت أوعية خمر وعليها رسوم أفاع.

وفي أورشليم نفسها كانت هناك أفعى من البرونز قيل إن تاريخها يرجع إلى أيام موسى وقد اكتنزوها باعتبارها وثناً مقدساً في المعبد وظلت هناك حتى عام ٧٠٠ قبل المسيح تقريباً.

إن رمز الأفعى الملتفة حول مايتعلق بالرؤيا النبوئية يظهر في كل من الشرقين الأدنى والأوسط. وباختصار نقول إن الروابط واضحة بين الربة الكوبرا في مصر والربة الأفعى في كريت، ويبدو أن الميكينيين أحضروا معهم الأفعى النبوئية من كريت إلى المقامات المقدسة التي سبقت اليونان، يُلاحظ بوضوح كبير في مواقع أثينا ودلفي. شعب آخر عرف باسم الفلسطينيين يرجح أنه من كريت جلب معه الربة الأفعى إلى قبرص وكنعان، بينما أحضر المصريون عبادة الربة الأفعى عبر البحر المتوسطإلى بيبلوس، وعبر رمال سيناء إلى سيرابيت. ونجد في كل من بابل وسومر ارتباط الربة بالأفاعي ونبؤة المعابد. وقلما وجدت منطقة في الشرقين الأدنى والأوسط لانجد فيها سجلات عن الأفعى و/ أو مقامات الحكمة الإلهية كعنصرين منفصلين، ومع ذلك فإن كل هذا حدث معاً بما يكفي للدلالة أن العلاقة بين هذين العنصرين المنفصلين كانت بنية واضحة.

وفي التساؤل عن طبيعة وغرض المقامات النبوئية والكاهنات اللواتي يقدمن المشورة فإن السجلات التاريخية وعلى الأخص في بابل واليونان توضح أنهن كن يستغللن لقضايا سياسية وحكومية وعسكرية. وليس فقط الإيمان أن الكاهنة تستطيع أن ترى

المستقبل بما يجعل النبوءة المعبدية شعبية، بل الفكرة أن هؤلاء النسوة كن على اتصال مباشرة مع الإلاهة التي تملك حكمة الكون. ويتضح من سجلات الشعب الذين آمنوا بالرؤيا النبوئية أنهم لاينظرون إلى المستقبل على أنه خاضع ومقرر من قبل أقدار لايسيطرون عليها بل على أنه شيء يمكن صنعه إذا عرف الإنسان العمل المفيد الذي يجب أن يعمله. فكاهنات المعبد لم يكن يستشرن من أجل نبوءة ثابتة عن المستقبل بل من أجل أفضل استراتيجية مع مراعاة الوضع القائم. وهذا الإرشاد كان متاحاً في المقامات من اليونان وحتى بلاد مابين النهرين.

ويتضح أن الربة في سومر، تحت أسماء من أمثال نينا أو أنيني أو إينانا تدل أن الرؤيا المقدسة كانت ركناً للدين منذ أقدم الأزمنة. وفي بابل الأخيرة أظهرت سجلات الملكتين سبتو وناكيا أهمية وتأثير كاهنات المعبد في الشؤون السياسية في بابل ومدينة ماري. فقد عرفت الكاهنات البابليات باسم أبيلتو أو موهتو. والمهم أن الكلمة العبرية زوناح تعرف أحياناً بـ «زانية» وأحياناً بـ «نبيّة».

كتب هاستنغس أنه في مصر «في الملكية القديمة والوسطى كانت نساء العائلات الكريمة تحمل لقب «نبية». وقد كانت الربتان حاتور ونيت هما اللتان تقوم النساء بخدمتهن في هذه القدرة».

وكتب الدكتور رسل عن النبيات اللواتي عرفن باسم سيبيل. لقد كانت السيبيليات متوحدات عادة مع نبية الأناضول واسمها سيبيلا، التي قد نشك بأن لها علاقة بالربة المعروفة هناك باسم سيبيل. لقد كانت سيبيلات روما هن المسؤولات عن عبادة سيبيل الأناضولية (سيبيل الربة هنا وليست الكاهنة - المترجم) التي أدخلت إلى روما. وطبقاً لرسل فإن:

«هذه النبوءات السيبيلية كانت تكتب خلال النصف الثاني قبل المسيح في الاسكندرية. لقد كن يقلدن السيبيلات اليونانيات اللواتي كان لهن تأثير بعيد في الفكر الوثني قبل هذا الزمن وبعده. كانت سيبيل الوثنية نبية قادرة، بوحي من الرب، أن تقدم الحكمة للناس وأن تكشف لهم الإرادة المقدسة. وكثير من أنواع هذه النبوءات كانت موجودة في مختلف الأقطار وقد اتخذت في مصر بنوع خاص أهمية متزايدة».

في معبد أورشليم قرابة عام ٦٢٠ قبل المسيح تكلم حزقيال عن نساء يتجرأن على التنبوء «من رؤوسهن». وحتى القوانين المتأخرة جداً للقديس باتريك، الذي يقال إنه

أدخل المسيحية إلى إيرلندا «الوثنية» حذر من «البيثيات». والبيثيا ماتزال تعرف في أهم المجتمعات الإنكليزية المعاصرة أنها نبية أو ساحرة.

عقلي ذو طاقة خارقة:

هذا الظهور الدائم للأفعى مع الربة، المترافق مع النبوءة والرؤيا المقدسة، يطرح سؤالاً عن قصد ومعنى الحضور المتكرر. فالطريقة التي كانت تستخدم بها الأفعى في النبوءة المعبدية لم تقدم لنا تقديماً واضحاً، ولكن هناك بعض الإشارات تقدم تفسيراً مقبولاً.

إحدى هذه الإشارات نتلقفها من قصة كاسندرا، القصة التي ظلت حية منذ مرحلة الآخيين والحرب الطروادية. تروي الليجندة أن كاسندرا تركت طيلة الليل في مقام دلفي كطفلة مفرطة في الصغر. وعندما وصلت أمها هيكوبي ملكة طروادة إلى هناك في الصباح. قالت إنها وجدت الطفلة محاطة بالأفاعي المقدسة التي كان يحتفظ بها في المقام. كانت الأفاعي يلحسن أذني كاسندرا. وهذه التجربة تقدم لنا تفسيراً كيف اكتسبت كاسندرا موهبة النبوءة.

وهناك نبي يوناني اسمه ميلامبوس رُويَ عنه أن الأفاعي أيضاً قامت بلحس أذنيه، مما أتاح له أن يفهم لغة الطير. وفي كتابات فيلوستراتوس زعم أن من الشائع تماماً عند العرب فهم الرؤى المقدسة وعلى الأخص أصوات الطيور، ويفسرون ذلك بأنهم يحصلون على هذه القدرة بالتهام قلب الأفعى أو كبدها. وأصوات الطيور كانت في الأغلب ترافق المقامات النبوئية في اليونان، بينما في كريت وفي عسقلان في كنعان كانت التماثيل عادة تشتمل على حمامة أو أكثر تجثم على رأس الربة أو الكاهنة.

وفي كل من اللغتين العبرية والعربية فإن مايدل على السحر مشتق من كلمات كلها تعنى أفعى. وقيل في بريتاني إن قوى خارقة يمكن الحصول عليها بشرب حساء معد من الأفاعي. وبين هنود السيوكس في أميركا الشمالية تعني كلمة واكان كلاً من الساحر والأفعى. والهنود في جنوب غرب الولايات المتحدة يقومون بطقس يكون شجاعاً من اختير كمؤهل لشرف القيام برقصة يسمح فيها للأفعى أن تلدغه عدة مرات. ونتيجة هذه التجربة أنه إن لم يمت، يكتسب كما يقال حكمة عظيمة وبصيرة كبيرة في أعمال الكون ومعنى كل الأشياء.

بالإضافة إلى هذه الارتباطات بين الأفاعي والرؤيا المعبدية النبوئية أثبت العلم الحديث البصيرة العميقة في العلاقة الممكنة بين العنصرين. فطبيعياً عندما يتلقى أي

شخص لدغة أفعى سامة وبالتالي يدخل السم في جهازه فإن هناك ردود فعل مختلفة بحسب أنواع الأفعى، تشتمل على الورم والنزف الداخلي وصعوبة التنفس والشلل. وهذه التأثيرات غالباً ما تكون مميتة. ولكن هناك سجلات حديثة عن أناس مُمَنَّعين لايمكن لسم الأفعى أن يسبب لهم الموت. وعندما يلدغون بعد المناعة بأفعى كوبرا أو كرايت أو أي أفعى سامة أخرى، فإن الموضوع يصبح عبارة عن حالة انفعالية وذهنية كتلك التي تنجم من تأثير الحبوب المهلوسة.

وصف وليم هاست، في سجل تحتفظ به زوجته، وهو من سربنتاريوم فلوريدا (حيث يستخلص السم لمختلف الاستخدامات الطبية) ردة فعله على عضة أفعى الكرايت، تلقاها بعد أن منع نفسه عدة تمنيعات بسبب عمله. والسجل نجده في كتاب كورش «الكوبرات في الحديقة». يكتب كورش:

«فجأة بدأ يشعر بخفة عذبة وبهجة غريبة، تقريباً غبطة، ومع ذلك كان مسمماً تسميماً خفيفاً... لقد امتلك حساً حاداً في السمع، حاداً إلى درجة الألم. وكان الهواء حوله صاخباً وغابة حقيقية من الضجيج المختلط. كأنه كان تحت تأثير مخدر غريب... كان لديه احساس غامض. كانت ردة فعل انفعالية خاصة لم يستطع السيطرة عليها. وحالما استلقى وعيناه مغمضتان قسراً استطاع «أن يرى» الأشياء. كانت أمامه رؤى».

في تقرير آخر حول الحادثة ذاتها يقتبس مارشال سميث العامل في مجلة الحياة من هاست قوله «وجدت نفسي أنظم أعظم الأشعار الغريبة. كان عقلي ذا طاقات خارقة». قد يكون نظم أو لم ينظم شعراً لكن نبوءات المقامات في اليونان قيل إنها تُقدَّم شعراً.

إنه يشبه مهدىء المسكالين (ينتج من صبّار البايوت الأميركي) أو العقار المهلوس سيلوسبين (موجود في بعض أنواع الفطور) وكلاهما استخدما كسرين من الأسرار الدينية في بعض أديان هنود أميركا الشمالية. والتصنيع الكيميائي لأنماط معينة من سم الأفاعي قد يسبب للشخص، على الأخص إذا كان رائق الذهن، شعوراً بأنه امتلك حقاً قوى الوجود واحساساً بإدراك الأحداث ومعنى الماضي والحاضر والمستقبل بوضوح عظيم واستيعاب كامل. هذا النمط من الإحساس يتحدث عنه عادة من يستخدمون المسكالين والسيلوسبين والليسيرجيل أسيد ديتيلاميد (ل. س. د). فالأفاعي المقدسة تحفظ وتطعم في المقامات المقدسة

للربة، ربما إنها ليست فقط رموزاً وإنما هي بالفعل أدوات من خلالها يمكن التوصل إلى تجارب الرؤيا المقدسة. وهذا يفسر لقب الربة الكوبرا المصرية التي كانت تعرف أحياناً بسيدة التعاويذ.

طبقاً لتقليد تلمودي قديم فإن سم الأفعى الذي أفسد حواء وكل البشرية فقد قوته من خلال رؤيا جبل سيناء لكنه استعادها عندما بدأت إسرائيل تعبد العجل الذهبي.

جسد الربة وسائلها:

لكن الأفعى ليست فقط الحلقة بين قصة آدم وحواء وعبادة الربة. هناك رمز آخر أهم في القصة هو رمز الشجرة، شجرة معرفة الخير والشر، التي تتدلى منها الثمرة المحرّمة. ثمة ليجندات معروفة من اليونان الكلاسية عن شجرة التفاح الذهبية للربة هيرا، التي عليها التف الأفعوان لادون. وقيل إن الشجرة أعطيت لهيرا من قبل الربة جيا، النبية الأولى للمقام في دلفي. ومع أنه عرفت ليجندات عن أشجار تفاح في اليونان الكلاسية فإني أرى أن شجرة معرفة الخير والشر في العصور الأشد قدماً لم تكن شجرة تفاح بل شجرة تين.

أنواع خاصة من الشجر أشير إليها باستمرار على أنها مقدسة في شتى السجلات القديمة ولكن تحت ثلاثة أسماء مختلفة للتضليل، بحيث جرى تجاهل هويتها الخاصة. فأحياناً تدعى الجميزة وأحياناً التينة وأحياناً التوتة. هذه الشجرة هي فعلاً فيكوس سيكومورس (تين الجميز) في الشرق الأدنى، وأحياناً يشار إليها أنها التوتة السوداء. إنها تختلف عن شجرة التين العامة في أن ثمرها الأحمر اللون ينمو في الغابات الضخمة، وأحياناً مثل عنقود عنب.

والإشارة إلى هذه الشجرة المقدسة نجدها في الكتابات المصرية، بينما يظهر تشخيصها في اللوحات الجدارية المصرية. فالربة حاتور في مصر قدست لسببين: لأنها عين الحكمة والسيدة الأفعى، لكنها كانت تعرف بلقب آخر ـ سيدة الجميز. وعرفت هذه الشجرة بأنها الجسد الحي لحاتور على الأرض. وأكل الثمرة كان يعني أكل جسد الربة وسائلها. بعض اللوحات الجدارية المصرية رسمت الربة داخل هذه الشجرة، فتقدم ثمرتها للميت باعتبارها طعام الأبدية والخلود والحياة الدائمة حتى بعد الموت.

إن نوع الشجرة المرسوم على الخواتم في كريت ربما كان هو نفسه، مع أنه رسم بشكل أكثر رمزية، إذ يظهر عناقيد الثمرة فقط. وقد رأى إيفانز أن التينة كانت مقدسة

عند الكريتيين ووصف في مقطع على لوحة جدارية في كنوسوس حيث أن الشجرة القائمة قرب المذبح كانت تينة. وأشار أيضاً إلى مجموعة من الأشجار المقدسة داخل جدران المقام الكريتي، التي تدل أوراقها أنها أشجار تين. الأختام والخواتم الكريتية رسمت دائماً الربة أو وصيفاتها إلى جانب أشجار مثمرة، فيعتنين بهن ويلاطفنهن كما لو كانت حفلة تكريس مقدسة.

من أعظم الدلائل تفسيراً لمعنى رمز هذه الشجرة هي المعرفة التي حصلنا عليها من الطقوس التذكارية التي تجرى في «الموت السنوي» لأوزيريس الأخ/ الزوج لإيزيس، موت مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتضحية السنوية بالملك. وطبقاً للسجلات المصرية كان أوزيريس أول من دفن بنعش من توت. هذا النعش وضع فيما بعد داخل شجرة جميز حية رمزاً لإيزيس حاتور باعتبارها أمه/ زوجته. وبهذه الطريقة تقدم له طعام الأبدية. وهذه العادة كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بليجندة أن إيزيس ذهبت إلى كنعان لتنقذ الشجرة التي دفن فيها أوزيريس فتقطع نعش أوزيريس من تلك الشجرة وتترك الباقي منها كأثر تذكاري في معبدها في بيبلوس فكان هذا المقام الكنعاني الذي صارت فيه إيزيس حاتور وبعلات مترادفتين.

الرمز المقدس لشجرة النعش الحاتورية يجعلها تشبه تلك الشجرة التي أشارت إليها التوراة باستمرار على أنها العشيرة. وقد تحدث حزقيال بقسوة عن «عبدة الأوثان» في معبد أورشليم الطائفين حول الغصن المقدس للشجرة كما كان ذلك خطيئة كبرى. مقاطع من حزقيال تهدد «لن ينجسوا اسمي بعد اليوم بزناهم وأنصاب ملوكهم الجنائزية» و «لاينجس بعد بيت إسرائيل اسمي القدوس لا هم ولا ملوكهم لا بزناهم ولا بجثث ملوكهم». وأشار أشعيا إلى زرع أشجار صغيرة لأدونيس فحذر أن «أغصان الآلهة الغريبة» سوف تأتي بحصاد الحزن والأسى اليائس.

وأشار إيفانز إلى أوراق التين الذهبية التي وجدت في القبور الميكينية وارتباطها بالعبادة الجنائزية هناك. فقد اعتبرت شجرة التين هبة منحتها الربة، كما عبدت أيضاً في المقام اليوناني الموجود في إليوس، وهو معبد بني على أسس ميكينية أيضاً. إنها نقيض الشجرة التي لقي أدونيس وأتيس مصيرهما الليجندي والشجرة التي يظهر عليها تمثال أتيس في روما. وديونسيوس، الشخصية المشابهة تماماً لأتيس وأدونيس، ترافق مع عبادة الربة في كل من دلفي وإليوس، وارتبط رمزياً بشجرة التين.

كما أشرت سابقاً فإن العشيرة أوالعشيريم التوراتية كانت تزرع أو تنصب إلى

جانب المذبح في معابد الربة. كانت الأنصاب والأعمدةالمكروهة التي كان العبريون يأمرون دائماً بتحطيمها. ومع أنه لادليل لدينا أن هذه كانت أشجار تين الجميز إلا أن الحقيقة تدل على ذلك. فثمار هذه الشجرة التي وصفت في النصوص المصرية أنها «جسد حاتور وسائلها» قد تكون تؤكل كنوع من «الاشتراك» مع الربة، وقد تكون هذه التي مهدت للاشتراك بـ «جسد ودم» يسوع، إذ تؤخذ على شكل رقاقات خبز وخمرة في كل يوم. إلا أن الأشد مكيدة هو ذلك السطر في التوراة الذي يقول إن آدم وحواء عندما عرفا أنهما عاريان نتيجة أكلهما الثمرة المحرمة من الشجرة راحا يصنعان أغطية من أوراق التين لتغطية أعضائهما الجنسية.

الأفاعي والجميز والجنس:

وهذا يُدخل فهمنا لعادات الجنس المقدسة وأنماط النسب الأمومي بيت القصيد بتوضيح الثمرة المحرمة. ففي كل منطقة كانت الربة معروفة ومكرمة. لم تكن تمجّد فقط كنبية للحكمة الكبرى، بتوحدها المتماهي مع الأفعى، بل كخالقة أصيلة وكزعيمة المتع الجنسية وتجديد النسل أيضاً. فالجدة المقدسة كانت تبرز باعتبارها هي التي تمنح الحياة وكذلك تقرر مصائر واتجاهات هذه الحيوات، وهذا تجمع ليس غير طبيعي. فقد كانت حاتور تعلم الناس كيف يتناسلون. وكانت عشتار وعشتاروت وإينانا تكرم كل واحدة منهن باعتبارها إلاهة الجنس والحياة الجديدة. والنساء المقدسات يحتفلن بمظهرها هذا وذلك عن طريق ممارسة الحب في المعابد.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار الحقد الذي يكنه العبريون للعشيريم، الرمز الأكبر للدين الأنثوي، فلن ندهش إذا كان رمز شجرة الثمرة المحرمة، التي قيل إنها تقدم معرفة الخير والشر، مع أنها في الأسطورة تبدو كمانحة للوعي الجنسي، مشمولاً في قصة الخلق للتحذير بأن أكل ثمرة هذه الشجرة سبب سقوط البشرية. فالأكل من شجرة الربة، التي تقوم في كل مذبح، كان وثنية خطيرة مثلما كانت عاداتها الجنسية وأفاعيها النبوئية.

وهكذا ففي قصة كيف بدأ العالم، القصة التي قدّمها اللاويون لتفسير خلق كل ماهو موجود، أدخلوا الأفعى المرشدة والمرأة التي قبلت استشارتها، وهو الأكل من الشجرة التي تمنحها فهم «ماتعرفه الآلهة فقط» ـ أي سر الجنس ـ كيف تخلق الحياة.

وكما حطم المدافعون عن يهوه مقامات الإلاهة الأنثى بكل ماستطاعوا، بالقتل عندما يفشلون في الهداية، كتب الكهنوت اللاوي قصة الخلق. لقد أعلنوا أن سيادة

الذكر ليست فكرة جديدة، وإنما في الحقيقة هي مقدسة سنها إله ذكر منذ فجر الوجود. فسيادة الذكر على الأنثى، إذ وجدت العبريات أنفسهن بلا حقوق، حقوق طالما كن يتمتعن بهن، كجاراتهن، ليس قانوناً يضاف مثل بقية القوانين العبرية، بل إنه مكتوب في التوراة كقانون من أوائل الأعمال العظيمة وبلاغات الخالق الذكر. وبكل إهمال وقح للتاريخ الحقيقي، أعلن القادة اللاويون أن الرجل يجب ان يحكم المرأة، معلنين أن هذا يتفق مع القانون الأصلي ليهوه، الذي طبقاً لهذه الليجندات الجديدة خلق العالم والبشر. وأسطورة آدم وحواء التي فيها فسرت وبررت سيادة الذكر، تعلم النساء والرجال معاً أن ملكية الذكر وسيطرته على النساء المطيعات الخاضعات تعتبران الحالة المقدسة والطبيعية للأجناس البشرية.

ولكن لتحقيق هذا الوضع اضطر كهان الإله الذكر إلى إقناع أنفسهم، ومحاولة إقناع أتباعهم أن الجنس، الوسيلة الحقيقية لإنتاج حياة جديدة، هو غير أخلاقي، إنه «الخطيئة الأصلية». وهكذا في محاولة تأسيس نظام القرابة الذكورية تحت اليهودية، وتبعتها المسيحية، منحى الأديان التي اعتبرت عملية الحبل عاراً وخطيئة. لقد استنبطوا قانوناً للأفكار الفلسفية واللاهوتية أن البشر بالزواج الموروث يعانون القلق أو الإثم فقط لكونهم كائنات بشرية ـ مع أنهم، في الوقت الحالي على الأقل، يقيمون حياة جديدة عن طريق المجامعة الجنسية ـ سواء اعتبر هذا الفعل أخلاقياً أو غير أخلاقي.

هذه هي المصيدة السيئة وغير الطبيعية والمزعجة التي صنعها الدين الأبوي بيديه وسقط فيها. فحتى اليوم مانزال نقرأ في كتاب الصلاة العام لدير وستمنستر تحت عنوان الاحتفاء بالزواج: «ومن ناحية أخرى فإن الزواج إنما هو من أجل العلاج ضد الخطيئة، وتجنباً للفسق، فالذين لا يملكون نعمة كبح النفس عن الشهوات الجنسية يمكن أن يتزوجوا، ويصونوا أنفسهم أعضاء غير منجسين في جسد المسيح».

الصورة تأخذ شكلاً أمامنا، فكل قطعة صغيرة لها مكانها تسقط فيه. فبدون عذرية الأنثى غير المتزوجةوبدون القيود الجنسية الصارمة على المرأة المتزوجة فإن ملكية الذكر للاسم والأملاك والسيطرة الذكورية على الحق المقدس في العرش لايمكنه أن يعيش في الوجود. وفي التجوال أكثر في جنة عدن، حيث الكوبرا النبوئية ملتفة حول تين الجميزة، نكتشف سريعاً أن الأحداث المتنوعة لأسطورة الفردوس، الواحد تلو الآخر، تفضح المقاصد السياسية لأولئك الذين كانوا أول من اختلق هذه الأسطورة.

السجل اللاوي للخلق ـ لاهوت أم سياسة؟

لنلق نظرة أقرب على قصة الخلق، وبالتالي على الفردوس المفقود التي رواها القادة العبريون، والتي تبناها وغذاها فيما بعد المدافعون عن المسيحية. فكما قارنا قصة الخلق اللاوية بسجلات دين الربة نلاحظ الآن كيف أنه في كل منعطف، في كل جملة من الأسطورة التوراتية تجري مهاجمة عقائد دين الربة.

كتب ستيفن لانغدون «وهكذا بعيداً عن أي شك اعتبرت المدرسة النيبورية للثيولوجيا السومرية أن الإنسان خلق بالأصل من طين على يد الربة الأم العظمى» ويخبرنا البروفسور كرامر «في لوح يقدم لنا قائمة بالآلهة السومريين وصفت الربة نامو التي كتب اسمها على شكل صورة تمثل البحر، بأنها الأم التي خلقت السماء والأرض». وتقول إحدى الصلوات السومرية مايلي: «اسمعي أيتها الأقاليم مديح الملكة نانا، مجدي الخالقة، كرمي وبجلي، كرمي صاحبة المجد الأولى، واقتربي من الربة القوية». وكتب المصريون «في البدء كانت إيزيس أقدم الأقدمين. كانت الربة التي منها كان كل شيء». وحتى في المراحل البابلية كانت هناك صلوات ترفع إلى مامي أو أورو كخالقة للحياة الإنسانية. ومع ذلك فإن عبدة يهوه، ربما بعد ألف سنة، أصروا أن الذكر هو أول من خلق العالم. وهو أول ادعاء بالقرابة الذكورية ـ فالذكورية كانت بدائية.

وطبقاً لليجندات سومر وبابل نجد أن النساء والرجال خلقوا في آن معاً، زوجين على يد الربة. ولكن في الدين الذكوري كان من الأهمية جداً أن يخلق الرجل أولاً، وعلى صورة خالقه ـ والادعاء الثاني والثالث يتعلقان بحقوق النسب الذكوري. بعد ذلك تخبرنا القصة أن المرأة خلقت من جزء صغير تافه في الإنسان، من ضلعه. وعلى الرغم من كل مانعرفه عن حقائق الولادة البيولوجية، وهي حقائق يعرفها اللاويون جيداً من دون شك، علينا أن نؤمن أن الذكر لايأتي من الأنثى بل تأتي الأنثى من الذكر. وهذا قد يذكرنا بالقصة اليونانية الهندوأوروبية عن أن أثينا ولدت من رأس زيوس.

إن كل من يتذكرأنه ولد من امرأة عليه أن يرفض ويغير رأيه. وكما في أسطورة الخلق عن طريق فعل الاستنماء الذي قام به بتاح المصري، فبذلك يحكم على الجدة المقدسة أن تبعد عن ساحة الواقع. عندئذ يخبرنا أن النساء اللواتي ولدن بهذه الطريقة إنما هن هبة للرجل، يعلن ويحدد وضعهن ـ بين أولئك الذين يقبلون الأسطورة ـ

باعتبارهن ملكية للذكر. وتخبرنا القصة أنها منحت له لتبعد عنه الوحدة، وكمعينة. وهكذا يجب علينا أن نفهم أن الغرض الوحيد والمقدس لوجود النساء هو مساعدة أو خدمة الرجال بطريقة ما.

والزوجان اللذان خلقا أسكنا في جنة عدن ـ الفردوس ـ حيث حذرهما الإله الذكر من أكل أي ثمرة من ثمار شجرة معرفة الخير والشر. وبالنسبة إلى العبريين القدامى فإن هذه الشجرة فهمت على أنها تمثل تين الجميزة التي للربة، والعشيرة المعروفة التي تقوم إلى جانب مذابح معابد الربة وبعلها. إن الغصن المقدس الذي يلتف في المعبد كما وصفه حزقيال، قد يكون الطريقة التي بها أخذت الثمرة كـ «مشاركة». وطبقاً للنصوص المصرية فإن أكل هذه الثمرة يعني أكل جسد وسائل الربة، سيدة المتعة الجنسية وتجديد النسل. وطبقاً لقصة التوراة فإن الثمرة المحرمة جعلت الزوجين يفهمان معنى الجنس. فبعد أكل الثمرة انتبه آدم وحواء لطبيعة جسدهما الجنسية. «وعرفا أنهما عاريان». وهكذا لما وجدهما الإله الذكر خجلاً وغطيا أعضاءهما الجنسية بستار من أوراق التين.

ولكن من المهم جداً في بناء الأسطورة اللاوية أنهم لم يجعلوا الزوجين يقرران أكل الثمرة المحرمة معاً، إذ كان الأفضل منطقياً لو أكلاها معاً، مادامت هذه الثمرة رمزاً للوعي الجنسي. إلا إن الكهنة الكتاب جعلوا واضحاً إقدام حواء على أكل الثمرة أولاً ـ بناء على إرشاد ونصيحة الأفعى.

يصعب علينا أن نصدق أنه من باب الصدفة أو التطابق أن تكون الأفعى هي التي قدمت لحواء النصيحة. إن أناس تلك الأيام كانوا يعرفون أن الأفعى كانت رمزاً، وربما تكون أداة، للاستشارة المقدسة في دين الربة. فقد كانت ولاشك متعمدة ومقصودة في أسطورة الفردوس، كما في أساطير الأفعى والتنين الهندوأوروبية، بأن الأفعى، عشتارة، مألوفة للنساء، تبدو كأنها مصدر الشر فدفعت إلى هذا الدور الخطير والآثم بحيث يكون الاستماع لنبية الإلاهة الأنثى خرقاً لدين الإله الذكوري بطريقة خطيرة جداً.

فالعلاقة بين المرأة والأفعى تبدو عاملاً هاماً، لأن العهد القديم يروي أن الإله الذكر تكلم مباشرة مع الأفعى قائلاً «واضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها». وبهذه الطريقة فإن كاهنات المعبد والنبيات اللواتي كانت مشهوراتهن وإرشاداتهن متوحدة مع رمز الأفعى واستخدامها لعدة آلاف من السنين، قد اعتبرن الآن ساقطات

من كل الأجناس البشرية. والمرأة، كمرشدة حكيمة أو كمستشارة عاقلة، كمفسرة بشرية للإرادة المقدسة للربة لم تعد تحترم، بل صارت مكروهة يخشى منها أو حتى يشك فيها ويتجاهلونها. وأمر لزوم الصمت من قبل المرأة، وعلى الأخص في الكنائس، انعكس فيما بعد في مقاطع لبولس في العهد الجديد. وطبقاً للثيولوجيا اليهودية والمسيحية فإن إدانة المرأة قد أدت إلى كارثة حلت بكل الأجناس البشرية.

ويخبروننا أيضاً أن المرأة بأكلها التفاحة أولاً امتلكت وعياً جنسياً قبل الرجل وأغوت بدورها الرجل فشاركها الثمرة المحرمة، أي شاركها خطيئتها في المتع الجنسية. صورة حواء هذه المغوية جنسياً ولكنها مغوية تتحدى الرب كان المقصود بها ولاشك تحذير جميع الرجال العبريين حتى يبقوا بعيدين عن نساء المعابد المقدسات، لأنهم إذا انجرفوا وراء إغواءات أولئك النسوة، فإنهم في الوقت نفسه يقبلون الإلاهة الأنثى - ثمرتها وجنسانيتها وربما وهو الأهم ماينتج عن هويتها الأمومية في كل الأطفال الذين يحبل بهم بهذه الطريقة. ولابد أيضاً، ربما بصورة أبرز، من أن يخاطبوا النساء العبريات، ويحذروهن بألاّ يشتركن في الدين القديم، على الرغم من التحذيرات والعقوبات التي أصدرها الكهنة اللاويون.

فأسطورة الخلق العبرية التي تلوم الأنثى من كل الأنواع على استباقها إلى الوعي الجنسي بغرض قمع عبادة ملكة السماء، ونسائها المقدسات والعادات الأمومية، منذ ذلك الوقت فما بعد منوطين بالنساء دور الإغواء الجنسي. فعليها تقع تبعة الاستثارة الخبيثة المحتالة لرغائب الرجال الجسدية. فهي التي تقدم الثمرة العذبة ولكنها الخطرة. ففي الأديان الذكورية لم يكن ينظر إلى الدافع الجنسي على أنه الرغائب البيولوجية الطبيعية للنساء والرجال تشجيعاً للنوع حتى ينتج نفسه، وإنما كان ينظر إليه على أنه خطيئة المرأة فقط.

لكن اللوم لم يكن فقط لأن أكل الثمرة الجنسية وإغواء آدم في أن يفعل الشيء ذاته، يقع كله على عاتق النساء، بل إثبات أو قبول أن خطيئتها الواضحة في آلام الولادة التي تتأكد منها النساء، هي عفتهن الأبدية بسبب تعليم الرجال هذه العادات السيئة. فحواء عوقبت عقاباً أليماً حسبما نص قانون الإله الذكر «تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولاداً وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك».

لقد استغل الكاتب اللاوي الحدوث الطبيعي للآلام من الضغط الذي يقوم به الجنين البشري وهو يمر من الرحم عبر قناة ضيقة إلى العالم الخارجي، وسعى إلى

إثبات القوة الجبارة لإلهه. ليس فقط أن المرأة تتحمل خطيئة وعيها الجنسي، بل طبقاً للإله الذكر يعتبر الألم في الحمل عقوبة بحيث أن كل النساء يلدن لابد من التوحد بحواء.

ولكن ربما الأهم من ذلك كان حقيقة أن القصة روت أيضاً أنه كانت إرادة الإله الذكر أن حواء لذلك لاترغب إلا في زوجها وتروّج لإثبات الإقرار «الإلهي» بسيادة الذكر وبالنظام الأسروي الذكري وبالمعرفة المؤكدة بالأبوة.

ربما كنا نألف السطر الأخير من القانون الذي يعلن أنه من الآن وصاعداً وبسبب خطيئتها ودفعها الأبدي ثمن جريمة التحدي التي اقترفتها ضد الإله الذكر، يكافأ زوجها بالحق الإلهي في السيطرة عليها وأن «يسود» عليها، تأكيداً لسلطته. وفي جريرة ما يفترض أنها اقترفته في البداية الأولى للزمن، كما لو كان اعترافاً بإدانتها، عليها أن تطيع وتخضع. ويمكن أن يلاحظ هنا الواقع العملي أنه حالما تمّ الإجهاز على الضمان الاقتصادي للنساء على يد مؤسسة النسب الذكري اضطرت النساء إلى الإذعان لوضع قبول هذا المانح الذكري على أنه الوحيد الذي «يحكم المأوى».

وحالما صدرت هذه المراسيم طرد الزوجان من جنة عدن، وهي الفردوس الأصلي حيث كانت الحياة هانئة، منذ ذلك الزمن ومابعد كان عليهما أن يكدحا من أجل أن يعيشا، كتحذير أليم لأي امرأة ماتزال تفكر في تحدّي يهوه اللاوي. إذ أليس مثل هذه المرأة التي استمعت إلى نصيحة الأفعى وأكلت الثمرة المحرمة وأغوت الرجال أن يفعلوا ذلك وينضموا إليها في الوعي الجنسي، هي التي سببت سقوط البشرية كلها وجلبت عليها بؤسها؟

الفصل الحادي عشر

بنات حواء

حتى هذا اليوم يعلمون الذكور العبريين أن يرفعوا الصلاة اليومية التالية «مبارك أنت أيها الرب إلهنا ملك الكون، الذي لم يخلقني امرأة». وقال محمد «عندما خلقت حواء ابتهج الشيطان».

بما أن الأسطورة العبرية عن الخلق دخلت أخيراً في الأدب المقدس للمسيحية، مع كل الكتابات الأخرى من العهد القديم، تبنّى الكتاب والقادة الدينيون الذين اتبعوا المسيح الموقف ذاته من الاحتقار للأنثى، متابعين استخدام الدين لمزيد من حصر النساء في دور الكائنات السلبية والناقصة فنجم عن ذلك المزيد من سيطرة الرجال على الملكية. وبتوالي السنين وباستمرار فقدان وضع النساء أساسه، عمدت الكنيسة بسرعة إلى تحقيق أهدافها في خلق وصيانة المجتمع الذي يسيطر عليه الذكر. إذ أليس هذا قانوناً من أوائل القوانين التي فرضها الرب الذي خلق العالم وكل ماهو حي؟ فالنساء يعتبرن بلا عقل، ومخلوقات شهوانية، وكلا الأمرين بررتهما و«أثبتتهما» أسطورة الفردوس.

نقرأفي رسالة بولس إلى أهل أفسس «أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضاً رأس الكنسية وهو مخلص الجسد. ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن في كل شيء» (أفسس ٥: ٢٢ - ٢٤).

إن هذا يعيد إلى الذاكرة اقتباساً من هوشع يقول فيه إن الزوج يوحّد نفسه كلياً بالإله الذكر بحيث تغدو كلماته هي كلمات يهوه. وفي الدين الجديد ليس الكهنة فقط، بل جميع الرجال يعتبرون رسلاً مباشرين للرب ليس فقط في الكنيسة بل في خصوصية مطبخ المرأة أو حتى في سريرها.

يستخدم بولس أسطورة عدن المألوفة في هذه الأيام فيؤكد أنها كانت السبب في أن على النساء أن يكن مطيعات، وينكرن نفوسهن حتى قدرة حبالهن الصوتية ناهيك

عن الإشارة إلى عقولهن. نقرأ في رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس (٢: ١١ - ١٤) «لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع. ولكني لست آذن للمرأة أن تعلم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت. لأن آدم جُبل أولاً ثم حواء. وآدم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي».

وأهل كورنثوس أدخلت إليهم كلمة ليجندة الخلق مرة ثانية. «ولكن أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح وأما رأس المرأة فهو الرجل ورأس المسيح هو الله. فإن الرجل لاينبغي أن يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده. أما المرأة فهي مجد الرجل. لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل» (كورنثوس الأولى ١١: ٣ - ٧ - ٩).

تقارير صممت بدقة لقمع البنية الاجتماعية القديمة فقدمت أسطورة آدم وحواء كبرهان إلهي أن على الرجل أن تكون بين يديه السيطرة المطلقة. فحالة الإله الذكر كانت حالة الإنسان الذكر ولاشك أنه ليس من باب الصدفة أن كهنة يهوه اللاويين كافحت بعنف من أجل تعزيز مركزه. وهذا ماقصده بولس في إعلانه أن تكون الذكورة هي في المقام الأول ذلك أنه أغمض عينيه عمداً عن حقيقة الولادة البيولوجية «لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل». فالنساء يكابدن الألم لكن الرجل يستلم الحساب.

وعندما كان الرسول بطرس في الأناضول، حيث كانت الربة ماتزال تكرم أدان الوثنيين لانغماسهم في العاطفة النجسة، تماماً مثل أنبياء العهد القديم، فهو يسخر غاضباً من أولئك الذين «يقصفون في النهار» وهو يشكو من أن هؤلاء الوثنيين الذين ظلوا يتبعون البعليم. ويحاضر بطرس جاداً «كذلكن أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن إذ باتباع هذه الطريقة في الزمن القديم فإن النساء المقدسات أيضاً اللواتي يؤمن بالله زيّن أنفسهن لكونهن خاضعات لأزواجهن» (رسالة بطرس الأولى ٣: ١ هذا مانقلناه عن المؤلفة أما ماجاء في الترجمات العربية فهو: كذلكن أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن حتى وإن كان البعض لايطيعون الكلمة يربحون بسيرة النساء بدون كلمة ـ المترجم).

إن القديس كليمنت، أحد آباء الكنيسة الرومانية، أنكر على النساء ـ باسم الله ـ المتعة والصحة ومؤثرات تقوية البدن من أمثال الرياضيات الجسدية كالمصارعة والجري زاعماً أنه جاء في التوراة أن نشاطات النساء يجب أن تنحصر بالغزل والنسج والطبخ.

والقديس جون كريسوستوم، وهو معلم مسيحي من القرن الخامس قال محذّراً «حالما تتعلم المرأة يصبح كلُّ شيء خراباً. وكذلك فلتترك بلا تعليم».

وزعم القديس أوغسطين من الفترة ذاتها أن الرجل وليس المرأة هو الذي خلق على صورة الله ولذلك فإن المرأة ليست كاملة بدون رجل بينما هو كامل بحد ذاته.

وقد أكد مارتن لوثر معتمداً في كلمته على الأفكار التوراتية ذاتها فكتب أنه من الطبيعي تماماً أن تكون النساء من طبقة ثانوية بالنسبة إلى الرجال. وفي كلمته «دفاع عن الحياة الزوجية» كتب أن الرجال يجب عليهم الاحتفاظ بسيطرتهم على النساء مادام الرجل أرفع وأفضل منها «فالترتيب والسلطة يرجعان إلى الرجل باعتباره رأس البيت وسيده».

وفي القرن السادس عشر تحدث المصلح السويسري جون كالفن معارضاً المساواة السياسية للنساء ويرى أن هذا «انحراف عن النظام الأصلي للطبيعة». حتى أنه يتعاطف صراحة مع تعدد الزوجات لأنه يساعد في حماية النساء من العنوسة وعدم إنجاب الأطفال.

وفي عام ١٥٢٧ وفي أطروحة عن حرية الإرادة كتب اللاهوتي المسيحي هوبماير:

«السبب أن سقوط النفس يمكن ترميمه جزئياً، فهو ليس سقوطاً مميتاً، حتى هنا على الأرض، بيد أن سقوط الجسد إلى حد ما لا يمكن ترميمه وهو سقوط مميت، يرجع إلى أن آدم كنموذج للنفس (كما أن حواء نموذج للجسد) فضل ألا يأكل من الشجرة المحرمة. كما أن الحية لم تخدعه بل خدعت حواء (تيموثاوس الأولى ٢: ١٤) ويعرف آدم جيداً أن كلمات الحية كانت مخالفة لكلمات الله. ومع ذلك أراد أن يأكل الثمرة مخالفاً وجدانه الخاص حتى لايغيظ أو يغضب ضلعه، جسده، حواء. لقد تمنى لو لم يفعل ذلك».

وترى الدكتورة مرغريت موراي في العديد من كتبها أن ملاحقة السحرة في العالم الغربي ما هي إلا استمرار لقمع الأديان «الوثنية» القديمة. والشيء المؤكد أن النساء كن الهدف الأول والضحايا الأولى لتلك المذابح الظالمة وكثير من الاتهامات كانت مرتبطة بالجنس على نحو ما. فالربة دانو، الجدة المقدسة لتوتادي دانان في إيرلندا ربما ارتبطت بالربة ديانا عند الرومان وديوني عند الإغريق وحتى دانوا في الهند، قد يكن أساس العبادة التي سموها عبادة السحر. إننا نعرف أن عبادة إيزيس في معبد إيزيس في لندن ومذبح إيزيس في لندن

ومذبح إيزيس في شمتر كان كلاهما يدلان على وجود دينها في الجزر البريطانية في ذلك الوقت.

وقد أقتبست موراي تقريراً من القرن التاسع يتعلق بالسحرة أشير فيه إلى أن ديانا كانت زعيمتهم. «بعض النساء الشريرات يقدسن الشيطان وتستحوذ عليهن أوهام وأطياف الشياطين يؤمن ويعلن أنهن يركبن ليلاً مع ديانا على وحوش معينة، مع حشد غفير من النسوة فيقطعن مسافات شاسعة يطعن أمرها كسيدة لهن فتوجههن في ليال معينة».

في كتاب «مرجل السحرة» يرى كليفورد إلدرمان أن قصة حواء وضعت قيد الاستخدام مرة أخرى، لكن هذه المرة لتبرير قتل النساء الكثيرات اللواتي تمردن على الكنيسة. وفي تقرير كنسي في القرن السادس عشر نقرأ «المرأة أكثر شهوانية من الرجل: هناك خلل في تركيب أول امرأة، إذ شكلت من ضلع منحن. إنها ناقصة ولذلك فهي دائماً مفسدة. وحرفة السحر تأتي من المتعة الشهوانية: فعلى النساء أن يكن عفيفات وتابعات للرجل».

ومن خلال الفرض العنيف والموافقة بالإكراه على الأديان الذكورية حصرت النساء أخيراً في دور بعيد جداً عن الحالة التي كن فيها في البلاد التي كانت تسودها ملكة السماء. وأعظم إخطارٍكان الصفة الإطلاقية في القوانين التي أصدرها الإله الذكر الكلي القدرة. وبمرور الوقت وصلت الذراع القوية للكنيسة إلى كل مكان ومعها جاءت المواقف «الأخلاقية» التي لاجدال فيها فأسند إلىالنساء دور التبعية.

في البنية الفعلية للأديان الذكورية المعاصرة رسمت قوانين ومواقف لسحق الأديان الأنثوية والاستقلال الجنسي الأنثوي والنسب الأمومي. هذه هي المفاهيم التي قبلها كثير من أجدادنا وآبائنا باعتبارها كلمة الله المبجلة والقدسية، فجعلوها جزءاً صميمياً من حياة العائلة حتى أنها الآن تؤثر حتى في أولئك الذين عاشوا منا بعيداً عن صلوات وأسرار الأديان المنظمة. ولاشك أنه آن الأوان للاختبار والتساؤل عن العمق الذي وصلته هذه المواقف حتى في أشد المجالات الدنيوية في مجتمع اليوم، وإلى أي مدى هي مصانة كبقايا قمعية لثقافة تخللتها وسيطرت عليها كلمة الكنيسة.

قد نجد أنفسنا مندهشين إلى أي درجة كان قمع طقوس النساء بالفعل قمعاً لحقوق النساء.

التحدي الشجاع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر:

تغلغلت أسطورة حواء وصورتها بعيداً في ذلك القسم من النساء حيث اختزنت مشاعرها العميقة وأفكارها وراحت قصة المرأة الأولى في أسطورة الخلق العبرية تتفاعل في أفئدة وعقول ونفوس النساء اللواتي امتعضن لكون الرجال يسيطرون عليهن، على الرغم من الكلمة المقدسة للإله الذكر الكلي القدرة.

كثير من النساء اللواتي تجرأن وتكلمن عن الأساليب التي بها قمعت النساء والتفاوت الأثيم لوضعهن في المجتمع مازلن يقبلن قبولاً مباشراً قصة التوراة عن المرأة التي أعطت أذنها لكلمة الأفعى فسببت بذلك إعلان حكم الذكر. في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت سلطة وتأثير الكنيسة أكبر عقبة تقف في وجه استقلال المرأة أكثر مما هي عليه الآن بكثير. ومع ذلك فإن رواد النضال من أجل مساواة المرأة وانصافها تحدثوا بجرأة وشجاعة ضد تلك السلطة متحدين الكنيسة وتعاليمها. والدفاع عن حقوق النساء كان بمعنى ما دفاعاً عن المرأة حواء.

أفكار وذكريات من العقاب الجائر لحواء مايزال رمزياً يحوم فوق النساء اللواتي تجرأن وطالبن بحقوق متساوية. وفيما كتبته ماري ولستونيغرافت عام ١٧٩٢ غدت معالم جنة عدن مرة ثانية موضوع النقاش. وفي إحدى المحاولات المبكرة لفضح المعاملة المخزية لنصف البشر في العالم كتبت ماري في كتابها «دفاع عن حقوق المرأة»:

«إن الرأي السائد أن المرأة خلقت من أجل الرجل برز من قصة موسى الشعرية التي لخصت تلخيصاً شديداً، فلم يولِ أي اهتمام جدي بالموضوع فافترض أن حواء، وهو يحدثنا حديثاً جاداً، كانت ضلعاً من ضلوع آدم، وهو استنتاج سمح بسقوطها حتى الحضيض أو أنه جرى التسليم بأنه يثبت أن الرجل منذ أقدم الأزمنة، رأى أن من الأنسب أن يمارس قوته لإخضاع شريكته وابتكاره لإظهار أنها مجبرة أن تحني عنقها تحت النير، لأنها في قصة الخلق الظالمة إنما خلقت لتؤمن له متعته...».

وبكل شجاعة واجهت احتمال توجيه اتهامات الإلحاد أو حتى أنها تحت تأثير «الشيطان» وهي اتهامات خطيرة في عام ١٧٩٢ فتابعت تصريحاتها العلنية «... ومع أن صرخة اللادين أو حتى صرخة الإلحاد ارتفعت في وجهي فسوف أعلن بكل بساطة أنه حتى لو هبط ملاك من السماء وأخبرني أن قصة موسى الشعرية الجميلة عن نشأة الكون وروايته عن سقوط الإنسان وقعت حرفياً، فإني لن أصدق أن مايخبرني به عقلي

كان ناقصاً أمام شخصية الكائن الأعلى: وبما أني لا أخاف من الشيطان أمام عيني، فإني أجرؤ على القول بأن هذا ماهو إلا افتراض نبع من العقل...».

كما ضمنت كتابها تحليلها النقدي لكتاب جان جاك روسو «إميل» الذي يدعو عام ١٧٦١ إلى تربية الأطفال في «مجتمع حر». فهذه الأطروحة إلى جانب أطروحة روسو الأخرى «العقد الاجتماعي» مارستا دوراً مؤثراً جداً في كل من الثورتين الأميركية والفرنسية. وقد اقتبست كثيراً من المقاطع الأخرى ذات الاتجاه الذكوري في كتابات روسو وخاصة وصفه لقواعد التربية الدينية للإناث في تلك اليوتوبيا المتحررة التي حلم بها. كتب روسو:

«بما أن سلوك المرأة تابع للرأي العام فإن إيمانها بالأمور الدينية، لهذا السبب بالذات، يجب أن يكون خاضعاً للسلطة. فيجب أن تكون كل ابنة على دين أمها، وكل زوجة يجب أن تكون من دين زوجها: فحتى لو كان الدين زائفاً فإن ذلك الانقياد الذي يدفع الأم والابنة إلى الخضوع لنظام الطبيعة يبعد عنهما، في نظر الله، إجرامية خطئهما... فهما ليستا في مستوى القدرة على المحاكمة اعتماداً على نفسهما، فلابد من اللجوء إلى قرار أبيهما أو زوجهما بثقة مثل ثقة الكنيسة».

تعلق ماري «فعلى هذا تكون حقوق الانسانية محصورة بالنسب الذكوري منذ آدم ومابعد».

ومع أنه في زمن كتابة روسو كانت الثورتان الفرنسية والأميركية تكافحان، فإن هذا الإنسان الذي دافع بحرارة عن الحرية والاستقلال والذي أثرت أفكاره تأثيراً عميقاً في الثوار في كل من البلدين يقترح (بوعي واضح) أن النساء حتى في «مجتمع حر» يجب أن تبقى «خاضعات للسلطة» وأن يقمن باللجوء إلى قرارات أبيهن وزوجهن وعلى الأخص في القضايا الدينية. فعلى الابنة أن تتبع دين أمها، لكن معتقدات أمها الدينية إنما يقررها زوج أمها. أما غير ذلك أي في أسرة ليس في أعضائها آباء فإن مايحدث هو غير ذلك، فالنساء اللواتي يفترض أنهن غير قادرات على المحاكمة اعتماداً على أنفسهن، لابد من أن يعكسن المبادىء الثيولوجية للرجال. أن السطر الدراماتيكي الأول في كتاب روسو «العقد الاجتماعي»: «يولد الإنسان حراً ولكنه في كل مكان يرسف في القيود» صرخة للاستقلال والحرية ماتزال ترن في آذاننا، وعلى الأخص في عام ١٩٧٦. وفي ذلك، طبقاً لهذا المؤلف نفسه فإن المؤسسات والعقائد الدينية التي تلح أن السيطرة الذكورية على المرأة أقرت

إلهياً (كان الدين مسيحياً في فرنسا ومستعمرات شمال أميركا) ظلت النساء توافق عليها من دون أي تساؤل.

في ١٨٣٨، أي بعد الثورة الأميركية باثنين وستين عاماً، برزت مقاتلة باسلة أخرى تطالب بحقوق متساوية للنساء وكتبت أيضاً عن الأم الميثولوجية للنساء اليهوديات والمسيحيات، باعتبار أن خطيئة حواء وعقابها استمرا عالمياً يدعمان حق الرجال في اضطهاد النساء واخضاعهن، قدمت سارة غريمكي وكأنها في محكمة قانون عالمي، المرافعة بأنه حتى لو كانت القصة الأصلية حقيقية ألم يخدم النساء عصرهن؟

«المرأة، وأنا أعي ماأقول، اتهمت حتى اليوم الحالي بأنها جلبت الخطيئة إلى هذا العالم. أنا لن أرد التهم بتأكيدات مضادة ولكن كما ألمحت فإن قبول آدم المسبق لاقتراح زوجته لايبرر ذلك التفوق في قوة العقل التي يتبجح بها الرجل. وحتى لو وافقنا أن خطيئة حواء كانت الأعظم، فإنه يبدو لي أن الرجل ارتاح للسيطرة التي ادعاها ومارسها ستة آلاف سنة تقريباً، وأنه يكون من النبالة الحقيقية لو أنه أفصح عن محاولة إنهاض الساقط وتقوية الضعيف، وليس بإبقاء النساء خاضعات. أنا لاأسأل تعاطفاً من بنات جنسي. ولن أتخلى عن مطالبتنا بالمساواة. كل ماأسأل إخوتنا هو أن يرفعوا أقدامهم عن أعناقنا».

لوسي كوميسار النائبة السابقة لرئيسة منظمة النساء العالمية في أميركا، وصفت في دراستها الاعلامية النسوية الجديدة تلك المرحلة المبكرة من نضال النساء من أجل الحرية والمعارضة. وتشرح بأن النساء صرن واعيات لقضايا اضطهادهن عندما حاولن أن يتكلمن عن إلغاء العبودية السوداء، وروت أن محاولة النساء الاشتراك في السياسة أثارت حفيظة الكنيسة والممثلين الرسميين لكلمة الإله الذكر:

«عندما زارت سارة وأنجلينا غريمكي نيوانجلاند لتتحدثا ضد العبودية في عام ١٨٣٦ أصدر مجلس كهنة المصلين في ماساشوسيتس بياناً يهاجمهما ويشير إلى أن قوة المرأة في تبعيتها النابعة من وعي ذلك الضعف الذي وهبه الله لها لحمايتها... فعندما تبرز وتخطب بلهجة الرجل المصلح فإنها تتخلى عن السلطة التي وهبها الله لها لحمايتها وتغدو شخصيتها غير طبيعية».

لكن سارة غريمكي لم تكن تخاف الانحدار حتى في الزمن الذي لم يكن قد مضى فيه أمد طويل على تخلي الكنيسة عن ممارسة حرق النساء على الحطب لأقل من

هذا الذنب. وفي رد غاضب شرحت فيه امتيازات الأديان الذكورية للرجال وعدم امتيازاتها للنساء بقولها «وبما أنهم قرروا أن يهوه وضع النساء في مرتبة أدنى من الرجال، فإنهم طبعاً يرغبون في الاحتفاظ بها هناك، ولذلك فإن القدرات النبيلة لعقولنا سحقت والقوى العقلية النبيلة لم تعد مثقفة».

عدة نساء اهتممن بإلغاء العبودية فصممن الانضمام إلى المؤتمر العالمي في لندن الذي نظم لمناقشة القضية، فما كان من فئة من رجال الدين الأميركان إلا أن يشدّوا الرحال ويسبقوهن إلى لندن لتحذير رجال الدين الإنكليز من أنهن قادمات وفي نيتهن إلقاء الخطب. فأثار هذا جدلاً طويلاً بين الرجال حول السماح للنساء، ونتج عن ذلك قرار يقضي أن النساء اللواتي سوف يسمح لهن بالحضور هن مَنْ يجلسن صامتات خلف مقصورات عليها ستارة.

وكان الرد على هذا القرار أن انعقد المؤتمر الأول لحقوق المرأة في سينكافولز في نيويورك وصيغ في هذا اللقاء عام ١٨٤٨ بيان النساء عن الاستقلال، وتحدثت النساء ثانية ضد الوضع المتدني الذي رسمته الكنيسة لهن. وفي ذلك البيان، بعد خمسة عشر قرناً من القضاء على عبادة ربة السماء وكاهناتها جاء: «إنه (أي الرجل) يسمح لها في الكنيسة كما في الدولة، ولكن في وضع التبعية، مدعياً سلطة رسولية بطردها من الرهبنة ومع بعض الاستثناءات من أي مشاركة عامة في شؤون الكنيسة... لقد اغتصب امتياز يهوه نفسه زاعماً لنفسه حق تحديد مجال عملها في حين أن هذا يتعلق بوعيها وبربها».

وكما تحدث هوشع مرة وكأنه يهوه بذاته فإن كثيراً من الرجال في عام ١٨٤٨ مستخدمين سلطة تلك الأفكار نفسها، ظلوا يوحدون أنفسهم بالإله المذكر، ومن خلال هذه السلطة قرروا وأعلنوا وأصدروا قرارات ضد النساء، معلنين لهن مايجب ومالايجب أن يفعلنه. وبرزت التوراة المرة بعد المرة لتثبت أن وضعهن لامجال للمناقشة فيه.

في عام ١٨٤٨ أخبرت العضوة النسائية املي كولنز عن رجل اعتاد أن يجلد زوجته، الأم الكادحة لسبعة أولاد. ولاتقوم هذه المرأة فقط بالاعتناء بكل الأولاد وبزوجها أيضاً بل بحلب البقرات وغزل الصوف ونسج الثياب لإلباس الأسرة بكاملها وإصلاح هذه الثياب لكل الأسرة. وجريمتها في نظر الزوج أنها «تنق» أي تشكو، بكلمة أخرى إنها تفصح وتقول مافي فكرها. وكان هذا سبباً كافياً لرجل مسيحي أن

يضرب زوجته. وسألت املي كولينز بسخرية مريرة وغاضبة بالله عليكن لماذا لايؤدبها؟ فالقوانين جعلت تأديبها من امتيازه ـ والتوراة حسبما فسرت جعلت ذلك واجباً عليه. والحقيقة أن النساء يتذمرن من حظهن العاثر، ولكن جاء في القانون المقدس «أن الرجل يسيطر عليك» و «أيتها الزوجات اخضعن لرجالكن خضوعكن للرب» مما جعلهن يعتبرن ذلك قدرهن المحتوم الذي لامفر منه».

إن السيادة والسيطرة الذكريتين بررتا أيضاً بتلك الكلمات القديمة. فعضوات الحركة النسوية قمن بعمل كبير فقد جمعن كتاباتهن في كتاب وسمينه «توراة المرأة» وفيه كتبت اليزابيت كادي ستانتون «من الملاحظ أن العبريين الشبان يتلقون أن عليهم أن يكرموا أمهاتهم بينما كل معنى التعاليم الدينية تعلم الاحتقار للجنس كله. فبأي طريقة يظهرون الإكرام لأمهاتهم؟ إن كل القوانين والعادات تحظر ذلك».

فالدين، كما عرف في العالم الغربي في القرن التاسع عشر، كان دين ذكر، فاليهودية والمسيحية والإسلام، وإن كانت قد تختلف حول مايجب أن تقدسه أو أي يوم هو يوم سبت، تتفق اتفاقاً حول موضوع واحد ـ وضع النساء. فالنساء يعتبرن مخلوقات ناقصة فرأت العناية الإلهية أن يكن مطيعات وأوعية صمت لإنتاج الأطفال ومتعة الرجال وإرضائهم. وهذه المواقف لم تزدهر فقط في الكنيسة بل شقت طريقها عابرة البوابات المقنطرة لتتغلغل بأسلوب شخصي في أفكار ومشاعر وقيم كل أسرة يهودية أو مسيحية أو محمدية.

في كتاب «المرأة الفكتورية» يصف دونكان كرو بعض قوانين ذلك العصر وتاثيرها في النساء. فيقول إنه حتى عام ١٨٥٧ كانت المرأة لاتستطيع أن تطلب الطلاق (ما عدا بمرسوم من البرلمان الذي كان عادة يحتفظ بذلك للطبقة الارستقراطية) ذلك أنه حتى عام ١٨٨١ لم يكن قد طرح للمناقشة الحق الشرعي للزوج في استخدام القوة الجسدية لمنع زوجته من ترك المنزل، وحتى عام ١٨٨٤ يمكن أن تسجن زوجة لرفضها حقوق زوجها «الزوجية». ويكتب أنه طبقاً لهذه القوانين فإن الدين المسيحي أيضاً كان قوة كاسحة في إعلان الوضع المتخلف للنساء والتمسك به. وبما ورثه من اليهودية أقام أسطورة أن مكان النساء التابع هو عقوبة لخطيئة حواء الأصلية. إنه يتمسك بكلمات بولس أن «الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل». ويلاحظ كرو أنه خلال العصر الفكتوري لايكفي أن يحضر النساء والرجال القداس في الكنيسة كل يوم أحد فقط، بل أيضاً قراءة التوراة في المنزل، وتنظيم لقاءات الصلاة، والاستماع وقراءة المواعظ والمراعاة الصارمة للسبت

إنما كانت أموراً نموذجية في كثير من البيوت، ويضيف أن «... وطأة الدين كانت كبيرة جداً».

في عام ١٨٧٦ عندما دافعت آني بيسان في كراس عن استخدام طريقة منع الحمل هبت في وجهها المقاومة من الحكومة والكنيسة. ويشرح آرثر نيتركوت مؤرخ سيرتها الوضع في ذلك العصر فيكتب «الموانع الجسدية في أي وقت كانت تعتبر ضد إرادة الله، وقلة من الناس كانوا يرون أنه لايوجد أي مخالفة في التدخل بالدورة الطبيعية بالمنع أو تجنباً لمرض أو إنشاء بيت بقسر العناصر، ومع ذلك يرفضون التدخل في عملية الإنجاب». أيضاً كتبت آني بيسان الشجاعة عن القوانين المتعلقة بالعناية بالأطفال، فرأت أن الكثير من المواقف في ذلك العصر كانت تضرب بعيداً حتى تصل إلى المواقف العبرية «عندما كانت المرأة تعتبر ملكية منقولة». وتشن هجوماً ضد سلطة الكنيسة المسيحية من وجهة النظر الدنيوية والنسائية فتلقي كثيراً من الخطابات العظيمة عبر انكلترا وتكتب الكثير من المقالات والكراسات من بينها كراس بعنوان «وضع المرأة كما ورد في التوراة» فتعرض نفسها لعداء واستياء كبيرين جداً وكانت أحياناً تتلقى تهديداً بالعنف الجسدي.

في مجموعة المقالات والمقتبسات «أصوات حرية النساء» الكثير من المقتطفات من خطابات وكتابات الحركة النسائية المبكرة، ونجد كثيراً من هذه المختارات في كتاب صغير شهير بعنوان «تاريخ اقتراع النساء» نشر في عام ١٨٨١. ومقتطف من خطاب ألقته عام ١٨٥٣ امرأة اسمها آبي فوستر جاء فيه أن التربية وصياغة العقول الصغيرة في ذلك العصر متأثران جداً بالكنيسة. وذهبت إلى أن الكثير من هذا كان يتم من خلال السلطة التي تمارسها الكنيسة على الأم، إذ أن الطفل على المدى الطويل إنما يتلقى تعاليم ومواقف الكنيسة. واستنتجت: «قد تقولون لي أن المرأة هي التي تصوغ عقل الطفل ولكني أرد هذه التهمة رداً قوياً واقول إن الكاهن هو الذي يصوغ عقل المرأة. إنه هو الذي يجعل الأم على ماهي عليه، لذلك فإن تعاليمها للطفل تقتصر فقط على حمل تعليمات منبر الوعظ لتستخدمها ثانية».

على الرغم من الاتهامات فإن رجال الكنيسة المنظمة لانية لديهم في إعادة فحص أو مراجعة الوضع المتدني الذي جعلوه من نصيب النساء. لقد تابع رجال الكهنوت التمسك بأن الرجال، طبقاً الانظمة المقدسة القديمة، قوامون على النساء اللواتي هن بحكم طبيعتهن ضعيفات روحياً وناقصات عقل. وهكذا كان أنه في عام ١٨٦٠ بعد

زهاء سبعين سنة من الاتهامات المستمرة ضد موقف الكنيسة من النساء كانت سوزان انطوني جريئة في تعليقها: «بالقانون والعاطفة العامة والدين، منذ أيام موسى وحتى أيامنا الحالية لم يفكروا بالمرأة أكثر من أنها قطعة من الملكية، ولاتتصرف إلا حسب إرادة الرجل وهواه».

النظر خلفاً من أجل النظر أماماً ـ الفردوس في المنظور العام:

كلما تعاظمت قوة النضال من أجل الحقوق المتساوية للنساء استمرت الكنيسة في ممارسة سلطتها وتأثيرها بحماسة عظيمة، متمسكة جداً بالمفهوم العزيز المقدس لتفوق الذكر. وعلى الرغم من غطرسة التعليقات الذكورية التي كانت في الأغلب لاتتعدى التسليم الواضح بانزعاج الطبقة الحاكمة خوفاً من إزاحتها، ويحاولون إلباسها نوعاً من المرح أو المزاح لتمريرها، فإن العداء أحياناً ينفجر على شكل عنف جسدي شرير عندما يفشل المزاح في عمله. وتوضح كوميسار أن «سلك الكهنوت كان دائماً في مقدمة الكفاح ضد الاقتراع، فيأتي بمقبوسات من التوراة لإثبات أن النظام الطبيعي للأشياء هو طاعة الأنثى للرجل».

ومع أن النساء حصلن على حق التصويت، وهذا في الحقيقة جزء من أهدافهن الكبرى، فإنهن وجدن أنفسهم مع هذا التصويت الذي اكتسبنه بصعوبة مازلن يعشن في مجتمع يسيطر عليه الرجل سيطرة عامة، فرض فيه على النساء أن يؤمن أن الخالق الذكر خلق الإنسان أعقل من المرأة: فالنساء الآن حرائر أن يصوتن ـ ولكن للرجال.

إن هؤلاء الذين يسيطرون سياسياً يتحدثون باستمرار عن الدولة والله بنفس واحد. فكلمة الكنيسة ماتزال قوية وقرون من العنف باسم الدين ومن الحروب المرعبة المخيفة ومن محاكم التفتيش ومطاردة السحرة تطوف مهددة الذاكرة كل من تسول له نفسه تحدي سلطة الكنيسة.

الخوف والعنف دعما مبادىء الأديان الذكورية في كل مجالات المجتمع. والمؤسسة التي سحقت بعنف عبادة ملكة السماء قدمت الآن بدلاً منها الجريمة والخطيئة ودور حواء في الطاعة. ويلاحظ بات وايتنغ في «سياسة الجسد» وهو مجموعة حديثة من الكتابات عن حركة تحرير النساء في بريطانيا أن «ثقافتنا محصنة بميثولوجيا قداس العبريين. خطيئة حواء الأصلية ماتزال معنا». وتشير برباره كارتلاند في دراستها عن النساء في المجتمع الحديث إلى النساء باعتبارهن «حواء الخالدة». وقد اختير اسم لمجلة

إنجليزية تهتم بوضع النساء في المجتمع المعاصر بتهكم مضحك وهو عنوان «الضلع الاحتياط».

لآلاف السنين والتفوق الذكوري يشار إليه ويعلن ويثبت ويصرح به ويستعرض ويؤكد ويوطد ويعاد تأكيده من قبل التوراة وأولئك الذين يؤمنون بالتوراة على أنها حكمة الخالق المقدسة.

وحديثاً عام ١٩٦٥ علقت كارتلاند على البناء الأناني والتأثيرات الكبيرة لقصة الفردوس ـ للذكر:

«في السجل الدقيق في سفر التكوين يستطيع الرجل أن يحصل على قناعة أنه فعلاً كما كان دائماً يعتقد، أروع مخلوقات الله... وهذا مايريحه أيضاً، إذ يترك الرجل من دون أي شك في الوضع الحصري المتفرد للكمال الرفيع الذي يملكه في العالم... أكثر من تسعة أعشار العالم تجد قصة التكوين التي تدين شر المرأة صدى في قلوب الرجال».

وتشير سيمون دي بوفوار في دراستها الكلاسية لاضطهاد النساء في كتابها «الجنس الآخر» بتهكم ذكي إلى ملاءمة دين الذكر ـ للذكور. وطبقاً لبوفوار «يتمتع الرجل بامتياز كبير وهو أنه يملك رباً يصدّق على القانون الذي يكتبه، وبما أن الرجل يمارس سلطة حاكمة على النساء، فمن صالحه أن تكون هذه السلطة موهوبة له من قبل الكائن الأعلى. فالرجل بالنسبة لليهود والمحمديين والمسيحيين إلى جانب آخرين، هو سيد بموجب حق إلهي، ولذلك فإن الخوف من الله يقمع أي نزوة تمرد لدى الأنثى المسحوقة».

وتسجل إيفا فيجز في كتابها «المواقف الأبوية» ردة الفعل غير المدهشة كثيراً لمطران إنكليزي في عام ١٩٦٨ لاحظ بتواضع بليد، لدى تعليقه على سياسة النساء في إكليروس الكنيسة الإنكليزية «إذا أعطيت الكنيسة صراحة للنساء فستكون بطاقة نعي لكنيسة الرجال».

عندما واجه رئيس أساقفة في سان فرنسيسكو سؤالاً عن سياسة النساء في الكنيسة عام ١٩٧١ قدم جواباً جعلناه في بداية هذا الكتاب: «جنس المسيح ليس مصادفة وذكوريته ليست عارضة. إن هذا اختيار إلهي».

وتضع كوميسار قائمة بالأحداث التي جرت منذ أن حققت الحركة النسائية زخماً في العصور الحديثة، أحداث تبرز تساؤلاً عن مواقف الكنيسة تجاه النساء. وتشتمل

على سجلات عن أخوات كاثوليكيات اتهمن الكنيسة صراحة بكونها كنيسة مذكرة فأظهرن أنها تضع النساء في المرتبة ذاتها التي تضع فيها الأطفال، وهي التي تضع الأطفال في المرتبة ذاتها التي تضع فيها البلهاء.

ربما تكون تاثيرات الكنيسة ضعيفة على الافراد والمجتمعات، وعلى الأخص بالنسبة إلى أولئك الذين يعيشون في المدن الكبرى، حيث تقل الحياة الاجتماعية أو الضغط الاجتماعي. ومع ذلك يستمر التأكيد على تفوق الذكر داخل الكنيسة. إن ذلك مكتوب في القوانين الأساسية والأدب المقدس، التي عليها أنشىء الدين الذكوري. وكما تعلق إيفا بنجس بحق «قد تموت الكنيسة على قدميها، ولكنها تظل متمسكة حتى النهاية بحصر السلطة بالذكر وهذا ماكان سبب وجودها في الدرجة الأولى».

ومع ذلك فإن ذاكرة الدين الأنثوي القديم ـ ملكة السماء والكاهنات والعادات الجنسية المقدسة ـ ماتزال تطوف في ذاكرة بعض الرجال الذين يسيطرون على الكنيسة حتى اليوم. فقد ظهرت في مجلة التايمز اللندنية ٢٤ مايس ١٩٧٣ مقالة بعنوان «الكاهنات انتقال إلى القوانين الوثنية». فمرة ثانية أحدثت سياسة النساء في كنيسة يسيطر عليها الذكر ردة فعل. وطبقاً لمراسل الشؤون الدينية في التايمز:

تحذير هو أن قبول النساء بالكهنوت في كنيسة انكلترا سيكون تغيراً ذكياً نحو الأديان الوثنية، وجهه رئيس أساقفة اكسيترا الدكتور مورتيمر، إلى اجتماع كانتربري البارحة.

أعلن أن الكاهنات في أديان الطبيعة القديمة شائعات «وكلنا نعرف أنواع الأديان التي كانت وتكون». فكثيراً ماتكيفت الكنيسة مع الشروط المتغيرة في الماضي، وعليها أن تضاعف حرصها في «جنس الثقافة الهاجسة».

مهما كان ظرف الكنيسة في هذه المرحلة من التاريخ، فإننا لانستطيع أن نحذف أو نتجاهل التأثيرات البعيدة التي استمرت سلطة الكنيسة قروناً تمارسها على كل منا اليوم، ولا أهمية لمدىماابتعدنا عن المنبر أو المذبح الحقيقي. إنها لأسرة نادرة تلك التي تنظر خلفاً لجيلين أو ثلاثة أجيال ولاتجد أسلافها غارقين في مواقف وقيم دين من الأديان ذات الاتجاه الذكوري. ولهذا السبب فإن الضغوطات الدينية ليست بعيدة عنا كما يحلو لنا أن نفكر.

هناك داخل البنية الحقيقية لحياة العائلة، في العائلات التي اعتنقت أو تعتنق

الأديان الذكورية، ثمة عادات اجتماعية مقبولة قبولاً غير مرئي تعكس الالتزام الدقيق بالأسفار التوراتية. مواقف تجاه المقياس المزدوج للإخلاص الزوجي والاستقلال الجنسي للنساء واللاشرعية والإجهاض ومنع الحمل والإغتصاب والولادة وأهمية الزواج والأطفال بالنسبة إلى النساء ومسؤوليات النساءودورهن في الزواج والنساء كاشياء جنسية والتوحيد الجنسي للسلبية والعدوانية ودور الرجال والنساء في العمل أو المواقف الاجتماعية والنساء اللواتي يعبرن عن أفكارهن والقيادة الأنثوية والنشاطات العقلية للنساء، والأنشطة الاقتصادية والاحتياجات إلي النساء والافتراض الأوتوماتيكي للذكر كمعيل وحام كلها أصبحت متأصلة عميقاً بحيث أن المشاعر والقيم المتعلقة بهذه الموضوعات تعتبر، من قبل النساء والرجال معاً: ميولاً طبيعية أو حتى غريزة إنسانية.

ربما لم تعد المواقف التوراتية مبررة في نظر كثير من النساء أو الرجال المعاصرين ولا معتبرة حيوية ومطلقة بسبب أن الرب قرر أنها هكذا، ولكن قروناً من اتباع هذه العقائد المؤسسة دينياً قد أثبتت البرهان التالي ـ الناس دائماً وافقوا عليها باعتبارها صحيحة لذلك لابد أن تكون طبيعية، لابد أن تكون طريقة عادية للكينونة.

إن معرفة الأديان الأنثوية الأولى التي تكشف السلوك والمواقف البشرية التي كانت معاكسة تماماً لما نسميه اليوم الميول الإنسانية الطبيعية والتي كما رأينا كانت حقاً السبب الخفي لكثير من ردود الفعل والمواقف الدينية التالية، قد نسيت بكاملها تقريباً أو أنها أسيء فهمها. فالرقابة العفوية أو المقصودة في الثقافة العامة والأدب الشعبي ترفض الواقع الفعلي لأهمية هذه الأديان بل ترفض حق وجودها.

حديثاً في عام ١٩٧١ باشرت امرأة مثقفة واسعة المعرفة في تأليف كتاب عن الصراع السياسي للنساء اليوم فتحدثت عن الدين الأنثوي القديم بثلاثة أسطر فقط. لقد كتبت أن الأديان الوثنية عبدت أصلاً النساء، بيد أن ذلك كان في عصر لانعرف عنه إلا القليل، وحلّت الأرباب محل الربات وتوطدت في الدين سيادة الذكر.

وكتاب حديث آخر حول وضع النساء في التاريخ يبدأ باليونان وتشير المقدمة إشارات غامضة إلى أن ثقافة كريت كانت المجتمع الأكبر الوحيد الذي سبق اليونان، وأنه لايُعرف شيء تقريباً عن كريت أو أي ثقافة من الثقافات الأخرى القديمة.

وامرأة تعمل أستاذة الأنتروبولوجيا في جامعة مشهورة في الولايات المتحدة أكدت

لجماعة من النسوة في مؤتمر الدراسات النسائية في عام ١٩٧١ أن كل الربات كانت تماثيل خصب عارية سمينة تطورت وعبدها الرجال.

لقد آن الأوان لإظهار الحقائق عن الأديان الأنثوية القديمة إلى النور. لقد ظلت مخبأة زمناً طويلاً جداً. وبهذه الحقائق سنكون قادرين على فهم التطور المبكر لليهودية والمسيحية والإسلام وردود فعلها على الأديان والعادات الأنثوية التي سبقتها. وبتلك الحقائق سوف نكون قادرين على فهم كيف أدت ردود الفعل هذه إلى مواقف سياسية وأحداث تاريخية وقعت إبان تشكل هذه الأديان ذات الاتجاه الذكري ـ مواقف وأحداث لعبت دوراً كبيراً في صياغة صورة النساء منذ تلك العصور وأثنائها. وبهذه الحقائق سوف نكون قادرين على توضيح قرون الاضطراب، وسوءاً لفهم وكتم المعلومات، بحيث نستطيع الحصول على الفرصة المناسبة الضرورية لاختبار الصورة والوضع والأدوار التي ماتزال تناط بالنساء في هذه الأيام. وبهذه الحقائق يمكننا أن نحصل على المنظور التاريخي والسياسي الذي يمكننا من رفض أفكار «الأدوار المرسومة طبيعياً أو إلهياً» وأخيراً فإنها تفتح الطريق لمزيد من الاعتراف الواقعي بقدرات الأطفال والبالغين، سواء أكانوا إناثاً أم ذكوراً، باعتبارهم كائنات بشرية فردية. وعندما تفهم المصادر القديمة للجنس المتضخمة في هذه الأيام فهماً جيداً فإن أسطورة جنة عدن لن تعود قادرة على الاستحواذ علينا.

إن قتل الزوجة الخائنة ليس رداً ما دام يوجد صمت وتوهين للنساء اقتصادياً. ربما عندما يأكل الرجال والنساء معاً تلك التفاحة ـ أو التينة ـ في الوقت ذاته يتعلمون أن ينظر كل واحد إلى أفكار الآخر وآرائه باحترام، ويعتبر العالم بغناه مكاناً يخصّ كلّ كائن حي فيه، فعندها نستطيع القول إننا أصبحنا فعلاً جنسين متمدنين.

المؤلفة:

مارلين ستون: تخصصت في دراستها بالفن وتاريخ الفن وعملت في النحت زهاء عشر سنوات ١٩٥٩ ـ ١٩٦٧. لكن جذبتها الأركيولوجيا فاتجهت إلى دراسة الدين القديم لمدة تزيد على عشر سنوات، زارت خلالها مواطن الحضارات الأولى وكانت ثمرتها هذا الكتاب الذي ظهرت طبعته الأولى في إنكلترا بعنوان «أوراق الفردوس» إلا أنها جعلت عنوانه في بقية الطبعات «يوم كان الرب أنثى».

المترجم:

حنا عبود ناقد أدبي له مؤلفات منها: المدرسة الواقعية في النقد العربي الحديث. النحل البري والعسل المر. مسرح الدوائر المغلقة. الحداثة عبر التاريخ. فصول من الاقتصاد الأدبي. من حديث الفاجعة... وغيرها. وترجم كثيراً من المؤلفات منها: المجلد الرابع للمؤلفات الفلسفية لبليخانوف. معجم الأساطير. موسوعة الأساطير. البنيوية في الأدب. الأساطير. الأسلوب اليوناني. الأسلوب الروماني. المسرح: ثلاثة آلاف سنة من الدراما والتمثيل والحرفة السحرية... وغيرها.

المحتويات

يوم كان الرب أنثى

كيف حصل هذا؟ كيف اكتسب الرجال السيطرة التي تسمح لهم الآن بتنظيم العالم على ضخامة تنوّعه وتقرير أي الحروب التي يجب أن يشنوا عندما يحين وقت وجبة الغداء؟

هذا الكتاب هو نتيجة إجاباتي عن ذينك السؤالين والأسئلة المشابهة التي يطرحها كثير منا عن وضع النساء في مجتمعنا فنسأل وتسأل واحدتنا الأخرى. وحتى لو أجبنا عن هذه الأسئلة يبرز سؤال آخر. ماذا نتوقع من مجتمع يعلّم أولاداً، ذكوراً وإناثاً، لعدة قرون، أن الإله الذكر خلق الكون وكل مافيه، وجعل الرجل على صورته المقدسة ـ ومن ثم، وكتفكير تالٍ خلق المرأة لتساعد الرجل مناصفة له في كل مساعيه؟ صورة حواء التي خلقت من أجل زوجها، ومن زوجها، إنها المرأة التي أنتجت لسقوط البشرية، صارت بطرق كثيرة صورة لكل النساء. كيف ظهرت هذه الفكرة إلى الوجود؟

في مراحل ماقبل التاريخ وفي المراحل التاريخية المبكرة من التطور البشري وجدت أديان قدّس فيها الناس خالقهم، باعتباره أنثى. فالربة العظمى ـ الجدة المقدسة ـ عُبدت منذ بدايات العصر النيوليني ٧٠٠٠ سنة قبل المسيح حتى إغلاق آخر معبد للربة عام ٥٠٠ بعد المسيح. بعض الباحثين الموثوقين يمدون عبادة الربة بعيداً في الماضي حتى العصر الباليوليثي الأعلى الذي يمتد إلى ٢٥٠٠٠ سنة قبل المسيح.

مارلين ستون

السعر ٢٢٥ ل.س